الكتاب السابع

قضـــايا إيمـــانيـة (٢)

قضية الشفاعة

٠٠ ومقالات أخرى

دكتور جميل نجيب سليمان

اسم السلسلـــة : نور الحياة
الكتـــاب الثامن : قضايا إيمانية (٢)
قضية الشفاعة
.. ومقالات أخرى
المـــــــــؤلف : دكتور جميل نجيب سليمان
gamilnsoliman@yahoo.com
الطبعـــــــــة : الأولي ٢٠١٠
الناشـــــــــر : بيت مدارس الأحد القبطي
ت : ٢٢٠٢٩٧٤٤
المطبعـــــــــة : مدارس الأحد، ٧٠ شارع روض الفرج
رقم الإيـــداع : ٨٨٩٣ / ٢٠١٠

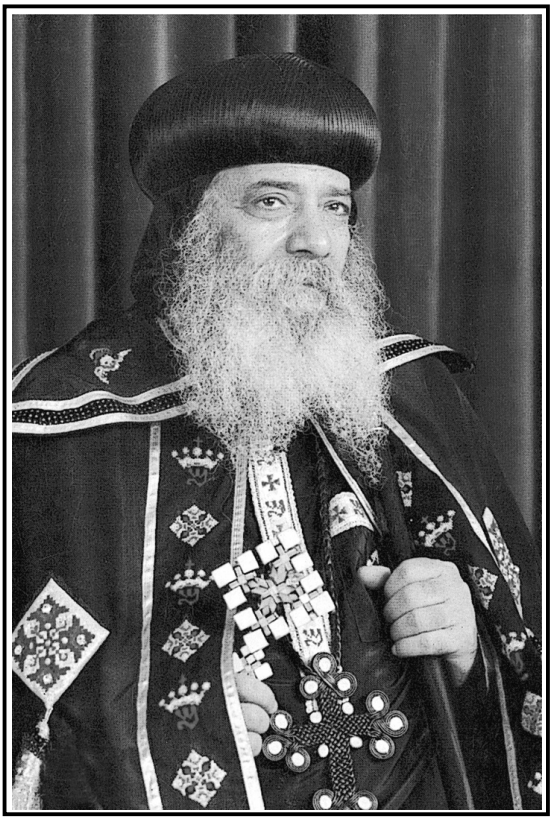

صاحب القداسة والغبطة

البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ (١١٧)

المحتويـــات

١ – قضية الصلاة والعبادة ٩

+ قضية الصلاة ١٠
+ العبادة والتسبيح ٣٦
+ العبادة واللغة ٥١
+ القداس الإلهي..السماء علي الأرض ٦٤
+ بين السبت والأحد ٦٨
+ الناموس والأنبياء وعهد النعمة ٧٣

٢ – قضية المؤمن والكنيسة ٧٩

+ الانتماء للكنيسة، مسئولية مشتركة بين الكنيسة والمؤمن ٨٠
+ الكنائس التقليدية ورياح التغيير ٩٣

٣ – قضية الشفاعة ١٠٥

+ قضية الشفاعة ١٠٦

٤ – **قضية الإنسان والحياة والزمن** ١٤٥

+ رؤية مسيحية للجسد ١٤٦

+ رؤية مسيحية للحياة والوجود ١٥٦

+ الله والإنسان والزمن ١٦٧

+ الإنسان وكوارث الطبيعة ١٧٨

٥ – **قضية الدين والشريعة** ١٨٩

+ الدين والشريعة والقانون ١٩٠

كلمة إلى القارئ

قضايا الإيمان المسيحي التي تهم كل مؤمن كثيرة متنوعة، وبالطبع لم يكف كتاب واحد لمناقشتها وإلقاء الضوء عليها... وقد أشرنا إلى هذه الحقيقة في مقدمة **الكتاب الخامس** من هذه السلسلة من الدراسات في كلمة الله **"نور الحياة"** (٢٠٠٨) الذي تناول عدداً من **"القضايا الإيمانية"** .

ومن هنا فقد أفردنا هذا **الكتاب السابع** من **"نور الحياة"** ليكون جزءاً ثانياً من **"قضايا إيمانية"**، يتناول عدداً منها وهي **"الصلاة والعبادة"** ، **"المؤمن والكنيسة"**، **"الشفاعة"**، وآخرها **"الإنسان والحياة والزمن"**.

+ ففي قضية **"الصلاة والعبادة"**، ناقش الكتاب **"قضية الصلاة"** المحورية وضرورتها رغم أن الله يعرف كل احتياجاتنا وهو صاحب القرار من قبل ومن بعد، كما تناول علاقة **العبادة بالتسبيح** وعلاقة **العبادة باللغة**، ويجيب على أسئلة تتعلق **بالقداس الإلهي** في كنيستنا، ولماذا صار **الأحد** يوم الرب، وماذا يبقى من **"الناموس والأنبياء" في العهد الجديد**.

+ وفي قضية **"المؤمن والكنيسة"** عرض الكتاب لدور كل من الكنيسة والمؤمن في **"الانتماء للكنيسة"** باعتبارها مسئولية مشتركة، كما وجّه الأنظار إلى **رياح التغيير** التي تهبّ على كثير من **الكنائس التقليدية**، داعياً إلي المواءمة بين الأصالة والمعاصرة.

+ كما ناقش الكتاب "**قضية الشفاعة**" المثيرة للجدل وكشف البُعد الكتابي لشفاعة التوسل وحدودها وشروط فعلها.

+ وتناول أخيراً "**قضية الإنسان والحياة والزمن**" مقدماً الرؤية المسيحية للحياة والجسد و الزمن، ومبدّداً حيرة المؤمن الذي تصدمه من حين إلي حين "**كوارث الطبيعة**" الأليمة،كاشفاً عن أسبابها وجوانبها الإيجابية.

❊ ❊ ❊

ومرة أخرى نقول أن القضايا الإيمانية الأخرى لن تنتظر طويلاً لكي تتم مناقشتها في أجزاء تالية من "**نور الحياة**" على ضوء كلمة الله.

وإني أسأل إلهي أن يستخدم هذا الجهد المتواضع لمجد اسمه، ولإثارة الأذهان والقلوب لتفتيش الكتب والتصادق مع كلمة الله التي هي نور العقل والقلب وكل الحياة.

قضية الصلاة والعبادة

+ قضية الصلاة
+ العبادة والتسبيح
+ العبادة واللغة
+ القداس الإلهي.. السماء على الأرض
+ بين السبت والأحد
+ الناموس والأنبياء وعهد النعمة

قضية الصلاة

وهل هناك للصلاة قضية؟!

..الصلاة التي هي أسمى هبة أنعم بها الله على الإنسان: وسيلةً فريدة للاتصال بالإله المُحب، كي يُسبِّحه ويتأمل في عجائبه، ويلهج في ناموسه، ويسأله، ويتوسل إليه ويشكو، ويتوب إليه ويستغفره، وفيها ينطلق من أَسْر الواقع ليدخل بها إلى رحاب السماويات؛

الصلاة التي هي أُم الفضائل وعمل القديسين ومصدر القوة والمعونة والفرح للمؤمنين؟!

نعم، للصلاة عند البعض قضية.

وضمن هؤلاء البعض مؤمنون تنتابهم الحيرة أحياناً عندما تتسلَّل إليهم أفكار العالم المادي غير المؤمن الذي لم يتمتع بعشرة الله، والذي يرى أن الصلاة هباء

فهي لن تُغيِّر واقعاً. بل إن الأمر قد يصل إلى الطعن **في مبدأ الصلاة** ذاته، **فلماذا الصلاة أصلاً، والله كامل بذاته ولا يحتاج إلينا أو إلى عبادتنا؟**

وفيما يتعلَّق بالطلبات والاحتياجات يأتي التساؤل: **هل الله في حاجة إلى توسُّلنا؟ أَلاَ يعرف ما نحتاج إليه – وهو العارف بكل شيء – لِمَ لا يُعطنا، إذًا، دون سؤال؟**

وهم يَرَوْنَ أن عقدة القضية **أننا مسيَّرون شئنا أم أَبَيْنا**، وحياتنا مرسومة بكل تفاصيلها وأبعادها في القصد الإلهي، ومن الحكمة قبولها كما هي طالما أن طلباتنا لن تغيِّر شيئاً من مشيئة الله، والتوسُّل في هذه الحالة يكون لغواً وتعباً باطلاً وربما يقود إلى اليأس.

وفوق كل هذا، **فإن مصيرنا نفسه هو مقرَّر من قِبَل الله**، والواحد منا قد يُجاهد وقد يتعثَّر وقد يقوم ثم يسقط من جديد، ولكن ما فائدة الجهاد والمقاومة للنهوض إذا كانت النهاية التي تقرَّرت غير ما نشتهي؟ أليس من الأجدى، إذًا، الاستسلام والقبول بما يجري رغم عبثية حياة كهذه؟!

ظاهر الكلام يبدو منطقياً، ولكن باطنه يُجافي الحق ويمتلئ بالخداع. وأفضل ما فيه أنه يستثير عدداً من الأسئلة الهامة عن **جدوى الصلاة وقيمتها، ولماذا يحثُّنا الله على الصلاة كل حين إذا لم تكن لها ضرورة؟ وكيف لا تتعارض معرفة الله الكلِّية مع استجابته لتغيير واقع الإنسان وتحقيق آماله؟ وهل سَبْق معرفة الله بالمصائر يُجرِّد الإنسان من أي دور في تحديد مصيره؟**

وسنجد في كلمة الله ردّاً على هذه التساؤلات وغيرها بما يزيل الحيرة، ويزيح الغشاوة، ويُصحِّح المسار، ويُعيد التائهين الهائمين إلى يقين الإيمان الذي يغلب العالم (١يو ٥: ٤،٥).

أولاً: لماذا يدعونا الله أن نصلي رغم أنه لا يحتاج إلى عبادتنا؟

أن يحدُث أن ملكاً يدعو رعاياه وعبيده أن يتصلوا به في أيِّ وقت دون مانع أو عائق، هو بغير شك كرم وتفضُّل من الملك. وأن يطلب إليهم أن يقرعوا بابه في أية ساعة فيفتح لهم ويدخلوا إليه، وأن يسألوه كلما احتاجوا فيُعطيهم بغنىً؛ فهذا برٌّ وإحسانٌ لا مزيد عليه.

فإن قال عبيده بعد ذلك: ولِمَ لا يُعطنا دون أن نطلب ويعفنا ذُل السؤال؟ فهذا يعني أنهم أدنياء لا يستحقون تنازُل الملك وجُوده، ونسوا مَن هم؟ وأين هم من سيدهم الملك الذي يملك كل شيء، والذي يأمر فيُطاع، والذي يستطيع أن يُغلق بابه عنهم دون أن يلومه أحد؟!

فإذا انتقلنا من المثال إلى الحقيقة، فإن الله عندما أوصانا أن نصلِّي فإن هذا كان في الأساس تعبيراً عن محبته وأُبوَّته للبشر ورعايته الدائمة لهم: **"لذَّاتي مع بني آدم"** (أم ٨: ٣١)، وهو ما كلَّفه حياته لإنقاذهم من موت الخطية والإنعام بالحياة الأبدية لكل مَن يؤمن (يو ٣: ١٦). وهو بالصلاة قد أتاح للإنسان حرية الدخول إليه كابن وليس كعبد، وبالتالي لقاءه والحديث إليه في أي وقت وفي أي مكان وبغير أي ترتيب سوى استقامة القلب والروح أولاً (مز ٧: ١٠؛ ١١: ٢؛ ٥١: ١٠). وفي مجال الصلاة فإن الله الغني يفتح يديه ناثراً عطاياه: **"فيُشبع كل حيٍّ رضىً"** (مز ١٤٥: ١٦) دون أن تنقص خزائن نعمته، والإنسان يأخذ **"كيلاً جيداً مُلبَّداً مهزوزاً فائضاً"** (لو ٦: ٣٨).

فالصلاة ليست، إذاً، عبئاً يسعى أحد للتخلُّص منه، وإنما هي نبع لا ينضب من بركات مجانية فائضة: "**تُعرِّفني سبيل الحياة. أمامك شِبَع سرور. في يمينك نِعَم إلى الأبد**" (مز ١٦: ١١).

نعم، إن الله كامل متكامل مكتفٍ في ذاته، وهو لا يحتاج إلينا ولا إلى عبادتنا ولا إلى الكون كله، ولكنه في محبته وتنازله يبدو وكأنه محتاج إلينا، وفي تدبير خلاصنا نزل هو إلى أرضنا آخذاً جسدنا وصار إنساناً مثلنا (في ٢: ٧،٨)، وهو صنع خلاصاً بصليبه وموته وقيامته، وأراد لنا أن ننالهبملء حريتنا ولم يطلب أكثر من أن نؤمن به، وأن نشترك في العمل معه (١كو ٣: ٩). ومن هنا قال لنا: "**اطلبوا تجدوا**" (مت ٧: ٧؛ لو ١١: ٩)، و"**اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً**" (يو ١٦: ٢٤).

وهذه بعض جوانب أخرى لِمَا نحن بصدده:

(**١**) إن حاجتنا إلى الله، وبالتالي حاجتنا إلى الصلاة، تبدو أمراً محتوماً، وتجعل التساؤل عن لماذا يدعونا الله للصلاة شططاً منبعه الجهل (مز ١٤: ١؛ ٥٣: ١؛ رو ١: ٢٢). فنحن كلنا محاطون بالضعف (عب ٥: ٢) جسدياً وروحياً، ومهما كان علْمنا يظل سقف معرفتنا محدوداً، ثم إن إبليس خصمنا يجول كأسد زائر ملتمساً مَن يبتلعه (١بط ٥: ٨)، وشهوات جسدنا تشدُّنا إلى الوراء وإلى أسفل، ولكي نغلب في صراعنا مع العالم ورئيسه؛ فنحن محتاجون إلى قوة من الأعالي (لو ٢٤: ٤٩)، وإلى سلاح الله الكامل: الحق والبر والإيمان والخلاص وكلمة الله (أف ٦: ١٣-١٧)، وهذه كلها وُهِبَت لنا كنِعَم من الله نستدعيها بالصلاة من أجل النصرة ونجاح مسيرة الحياة.

(**٢**) إن الصلاة - مجرد الصلاة، أي الوقوف قدَّام الله - تغيِّرنا باطراد في مدارج القداسة، فنحن الذين في حاجة إلى الصلاة والعبادة، لكي باتحادنا بالله نصير مثله، أو كما يكتب معلِّمنا القديس يوحنا: "**نحن أولاد الله ولم يُظهر بعد**

ماذا سنكون، ولكن نعلم أنه إذا أُظهِرَ نكون مثله، لأننا سنراه كما هو" (١يو ٣: ٢)، وكما يكتب معلِّمنا القديس بولس: "**ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف** (إذا كنا نعيش التوبة فلا يفصلنا حاجز الخطية) **كما في مرآة نتغيَّر إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد، كما من الرب الروح"** (٢كو ٣: ١٨)، ومعلِّمنا القديس بطرس يشير إلى المواعيد العظمى والثمينة لكي نصير بها "**شركاء الطبيعة الإلهية**" (٢بط ١: ٤).

(**٣**) إن الله بغير شك يعرف كل احتياجاتنا قبل أن نطلبها. وفيما يتعلَّق بالمطالب الجسدية قال لنا الرب: "... **أن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها**" (مت ٦: ٣٢)، وهو يهبها لكل البشر بغير تمُّيز وبغير سؤال: "**فإنه يُشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويُمطر على الأبرار والظالمين**" (مت ٥: ٤٥).

ونضيف هنا أن النجاح المادي في الحياة وبلوغ الغِنَى والشهرة والمراكز والتأثير، هذا كله يناله الذين يبذلون ويجتهدون ويعملون، وجهود العلماء تقود إلى مخترعات تغيِّر وجه الحياة وتدفع إلى التقدُّم، والبحوث الطبية تثمر وسائل للعلاج ومكافحة الأمراض، وبعضٌ مِمَّن يعملون في هذه المجالات ملحدون أو يؤمنون بآلهة أخرى. حتى الأشرار واللصوص لا يعرقل الله خطواتهم (إلاَّ بطلب مَن يلتمسون حمايته)، فهم يستولون على حقوق الغير، ويُكدِّسون الأموال، ويظلمون وينشرون الفساد، وربما يفلتون من ملاحقة القانون وسيف العدالة والخصوم، وقد لا يُصيبهم مرض أو يتعرَّضون للآلام، وقد لا يدفعون الثمن هنا على الأرض وينتظرهم الحساب يوم الدينونة.

(**٤**) إن الله، إذاً، لم يُطالبنا أن نسأل من أجل حاجات الجسد، وإنما وَعَدَ أنها تُزاد لنا (مت ٦: ٣٣؛ لو ١٢: ٣١) إذا جعلنا همنا الأول العطايا الروحية المتعلِّقة بالملكوت سواء للفرد أو للكنيسة والخدمة، وهي ما طالبنا بالصلاة من

أجلها: "**اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره**" (مت ٦: ٣٣؛ لو ١٢: ٣١)، ويتعلَّق بهذا وصيته لنا بالصلاة من أجل النجاة من التجارب التي قد تهدِّد حياتنا الروحية: "**اسهروا وصلُّوا لئلا تدخلوا في تجربة**" (مت ٢٦: ٤١؛ مر ١٤: ٣٨؛ لو ٢٢: ٤٠)، "**لا تُدخلنا في تجربة**" (مت ٦: ١٣؛ لو ١١: ٤). والله لا يُلقي ملكوته وبره رخيصاً دون أن يُظهِرَ الإنسان حاجته إليه، فهو الذي قال لنا: "**لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا دُرركم قدَّام الخنازير**" (مت ٧: ٦). وهذا بالأَوْلَى ينسحب على عطية الله الثمينة هذه.

والرب عندما قال: "**اسألوا تعطوا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يُفتح لكم، لأن كل مَن يسأل يأخذ، ومَن يطلب يجد، ومَن يقرع يُفتح له**" (مت ٧: ٧،٨)؛ فهذا يعني أن العطية جاهزة مُهيَّأة، ولكن لِمَن يسأل ويطلب؛ والباب سوف يُفتح، ولكن لِمَن يقرع. فهو لا يريد أن يُجبرنا على فعل شيء لا نريده. فأنْ أطلب معناه أني أُريد، وتوفُّر الإرادة نابع من الإحساس بقيمة العطية والحاجة إليها، والرغبة التي لا تذبل من أجل نوالها، والإيمان بصاحب العطية وصِدْق وعده. وهي إذ تلتقي مع إرادة الله المكتوب عنه أنه "**يريد أن جميع الناس يخلصون، وإلى معرفة الحق يُقبلون**" (١تي ٢: ٤)، تنال النفس مبتغاها. وقد رأينا في الكتاب أن الذين لم يريدوا لم يخلصوا وتُرك بيتهم لهم خراباً (مت ٢٣: ٣٨؛ لو ١٣: ٣٥).

(**٥**) وفي مَثَل قاضي الظلم يُشير الرب إلى أولئك "**الصارخين إليه نهاراً وليلاً وهو مُتمهِّل عليهم**" (لو ١٨: ٧)، وهو يقصد النفوس الجادة المجاهدة، والمثابرة الصابرة، التي لم يتراجع إيمانها في الله يوماً، وتمهُّل الله عليهم ليس إهمالاً أو إذلالاً، وإنما لامتحان إيمانهم وتزكيته ولتعظيم مكافأتهم، وبالتالي ينصفهم الله ويعتبرهم مختاريه. كما أن معلِّمنا القديس بولس يطلب من تلميذه تيموثاوس ومِن كل مؤمن أن "**اشترك في احتمال المشقات كجندي صالح ليسوع المسيح**...

وإن كان أحد يُجاهد لا يُكلَّل إن لم يُجاهد قانونياً" (٢تي ٢: ٣،٥). والجهاد القانوني يتضمن هذا التذلُّل والتوسُّل الذي سرعان ما يؤتي ثماره باستجابة الله بحسب مشيئته.

ومَن يحصل على الجائزة بعد الجهد سيشعر بقيمتها ويحافظ عليها. أما النفوس الجامدة المتكاسلة والمستهترة التي لم تختبر الجهاد أو تستثقل عبئه – أصحاب الوزنة الواحدة (مت ٢٥: ١٨، ٢٤-٢٨) – فهؤلاء لن ينالوا شيئاً. فهم لا يسلكون كالبنين، وهم متغرِّبون عن الإيمان، ولا يُدركون مقدار العطية، وبالتالي فهم (حتى إذا نالوها افتراضاً) لن يحفلوا بها أو يحرصوا عليها. كما أن مَن ينال بغير تعب سرعان ما يُضيِّع ما ناله لأن ما يؤخذ سهلاً يُفقد سهلاً.

خلاصة القول، إن الله يدعونا أن نصلي ليس من أجله هو، وإنما من أجلنا نحن، وأن ملكوت الله وبره هو لَمن يؤمن ويطلب وليس لَمن لا يريد أو لا يسأل.

ثانياً: هل من جدوى للصلاة طالما أن مشيئة الله مطلقة لا تتغيَّر؟

(١) يتوقف البعض أمام المكتوب عن الله أنه قال: "**إني أرحم مَن أرحم، وأتراءف على مَن أتراءف**" (خر ٣٣: ١٩؛ رو ٩: ١٥)، وأيضاً: "**مَن يُقاوم مشيئته**" (رو ٩: ١٩)؟

والمقصود هنا أن مشيئة الله **في الأساس** نافذة وحريته مطلقة. وهو باعتباره كلِّي القدرة (أي القادر على كل شيء)، وكلِّي المعرفة (أي العارف بكل شيء)، والماضي والمستقبل حاضران دوماً أمامه؛ فلا يقف أمام مشيئته عائق. فهو من حقه أن يرحم مَن يرحم (ولم يَقُل: إني أظلم مَن أظلم). **ومن ناحية المبدأ** أيضاً، مَن هو الإنسان (الذي لم يوجِد نفسه، ولكنه مدين بحياته لخالقه من العدم) حتى يستجوب الله أو يُراجعه؟ فليس له عند الله أيّة حقوق.

ومع كل هذا، فإن مشيئة الله هي تعبير عن عدله الرحيم ورحمته العادلة. **وكماله وقداسته يستبعدان مطلقاً أن يكون "عند الرب إلهنا ظلم"** (٢أي ١٩: ٧) حتى أن القديس بولس يكتب مستنكراً: **"ألعل عند الله ظلماً؟ حاشا"**(رو ٩: ١٤). وكيف لله الذي يقول: **"ارفعوا الظلم عن شعبي"** (حز ٤٥: ٩) أن يظلم أحداً؟ أو أن تتَّسم إرادته بالتعسُّف والمزاجية والعشوائية غير المبررة سوى بحقه المطلق!

بل إن كل ما نلمسه وتكشفه لنا كلمة الله وحياة مخلِّصنا الصالح أن مشيئة الله خيِّرة (وهو الذي أودع الخير وأيَّ صلاح في حياة قديسيه)، وهي التي تُعبِّر عنها محبته وعدله ورحمته وغناه وكمال معرفته وإمهاله وطول أناته واحترامه لحرية الإنسان ومساندته للمجاهدين الأمناء وحنانه على المُجرَّبين المتألمين، إذ هو قد تألَّم مُجرَّباً (عب ٢: ١٨). إن **"الله محبة"** (١يو ٤: ٨،١٦)، ومكتوب عنه: **"الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين، كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء"** (رو ٨: ٣٢). الله لا يصنع إلاَّ خيراً، ولكن كل ما يجري في الكون من شرور لا يصنعها الله، وإن تَمت بسماح منه.

(٢) إنَّ سَبْق علم الله بكل شيء لا يعني أنه يلوي عنق الأحداث قسراً لكي تتفق مع سابق معرفته. الله يعرف مسار الأحداث قبل أن تقع ويعرف ما ستنتهي إليه. ولكن الأحداث ذاتها خاضعة لقوانين وضعها الله بحكمة ودقة تؤول دائماً إلى الخير.

فالطبيعة بأفلاكها ونجومها وكواكبها (وضمنها أرضنا بفصولها وبحارها وأنهارها وجوها) تحكمها قوانين سادت بلايين السنين ولا تزال إلى أن يأمر الله بالنهاية[1].

(١) قد يؤدِّي التدخُّل الإنساني إلى اضطراب الطبيعة (فزيادة نسبة ثاني أكسيد الكربون بسبب النشاط الصناعي مزَّقت طبقة الأوزون الحامية لجو الأرض، مما أدَّى إلى ارتفاع درجة حرارة الأرض Global warming، وما تبعه من ذوبان ثلوج القطبين، وبالتالي ارتفاع سطح البحار بما يُهدِّد باجتياح السواحل والجزر)، والتجارب النووية لها آثارها السلبية على سلامة الأرض. والدراسات

والأحياء، نباتية أو حيوانية، تحكمها صفاتها الوراثية وغرائزها وعلاقاتها البيئية. والإنسان، إضافة إلى الصفات الوراثية والغرائز، مُنح حرية الاختيار ووُهِبَ معرفة الله؛ ونزل ابن الله متجسِّداً لخلاصه، وأنعم على مَن يؤمن به بالحياة الجديدة التي تغلب الشر بعمل الروح القدس، وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية.

وتصرُّفات الإنسان وشروره هو مسئولٌ عنها، ونجاحه أو فشله تحكمه قدراته وجهده، وأمراضه قد تكون وراثية أو وبائية أو قد يتحمَّلها هو بسبب إهماله أو إدمانه. والحروب وويلاتها يُسأل عنها قادة الدول الذين تُحرِّكهم الأطماع والاعتداد بالقوة التي لا تدوم.

وعلاج الأمراض قد يكون بالدواء أو الجراحة أو قد تستعصي على العلاج. ولكن الرب الذي شفى كثيرين أيام تجسُّده (مت ٤: ٢٣،٢٤؛ ٨: ١٦، ٩: ٣٥، ١٢: ١٥، ١٤: ١٤،٣٦؛ ١٥: ٣٠؛ مر ١: ٣٤، ٣: ١٠، ٦: ٥ ؛ لو ٤: ٤، ٧: ٢١، ٩: ١١؛ أع ١٠: ٣٨) لا يزال يقدر أن يشفي الذين يطلبون بإيمان. وهو قد أمر تلاميذه أن يشفوا المرضى (مت ١٠: ٨؛ لو ١٠: ٩). ومعلِّمنا بولس يشير إلى مواهب الشفاء (١كو ١٢: ٩)، والقديس يعقوب يطلب: "**صلُّوا بعضكم لأجل بعض لكي تُشْفَوْا**" (يع ٥: ١٦)، ومعجزات الشفاء تُجرَى كل يوم "**وصلاة الإيمان تشفي المريض**" (يع ٥: ١٥).

(**٣**) ومع هذا، فإن الله يظل قادراً أن يُغيِّر قوانينه الطبيعية ويتجاوزها، وأن يأمر خليقته فتطيعه (مت ٨: ٢٧؛ مر ٤: ٤١؛ لو ٨: ٢٥) لإظهار مجده، أو لمساندة مَن يؤمنون به أو من أجل الخير: "**طلبة البار تقتدر كثيراً في فعلها**" (يع ٥: ١٦). فالله سمح بتوقُّف الشمس في كبد السماء نحو يومٍ كامل (أي أن الأرض توقَّفت عن الدوران) عندما كان يشوع يُحارب ملوك الأموريين "**ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولا بعده**" (يش ١٠: ١٤).

الجينية وبحوث الهندسة الوراثية التي تُبشِّر بخير عظيم، إن لم تكن لها ضوابطها، يمكن أن تؤدِّي إلى كوارث تُهدِّد الحياة كلها.

والله استجاب لإيليا ومنع المطر ثلاث سنين وستة أشهر، ثم سمح به (١مل ١٧: ١، ١٨: ٤٥؛ يع ٥: ١٧،١٨). وجعل النار لا تؤثِّر في الفتية الثلاثة ولا ملابسهم (دا ٣: ٢٧). والله هدى المجوس إلى بيت لحم بواسطة نجم يتحرك قريباً من الأرض لتقديم هداياهم للمولود الفريد (مت ٢: ٢،٩)، والرب انتهر الرياح والأمواج وصار هدوء عظيم (مت ٨: ٢٦؛ مر ٤: ٣٩؛ لو ٨: ٢٤). ووقت الصلب احتجبت الشمس ساعة الظهيرة لثلاث ساعات (لو ٢٣: ٤٤،٤٥). والله استجاب لمؤمنيه وقت امتحانهم وسمح لجبل المقطم أن ينتقل مُنفِّذاً وعده (مت ١٧: ٢٠؛ مر ١١: ٢٣).

(٤) الموت هو نهاية كل حيٍّ، باراً كان أم شريراً، وقد يموت الإنسان بالشيخوخة أو بالمرض أو في حادثة أو بسبب اضطراب الطبيعة أو في الحرب. ومعرفة الله السابقة بكيفية موت أي إنسان لا تعني أنه هو الذي يُدبِّر موته لكي يتفق مع سبق معرفته. ونشير في هذا الصدد إلى الواقعة الشهيرة التي ذكرها سفر الملوك الثاني عن الملك حزقيا الذي لما جاءه مرض الموت، توسَّل إلى الله باكياً، واستجاب له الرب وزاد على أيامه خمس عشرة سنة (٢مل ٢٠: ١-٦). فهذا لا يعني أن الرب قد عدَّل قراره. الله من البداية يعرف أن حزقيا سيتوسل إليه عند موته وأنه سيُضيف إلى أيامه سنيناً، فهو لم يُسجِّل موته ثم مدَّ في عمره خمس عشرة سنة. فمعرفة الله شاملة وليست جزئية وممتدة من الأزل إلى الأبد ولا تتغيَّر بسياق الأحداث ولا يُفاجأ بها كما يحدث مع الإنسان محدود المعرفة.

(٥) علم الله السابق، إذاً، بنهاية الأمور، لا يعني أنه قرر شيئاً، ثم إذ يستجيب للصلاة قد يُغيِّر مشيئته. ولو لم يكن لصلاتنا جدوى عنده، لما أوصانا الرب أن نصلِّي كل حين بمثابرة وبغير ملل (لو ١١: ٨، ١٨: ١) ودون أن نفقد صبرنا (عب ١٠: ٣٥،٣٦)، وأن نصلِّي لكي لا ندخل في تجربة (لو ٢٢: ٤٠)، وأن نسأل ونطلب ونقرع الأبواب (مت ٧: ٧،٨ ؛ لو ١١: ٩، ١٠)، وأن نلتجئ إليه يوم الضيق (مز ٥٠: ١٥).

وهو قد وضع شروطاً لاستجابة الصلاة، فطالبنا بالاستقامة والثبوت فيه، وفي كلامه (يو ١٥: ٧) منددا بطلبة الخاطئ غير التائب: "**ذبيحة الأشرار مكرهة الرب**" (أم ١٥: ٨)، وأوصى بأن تكون طلباتنا **باسم المسيح** (يو ١٤: ١٣،١٤؛ ١٥: ١٦؛ ١٦: ٢٣،٢٦،٢٤) "ليتمجَّد الآب بالابن"، وبحسب مشيئته (مت ٦: ١٠؛ ١٢: ٥٠؛ ٢٦: ٣٩،٤٢؛ لو ١١: ٢؛ ٢٢: ٤٢؛ ١يو ٥: ١٤)، وأن نطلب بإيمان بغير ارتياب (مت ٢١: ٢٢؛ مر ١١: ٢٤؛ يع ١: ٦)، وبالطبع ألاَّ يكون الطلب رديا (أي جسدياً لحساب الذات): "**تطلبون ولستم تأخذون لأنكم تطلبون رديا لكي تنفقوا في لذَّاتكم**" (يع ٤: ٣). فإذا توافرت هذه الشروط، وكانت الطلبات لخيرنا، فالله يستجيب بنَعَم: "**ويكون أني قبلما يدعون أنا أُجيب، وفيما هم يتكلَّمون بعد أنا أسمع**" (إش ٦٥: ٢٤)، ولكنه ربما يتأنَّى علينا (٢بط ٣: ٩) مختبراً إيماننا، وربما يختار للاستجابة وقتها الملائم، أو يرفض الطلب بحسب حكمته: "**ما أبعد أحكامه عن الفحص، وطرقه عن الاستقصاء**" (رو ١١: ٣٣).

(٦) وبالتأكيد، فهناك طلبات مضمونة الاستجابة للمؤمن الثابت في أصل الكرمة، وهي العطايا الروحية المتعلِّقة بملكوت الله وبرِّه (مت ٦: ٣٣): "**ليس بكيل يُعطي الله الروح**" (يو ٣: ٣٤)، "**إن ثبتم فيَّ وثبت كلامي فيكم، تطلبون ما تريدون فيكون لكم**" (يو ١٥: ٧)، "**إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً** (أي نقيم عنده)" (يو ١٤: ٢٣)، "**إن سمع أحد صوتي وفتح الباب، أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي**" (رؤ ٣: ٢٠).

فالساعون إلى حياة البر والقداسة "**يكونون قديسين**" (لا ١١: ٤٤؛ ١بط ١: ١٥)؛ والطالبون المواهب الروحية "**يُعطي الروح القدس للذين يسألونه**" (لو ١١: ١٣) كأن يتسع القلب **بالمحبة** أكثر، أو يُعطي **السلام المفتَقَد** بحسب الوعد: "**سلاماً أترك لكم، سلامي أُعطيكم**" (يو ١٤: ٢٧)، أو **الحكمة**: "**إن كان أحدكم تعوزه حكمة، فليطلب من الله الذي يُعطي الجميع بسخاء ولا يُعيِّر، فسيُعطى له**" (يع ١: ٥)، ينالون ما يسألون دون عائق، ومثلهم الذين

يتوسلون من أجل **التوبة** والتخلُّص من نقاط الضعف والخطايا المحبوبة: "**توبني فأتوب لأنك أنت الرب إلهي**" (إر ٣١: ١٨)، "**وهو لا يشاء أن يهلك أُناس بل أن يُقبل الجميع إلى التوبة**" (٢بط ٣: ٩)؛ أو المساعدة في **حمل الصليب وصلب الجسد**: "**احملوا نيري عليكم**" (مت ١١: ٢٩)، "**يحمل صليبه ويتبعني**" (مت ١٦: ٢٤؛ مر ٨: ٣٤؛ لو ٩: ٢٣)، "**الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات**" (غل ٥: ٢٤)؛ أو **التعزية** وقت الأحزان: "**أنا أنا هو معزيكم**" (إش ٥١: ١٢)، "**كإنسان تعزيه أُمه هكذا أُعزيكم أنا**" (إش ٦٦: ١٣)، "**طوبى للحزانى لأنهم يتعزون**" (مت ٥: ٤)؛ أو المساندة على **احتمال التجارب**، وبعضها عنيف يقصم الحياة وبعضها يمتد ليُرافق الحياة بطولها، ولكن "**طوبى للرجل الذي يحتمل التجربة، لأنه إذا تزكَّى ينال إكليل الحياة الذي وعد به الرب للذين يحبونه**" (يع ١: ١٢).

(**٧**) ومما لا شكَّ فيه، فإن الذين يلتزمون بوصايا الله، فإن الله يلتزم بهم: "**إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي**" (يو ١٥: ١٠). ومن ناحية أخرى، فإنه كلما ازدادت حياتنا التصاقاً بالله، كلما زادت محبتنا له وإيماننا به وثقتنا في كمال رعايته وحُسن تدبيره، ومن ثَمَّ تزداد طاعتنا وتسليمنا بمشيئته بكل رضا وسرور حتى وإن تعارضت مع مشيئتنا: "**لتكن لا إرادتي بل إرادتك**" (لو ٢٢: ٤٢).

فصليب الجلجثة يشهد بدوام محبة الله، والله يكفينا وليس عطاياه؛ وهكذا كتب آساف في مزموره: "**مَن لي في السماء؟ ومعك لا أريد شيئاً في الأرض**" (مز ٧٣: ٢٥،٢٦)، وحتى وسط الآلام تأتينا كلمات القديس بطرس: "**فإذاً، الذين يتألمون بحسب مشيئة الله فليستودعوا أنفسهم كما لخالق أمين في عمل الخير**" (١بط ٤: ١٩). فالمؤمنون يقبلون آلامهم باعتبارها قد حازت موافقة الله لتصير لخيرهم في نهاية المطاف، وكل ما عليهم أن يُسلِّموا أنفسهم وديعة عند خالقهم الذي يبقى أميناً حتى النهاية (٢تي ٢: ١٣).

ثالثاً: ما جدوى الجهاد الروحي والمقاومة وطلب المعونة من أجل بلوغ الخلاص الأخير إذا كان المصير قد تحتَّم مُسْبقاً؟

(١) تصيب الحيرة البعض أمام المكتوب في الرسالة إلى رومية: "**ألعل الجُبلة تقول لجابلها: لماذا صنعتني هكذا** (إش ٢٩: ١٦)؟ (بما يُحدد مصيري بالتالي). **أم ليس للخزَّاف سلطانٌ على الطين أن يصنع من كتلة واحدة إناءً للكرامة وآخر للهوان... لأن الرب يصنع أمراً مقضيّاً به على الأرض**" (رو ٩: ٢٠،٢١،٢٨).

فظاهر النص أن الله يصنع بنا ما يشاء كما يفعل الخزَّاف مع الطين، وماذا يملك الطين؟

ونقول إنه من ناحية المبدأ المجرَّد: فبالفعل، مَن نحن حتى نُجاوِب الله، وأي حقوق لنا عنده؟ وهل للجُبلة أن تُناقش جابلها (خالقها ومُوجدها)، وتُسائله محتجَّة: لماذا صنعتني هكذا؟ وألَيْس للخزَّاف سلطان على الطين فيصنع من كتلة واحدة إناءً ثميناً يصير زينةً للناظرين، وآخر لا منظر له ولا جمال ويصير للهوان؟

ولكن القديس بولس فيما كتبه، يُقدِّم مثلاً افتراضياً عن سلطان الله الذي لا يُنازعه فيه أحد، ومع هذا فالله لا يُمارس معنا سلطانه هكذا على مستوى الواقع. فالله هو لنا الإله الكامل القدوس البار المُحب العادل الرحيم الذي يُقدِّم للإنسان حبه لا سطوته، ورحمته لا سيفه، وخلاصه لا هلاكه، وغِنَى لطفه وإمهاله وطول أناته لا عقابه الصارم السريع: "**لأن ابن الإنسان لم يأتِ ليهلك أنفس الناس بل ليُخلِّص**" (لو ٩: ٥٦)، وهو يظل موقف الله حتى الساعة الأخيرة عندما يأتي المخلِّص ثانية ديَّاناً للأحياء والأموات ليُجازي كل واحد كما يكون عمله (رؤ ٢٢: ١٢). هذا هو يوم الخلاص الأخير

والتمجيد لَمن عاشوا في الإيمان وصبروا إلى المنتهى (مت ١٠: ٢٢؛ ٢٤: ١٣؛ مر ١٣: ١٣)، وهو أيضاً يوم الغضب واستعلان دينونة الله العادلة للأشرار (رو ٢: ٥).

(**٢**) التجسُّد والفداء ومشهد الصليب المنتصب فوق الجلجثة كله يشهد بمحبة الله ورحمته ونعمته. والمسيح إذ قد تألَّم مُجرَّباً "**يقدر أن يُعين المجرَّبين**" (عب ٢: ١٨)، وأن "**يرثي لضعفاتنا**" (عب ٤: ١٥)، وكلمة الله تحثُّنا أن نتقدَّم بثقة إلى عرش النعمة "**لكي ننال رحمة ونجد نعمة عوناً في حينه**" (عب ٤: ١٦).

الرب – أيام جسده – لم يتجاهل أنَّات المُعذَّبين. فالأعمى على الطريق الصارخ طالباً الرحمة انتهره الناس ليسكت، أما الرب "**فوقف وأمر أن يُقدَّم إليه**" وشفاه (لو ١٨: ٣٥-٤٣)؛ ودموع مرثا ومريم وجدت صداها عنده حتى أنه بكى (يو ١١: ٣٥) وتقدَّم من قبر لعازر وأقامه.

ومكتوب عن الله أنه "**رحيمٌ ورؤوف طويل الروح وكثير الرحمة. لا يُحاكِم إلى الأبد، ولا يحقد إلى الدهر. لم يصنع معنا حسب خطايانا، ولم يُجازِنا حسب آثامنا. لأنه مثل ارتفاع السموات فوق الأرض قويت رحمته على خائفيه. كبُعْد المشرق من المغرب أبعد عنا معاصينا. كما يترأَّف الأبُ على البنين، يترأَّف الربُّ على خائفيه. لأنه يعرف جبلتنا، يذكر أننا ترابٌ نحن**» (مز ١٠٣: ٨-١٤).

وهو كأب يُسامح ويرجع عن غضبه ويغفر للتائبين. انظروا كيف كان يتوسل إليه موسى متشفِّعاً بآبائه المحبوبين عنده فيستجيب له: "**ارجِع عن حمو غضبك، واندم على الشر بشعبك. اذكُر إبراهيم وإسحق وإسرائيل عبدك... فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه**" (خر ٣٢: ١٢-١٤)؛ وكيف تحنن على شعب نينوى وقَبِلَ توبتهم وصومهم: "**ندم الله على الشر الذي تكلَّم أن يصنعه بهم، فلم يصنعه**" (يون ٣: ١٠)؛ وكيف كان يُناجيه صاحب المزمور:

"غفرتَ إثم شعبك. سترتَ كل خطيتهم. حجزتَ كل رجزك. رجعتَ عن حمـوِّ غضبك. أرجعنا يا إله خلاصنا، وانف غضبك عنا... أَرِنَا يا رب رحمتك، وأعطنـا خلاصك. إني أسمع ما يتكلَّم به الله الرب، لأنه يتكلَّم بالسلام لشعبه ولأتقيائه، فلا يرجعنَّ إلى الحماقة، لأن خلاصه قريب من خائفيه، ليسكن المجد في أرضنا" (مـز ٨٥: ١-٤، ٧-٩).

(٣) الله يريد لنا الحياة لا الموت. وهو مات وقام لكي يتيح لكل مَن يؤمن أن ينال **"الحياة الأبدية"**، فهو لا يُدبِّر خلاصاً ثم يهدره ويفعل ضده. ومكتوب عنه أنه: **"يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يُقبلون"** (١تي ٢: ٤). وهو الذي قال: **"إذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها وحفظ كل فرائضي وفعل حقاً وعـدلاً، فحياةً يحيا، لا يموت. كل معاصيه التي فعلها لا تُذكر عليه. في برِّه الذي عمل يحيا. هل مسرَّة أُسرُّ بموت الشرير - يقول الرب - إلاَّ برجوعه عن طرقه فيحيـا"** (حز ١٨: ٢١-٢٣)، ويؤكِّد: **"حيٌّ أنا، يقول السيد الرب، لا أُسرُّ بموت الشرير، بل بـأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا. ارجعوا ارجعوا عن طرقكم الرديئة. فلماذا تموتون يا بيت إسرائيل... وإذا قلت للشرير موتاً تموت، فإن رجع عن خطيته وعمل بالعدل والحق. إن ردَّ الشرير الرهن وعوَّض عن المغتصَب وسلك في فرائض الحياة بلا عمـلَ إثم، فإنه حياة يحيا، لا يموت. كل خطيئته التي أخطأ بها لا تُذكَر عليه. عمـل بالعـدل والحق فيحيا حياةً"** (حز ٣٣: ١١، ١٤-١٦)، وأيضاً: **"ارجعوا إليَّ، أرجع إلـيكم"** (ملا ٣: ٧)، **"ارجعوا إليَّ بكل قلوبكم، وبالصوم والبكاء والنوح، ومزِّقوا قلوبكم لا ثيابكم وارجعوا إلى الرب إلهكم، لأنه رؤوف رحيم بطيء الغضب كثير الرأفة وينـدم على الشر، لعلَّه يرجع ويندم فيُبقي وراءه بركةً تقدمةً وسكيباً للرب إلهكم"** (يـؤ ٢: ١٢-١٤).

هنا وعد الله الصريح أن كل مَن يتوب ويرجع عن طريقه الرديئة يقبله كما قَبِلَ الأب ابنه الضال العائد فَرِحاً (لو ١٥: ٣٢)، ولا يعود يـذكر خطايـاه

السالفة: **"لا أعود أسميكم عبيداً"** (يو ١٥: ١٥)، **"هَلُمَّ نتحاجج، يقول الرب، إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيضّ كالثلج. إن كانت حمراء كالدودي تصير كالصوف"** (إش ١: ١٨)، **"قد محوت كغيم ذنوبك، وكسحابة خطاياك"** (إش ٤٤: ٢٢). ويقول الرب في عهده الجديد مع شعبه: **"لأني أصفح عن إثمهم ولا أذكر خطيتهم بعد"** (إر ٣١: ٣٤)، **"لأني أكون صفوحاً عن آثامهم، ولا أذكر خطاياهم وتعدِّياتهم فيما بعد"** (عب ٨: ١٢).

(٤) الله في سعيه لخلاص الكل يُرسل إنذاراته للخطاة اللاَّهين السادرين في غِيِّهم. فيقول **لقايين** الناقم على أخيه: **"عند الباب خطية رابضة، وإليك اشتياقها، وأنت تسود عليها"** (تك ٤: ٦،٧)، ولكن قايين انصاع إلى إرادة الشر رغم التحذير، فكان هلاكه.وحتى **يهوذا**، الذي كانت خيانته ونهايته الأليمة مكشوفة بكاملها لعيني الرب، لم يستبعده الرب من جماعة التلاميذ، و لم تتغيَّر معاملته له؛ بل إنه انحنى وغسل قدميه ليلة آلامه كما فعل مع سائر التلاميذ. ومن هذه الساعة لم يكفَّ الرب عن تحذيره مما هو مُقبلٌ عليه، لأنه – رغم كل شيء، ورغم النبوَّات (مز ٤١: ٩؛ ٦٩: ٢٥؛ ١٠٩: ٨؛ يو ١٣: ١٨؛ أع ١: ٢٠) – لم يكن يريد له الهلاك، ونبَّهه بأكثر من طريقة، وصارحه ببؤس مصيره كي يفلت منه (مت ٢٦: ٢٤؛ مر ١٤: ٢١)؛ بل وعاتبه عندما جاء لتسليمه بكلمات كانت كفيلة بتغيير مصيره لو كان مستعدّاً للتراجع والتوبة (مت ٢٦: ٥٠؛ لو ٢٢: ٤٨)، ولكنه مضى في طريقه التعس إلى النهاية.

(٥) فيما يتعلَّق بالمصير، فالله تمَّم عمله: و**"وجد لنا فداءً أبدياً"** (عب ٩: ١٢). فالإنسان لم يكن ممكناً أن يخلص بإرادته أو جهاده: **"بالنعمة أنتم مُخلَّصون"** (أف ٢: ٥)، ويبقى أننا إما أن نقبل خلاصه أو نرفضه؛ أن نقبل الحياة أو ننحاز إلى الموت.

ويقول الكتاب: **"نطلب عن المسيح تصالحوا مع الله"** (٢كو ٥: ٢٠). فالله

صالحنا في ابنه (٢كو ٥: ١٨،١٩؛ كو ١: ٢٠)، وإذا شئنا الحياة فلنتصالح نحن مع الله. وهذه كلمات الله التي قيلت قبل ٣٥ قرناً، تظل شاهدة على الحرية التي وهبها الله للإنسان كي يختار بين طريقين: الحياة أو الموت:

"انظر قد جعلتُ اليوم قدامك: الحياة والخير، والموت والشر... أُشهد عليكم السماء والأرض. قد جعلتُ قدامك: الحياة والموت، البركة واللعنة. فاختَر الحياة لكي تحيا أنت ونسلك" (تث ٣٠: ١٥،١٩).

والرب بيَّن لنا اتساع الباب ورحابة الطريق المؤدِّي إلى الهلاك، والذي يجذب إليه الكثيرين؛ وضيق الباب وكرب الطريق المؤدِّي إلى الحياة، وأن قليلين هم الذين يجدونه (مت ٧: ٣،٤).

فالذين نالوا الخلاص ويتمسَّكون به، ويُتمِّمونه بخوف ورعدة، ويلتزمون بالحياة الجديدة، ويعيشون التوبة، ملتحفين بالنعمة التي تُقدِّسهم وتساند جهادهم وتقيمهم إن تعثَّروا؛ يستوطنون عند مخلِّصهم في مجيئه الثاني وإلى أبد الدهور. أما المدَّعون والمراءون والرافضون والمستهترون والخائنون الذين يخيبون من نعمة الله (عب ١٢: ١٥)؛ فقد اختاروا هم مصيرهم بإرادتهم، وضيَّعوا حقَّهم في الميراث. وقد كانت لعيسو البكورية بالطبيعة، ولكنه في لحظة ضعف غلبه فيها الجوع، احتقر بكوريته وباعها لأخيه التوأم يعقوب بأكلة عدس (تك ٢٥: ٢٩-٣٤)، **"ولم يجد للتوبة مكاناً مع أنه طلبها بدموع"** (عب ١٢: ١٦،١٧).

والله الذي صنع الخلاص، هو الذي يؤازر بالنعمة الذين يختارون طريق الحياة: **"ملكوت السموات يُغصَب، والغاصبون يختطفونه"** (مت ١١: ١٢)، **"الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية"** (يو ٣: ٣٦؛ ١يو ٥: ١٢)، **"تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تُكمَل"** (٢كو ١٢: ٩)، **"لا تخف لأني معك"** (تك ٢٦: ٢٤؛ إش ٤١: ١٠)، **"لأنني عالمٌ بمَن آمنت، وموقِن أنه قادر أن يحفظ وديعتي إلى ذلك اليوم"** (٢تي ١: ١٢)، **"وإن أخطأ أحدٌ فلنا شفيع عند الآب، يسوع المسيح البار، وهو كفَّارة لخطايانا"** (١يو ٢: ١،٢)، **"ودم يسوع المسيح ابنه يُطهِّرنا من كل**

خطية" (١يو ١: ٧).

وهو رفيق طريقنا (لو ٢٤: ١٥)، الذي يسندنا في الضيقات (إش ٦٣: ٩)، ويُعزينا في التجارب (إش ٥١: ١٢)، ويُقيلنا من عثراتنا (مي ٧: ٨)، ويقودنا في موكب نصرته كل حين (٢كو ٢: ١٤).

(٦) على أنه مهما فعلنا كل برٍّ، حبّاً في مخلِّصنا الذي فدانا، وطاعةً لوصاياه، واستجابةً لعمل روح قدسه؛ فنحن لا نحسب أعمال برِّنا ثمناً لخلاصنا. فخلاصنا الأبدي كفله دم المسيح الذي يُطهِّر إلى التمام، وهو ما فتئ مُعلِّمنا القديس بولس يؤكِّد عليه: **"لا بأعمالٍ في برٍّ عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلَّصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروحِ القدس الذي سكبه بغنىً علينا بيسوع المسيح مخلِّصنا، حتى إذا تبررنا بنعمته نصير ورثة حسب رجاء الحياة الأبدية"** (تي ٣: ٥-٧)، **"الله الذي خلَّصنا ودعانا دعوة مقدسة، لا بمقتضى أعمالنا، بل بمقتضى القصد والنعمة التي أُعطيت لنا في المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزلية، وإنما أُظهِرَت الآن بظهور مخلِّصنا يسوع المسيح الذي أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل"** (٢تي ١: ٩،١٠).

والرب نفسه أوصانا ألاَّ نعتدَّ بأعمالنا قدَّامه كأننا أصحاب فضل، بل كما يؤدِّي العبد واجبه: **"كذلك أنتم أيضاً متى فعلتم كل ما أُمِرتُم به، فقولوا: إننا عبيد بطَّالون، لأننا إنما عملنا ما كان يجب علينا"** (لو ١٧: ١٠).

إن أعمالنا هي شهادة صِدق إيماننا وحيويته، ورائحة حياتنا المقدسة في المسيح، وهي الثمار الطبيعية لِعمل الروح القدس فينا: **"أعمال صالحة قد سبق الله فأعدَّها لكي نسلك فيها"** (أف ٢: ١٠). ولكن أعمالنا (وضمنها احتمال ضيقاتنا وآلامنا - رو ٨: ١٨؛ ٢كو ٤: ١٦-١٨)، من ناحية أخرى، هي التي ستُحدِّد موقع الأبرار في الملكوت بحسب **المجازاة** (مت ١٦: ٢٧؛ رؤ ٢٢: ١٢) **"لأن نجماً يمتاز عن نجم في المجد"** (١كو ١٥: ٤١)، **"حينئذ يُضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم"** (مت ١٣: ٤٣).

بل إن مصائر الأشرار أيضاً ستختلف بحسب أعمالهم، والرب وهو يوبِّخ المدن التي خدم فيها و لم تَتُب، أشار إلى أنه سيكون لصور وصيداء **"حالة أكثر احتمالاً يوم الدين"** مما لكورزين وبيت صيدا؛ وبالمثل فإنه سيكون لأرض سدوم **"حالة أكثر احتمالاً يوم الدين"** مما لكفر ناحوم وسائر الرافضين لدعوة الخلاص (مت ١٠: ١٥؛ ١١: ٢٠-٢٤؛ مر ٦: ١١؛ لو ١٠: ١٣-١٥).

(٧) الله بالطبع يعرف المصير لأنَّ **"كل شيء عريان ومكشوف لعيني ذلك الذي معه أَمْرُنا"** (عب ٤: ١٣)، ولكنه لا يُحدِّد مصائر الناس عشوائياً (باعتبار سلطانه المطلق)، ويكتبها بما يتفق مع علمه المُسْبق بكل شيء. فعلم الله السابق – كما ذكرنا – مستقلٌ عن إرادة الله وحريته. والإنسان هو الذي يختار مصيره.

الله يعرف التفاصيل ومسار الأحداث: مَن يتوبون مختطفين خلاصهم "كما بنار" (١كو ٣: ١٥) في اللحظة الأخيرة- أصحاب الساعة الحادية عشرة (مت ٢٠: ٩)، ويعرف مَن يتعثَّرون في نهاية الحياة بانخداعهم من شهواتهم. ولكنه يُساند مَن يطلبونه، وهو يتمهَّل لكي يقتاد بلطفه الجميع إلى التوبة (رو ٢: ٤). والذي دبَّر خلاصنا، يواصل سعيه لكي نحيا، ويظل على التزامه بحرية إرادتنا التي أنعم بها علينا، وهو مِن ثمَّ لا يقود أحداً قسراً إلى مصيره.

لو كان كل شيء مكتوباً (لا بمعنى أن كل شيء مكشوف قدَّام الله، وإنما بمعنى أنه يُحدِّد المصائر مُسْبقاً)، لكانت الدينونة بلا معنىً، بل تصير تصديقاً على الظلم، لأن الأحكام والمصائر قد تقرَّرت من قبل أن يوجد الإنسان ومن قبل أن يُحاكَم في محاكمة لا داعٍ لها، وتصير إهانةً لكمال الله وقداسته، وإنكاراً لعهد الله مع الإنسان، وإهداراً لكل ما صنعه الله من أجل خلاص الإنسان على مدى القرون، والذي كلَّفه في النهاية دم ابنه، وإلغاءً لإنجيل المسيح، وسقوطاً لأعظم صفات الله وهي محبته التي قيل عنها إنها: **"لا تسقط أبداً"** (١كو ١٣: ٨).

رابعاً: ما جدوى الجهاد والعبادة مع ما يُقال عن المكتوب من تعيين الله السابق واختياره البعض للحياة والبعض للهلاك؟

(١) موضوع "**التعيين السابق**" ليس جديداً، وعلَّم به القديس أُغسطينوس في القرن الخامس، ونادَى به منذ القرن السادس عشر يوحنا كالفن ولوثر ومَن تبعهما.

وأحداث وآيات الكتاب في العهدين التي يشير ظاهرها إلى تعيين الله السابق للمصائر معروفة، ولكن فهمها يكون قاصراً مُضلِّلاً إذا أُخذَت وحدها دون أن تقترن وتُقارَن مع سائر آيات الكتاب ومعاملات الله مع الإنسان وخطته الأزلية للخلاص.

وهناك في **العهد القديم** ما قاله الله لرفقة زوجة إسحق عن ابنيهما يعقوب وعيسو قبل أن يولدا: "**في بطنك أُمَّتان، ومن أحشائك يفترق شعبان، شعب يقوى على شعب، وكبير يُستعبد لصغير**" (تك ٢٥: ٢٣). وإلى هذه الواقعة أشار أيضاً القديس بولس في رسالته إلى رومية: "**رفقة أيضاً، وهي حُبلى من واحد وهو إسحق أبونا، لأنه وهما لم يُولدا بعد، ولا فَعَلا خيراً أو شراً، لكي يثبت قصد الله حسب الاختيار، ليس من الأعمال بل من الله الذي يدعو، قيل لها** (من الله): **إن الكبير يُستعبد للصغير، كما هو مكتوب: أحببت يعقوب وأبغضت عيسو** (مل١: ٢،٣)" (رو ٩: ١٠-١٣).

و"**علم الله السابق**" حسب تعبير القديس بطرس (١بط ١: ٢)، هو الذي يُفسِّر لماذا اختار الله يعقوب (ليكون رئيس الشعب الذي يأتي منه المسيح حسب الجسد)، ورَفَضَ عيسو حتى قبل أن "**يولدا بعد ولا فعلا خيراً أو شراً**"، وحياة كل منهما فيما بعد تشهد أن قضاء الله لم يكن مجرد تعبير عن سلطانه المطلق، وإنما تأسَّس على طاعة يعقوب (الأصغر) واتِّباعه طريق الله، وضلال عيسو (الأكبر) واستهتاره واحتقاره بكوريته ساعة جوعه؛ وهذا كله كان مكشوفاً قدَّام الله مبكِّراً جداً بسبب علمه السابق. وكل من عيسو ويعقوب اختار طريقه بإرادته. وتعبير ملاخي

النبي: "**أحببت.. وأبغضت**" الذي يُعبِّر به بشرياً عن موقف الله من يعقوب وعيسو كان نتيجةً وليس سبباً.

(**٢**) وعلم الله السابق هو أيضاً الذي يُفسِّر ما كتبه القديس بولس: "**ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله الذين هم مدعوُّون حسب قصده، لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعيَّنهم ليكونوا مُشابهين صورة ابنه، ليكون هو بكراً بين إخوة كثيرين. والذين سبق فعيَّنهم فهؤلاء دعاهم أيضاً، والذين دعاهم فهؤلاء برَّرهم أيضاً، والذين برَّرهم فهؤلاء مجَّدهم أيضاً**" (رو ٨: ٢٨-٣٠). فالتعيين السابق، ومِنْ ثَمَّ التبرير والتمجيد، يستند إلى معرفة الله المُسْبقة بهؤلاء، فهو "كلِّي المعرفة"، وبحسب علم الله "**يعلم الله الذين هم له**" (٢تي ٢: ١٩)، فإنه اختار هؤلاء الذين سيستجيبون لعمل نعمته رغم بساطة مواهبهم، وليُظهِر فيهم قوته، ويُكرِّسون حياتهم للكرازة بالخلاص: "**اختار الله جهَّال العالم ليُخزي الحكماء. واختار الله ضعفاء العالم ليُخزي الأقوياء، واختار الله أدنياء العالم والمزدرَى وغير الموجود ليُبطل الموجود، لكي لا يفتخر كل ذي جسدٍ أمامه**" (١كو ١: ٢٧-٢٩). وهكذا **اختار تلاميذه** (لو ٦: ١٣؛ يو ١٥: ١٦)، ومن قبلهم "**اختار داود عبده وأخذه من حظائر الغنم... ليرعى شعبه وإسرائيل ميراثه**" (مز ٧٨: ٦٧،٦٨،٧٠،٧١) الذي وجده حسب قلبه وسيصنع مشيئته (١صم ١٣: ١٤؛ أع ١٣: ٢٢)، وجاء الرب من نسله المبارك.

وبنفس القياس يمكن فهم الآيات التالية عن تعيين الله السابق للمؤمنين قبل تأسيس العالم: "مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح، الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويَّات في المسيح، **كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم** لنكون قدِّيسين وبلا لوم قدَّامه في المحبة. **إذ سبق فعيَّننا للتبنِّي بيسوع المسيح** لنفسه حسب مسرة مشيئته... **الذي فيه** (في المسيح) **أيضاً نلنا نصيباً مُعيَّنين سابقاً** حسب قصد الذي يعمل كل شيء حسب رأي مشيئته" (أف ١: ٣-٥، ١١)، "وأما نحن فينبغي لنا أن

نشكر الله كل حين لأجلكم أيها الإخوة المحبوبون من الرب، **أن الله اختاركم من البدء للخلاص** بتقديس الروح وتصديق الحق" (٢تس ٢: ١٣).

(٣) المؤمنون الذين يُتمِّمون خلاصهم هم مختارون. والمختارون هم المؤمنون الثابتون في المسيح بحسب علم الله السابق. وتعبير "**المختارين**" أو "**المُعيَّنين**" يُطلق دون تمييز على المؤمنين المتمسكين بخلاصهم، كما يقول القديس يوحنا الرائي في سفر الرؤيا: "هؤلاء سيُحاربون الخروف، والخروف يغلبهم، لأنه رب الأرباب وملك الملوك، **والذين معه مدعوُّون ومختارون ومؤمنون**" (رؤ ١٧: ١٤)؛ وكما يسجل سفر الأعمال: "فلما سمع الأمم ذلك كانوا يفرحون ويُمجِّدون كلمة الرب (التي سمعوها من بولس وبرنابا في أنطاكية بيسيدية)، **وآمن جميع الذين كانوا مُعيَّنين للحياة الأبدية**" (أع ١٣: ٤٨)؛ وكما يكتب القديس بطرس في رسالته الأولي: "بطرس... إلى المتغرِّبين... **المختارين بمقتضى علم الله الآب السابق في تقديس الروح للطاعة ورش دم يسوع المسيح**" (١بط ١: ١، ٢).

والرب استخدم تعبير "**المختارين**" كثيراً ليصف المؤمنين به لتمييزهم عن أهل العالم الرافضين، فيقول: "وسيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة، ويعطون آيات وعجائب، **حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً**" (مت ٢٤: ٢٤؛ مر ١٣: ٢٢)، "فيُرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت، **فيجمعون مختاريه** من الأربع الرياح" (مت ٢٤: ٣١؛ مر ١٣: ٢٧). وقال الرب لحنانيا عن شاول: "اذهب لأن هذا (شاول) لي **إناء مختار** ليحمل اسمي إلى أمم وملوك وبني إسرائيل" (أع ٩: ١٥).

والقديس بولس يُخاطب المؤمنين باعتبارهم مختارين من الله للخلاص: "فالبسوا **كمختاري الله** القديسين المحبوبين أحشاء رأفات..." (كو ٣: ١٢)، "مَن سيشتكي على **مختاري الله**" (رو ٨: ٣٣).

والقديس بولس أيضاً في حديثه عن دخول الأمم في الإيمان بينما رفضه الذين هم خاصته (أي شعب إسرائيل)، يستخدم تعبيرَي: **الاختيار، والمختارون:** "فكذلك في الزمان الحاضر أيضاً (مقابل ما جرى أيام إيليا حيث أبقى الله سبعة آلاف ركبة لم تسجد للبعل) قد حصلت بقية (الأمم) حسب **اختيار النعمة**... ما يطلبه إسرائيل ذلك لم ينله ولكن **المختارون** (الأمم) نالوه... من جهة الإنجيل هم (اليهود) أعداء من أجلكم (الأمم)، وأما من جهة **الاختيار** فهم أحباء من أجل الآباء، لأن هبات الله ودعوته هي بلا ندامة" (رو ١١: ٢٩،٢٨،٧،٥)، "لأجل ذلك أنا أصبر على كل شيء لأجل **المختارين** (من الأمم الذين لم يتبعوا الرب بعد) لكي يحصلوا هم أيضاً على الخلاص" (٢تي ٢: ١٠).

والقديس بطرس يُطالب المؤمنين أن يجتهدوا، بمعونة النعمة، ألاَّ يحيدوا عن دعوتهم واختيارهم: "لذلك بالأكثر اجتهدوا، أيها الإخوة، **أن تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتَيْن**، لأنكم إذا فعلتم ذلك لن تزلُّوا أبداً" (٢بط ١: ١٠).

(٤) إن التعليم الخاطئ بالاختيار أو الرفض المُسْبق استناداً إلى سلطان الله المطلق ينفي عن الله عدله، ويُلقي بشُبهة الظلم والمحاباة على الله ودينونته، وحاشا لله أن يكون ظالماً أو مُحابياً يحكم بحسب الهوى كالبشر، وهو المكتوب عنه: "**لأن الرب إلهكم هو إله الآلهة ورب الأرباب، الإله العظيم الجبار المهيب، الذي لا يأخذ بالوجوه، ولا يقبل رشوة**" (تث ١٠: ١٧)، "**وهو يقضي** (يدين) **للمسكونة بالعدل**" (مز ٩: ٨؛ ٩٦: ١٣؛ ٩٨: ٩)، "**كل أعماله حق وطرقه عدل**" (دا ٤: ٣٧)، "...إكليل البر الذي يهبه لي **الرب الديَّان العادل**" (٢تي ٤: ٨)، "**عادلٌ أنت أيها الكائن والذي كان والذي يكون، لأنك حكمتَ هكذا**" (رؤ ١٦: ٥)، "**لأن ليس عند الرب إلهنا ظلم ولا محاباة ولا ارتشاء**" (٢أي ١٩: ٧)،

"**لأن ليس عند الله محاباة**" (رو ٢: ١١؛ أف ٦: ٩)، "**الذي يحكم بغير محاباة حسب عمل كل واحد**" (١بط ١: ١٧).

(**٥**) كل معاملات الله للبشر كما يُسجِّلها الكتاب لا تعرف الانحياز: "**يدين الشعوب بالاستقامة**" (مز ٩: ٨؛ ٩٦: ١٠). فهو قَبِلَ ذبيحة **هابيل** البار لأنها كانت أفضل من ذبيحة قايين (تك ٤: ٤؛ عب ١١: ٤؛ ١يو ٣: ١٢)؛ والله نقل إليه **أخنوخ** لأنه سار معه (تك ٥: ٢٤)، و"شُهِدَ له بأنه قد أرضى الله" (عب ١١: ٥)؛ و**نوح** وجد نعمة في عيني الله لأنه كان رجلاً كاملاً في أجياله (تك ٦: ٨،٩)، و"صار وارثاً للبر الذي حسب الإيمان" (عب ١١: ٧)، إذ صدَّق أمر الله وصنع الفُلك، فنجا ومَن معه من الطوفان؛ والله لم يَنْحَز **لإبراهيم والآباء** وأعطاهم الوعد أن يرثوا الخلاص، إلاَّ لأنهم آمنوا به وانحازوا إليه: "**فآمن** (إبراهيم) **بالرب فحسبه له برّاً**" (تك ١٥: ٦؛ رو ٤: ٣؛ غل ٣: ٦؛ يع ٢: ٢٣)، وهو زكَّى إيمانهم بالتجارب فاجتازوها؛ ومع هذا فإنَّ **إسرائيل** لما أخطأ لم يَعْفِه الرب من العقاب: فعبدة العجل الذهبي حُكِمَ عليهم بالموت (خر ٣٢: ٢٨؛ ١كو ١٠: ٧)، والمتذمِّرون أهلكتهم الحيَّات (عد ٢١: ٦؛ ١كو ١٠: ٩،١٠)، والذين زنوا ماتوا (عد ٢٥؛ ١كو ١٠: ٨)، ولما تخلَّى الشعب عن الله تخلَّى عنهم، وذاقوا مذلة السبي في أرضٍ غريبة ثم مهانة الاحتلال الأجنبي. ولما رفضوا المسيح رفضهم ولم يَبْقَ في هيكلهم حجر على حجر، وقَبِلَ الأُمم الذين آمنوا به كما قَبِلَ في القديم **راحاب** الزانية (عب ١١: ٣١؛ يع ٢: ٢٥)، و**راعوث** الموآبية (را ١: ١٦؛ مت ١: ٥)، وإنْ وعد أنَّ "البقية ستخلُص" (رو ٩: ٢٧) في آخر الأيام.

(**٦**) إن التعليم بالاختيار ينفي عمومية موت المسيح من أجل الجميع (٢كو ٥: ١٥) وأنه من أجل جماعة اختارها مُسبقاً، وبالتالي ينفي عمومية دعوة الخلاص للكل (١تي ٢: ٤)؛ بل هو إهدار لدم المسيح الذي يقدر أن يُطهِّر العالم كله:

"هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، **لكي لا يهلك كل مَن يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية**" (يو ٣: ١٦)؛

"**كل مَن يدعو باسم الرب يخلُص**" (أع ٢: ٢١)؛

"ودم يسوع المسيح ابنه يُطهِّرنا من كل خطية... وإن أخطأ أحدٌ فلنا شفيع عند الآب، يسوع المسيح البار، **وهو كفَّارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط، بل لخطايا كل العالم أيضاً**" (١يو ٢: ١، ٢)؛ "**الداعي الكل إلى الخلاص** لأجل الموعد بالخيرات المنتظرة" (تحليل صلوات الأجبية).

(**٧**) إن التعليم بالاختيار المُسْبق ينفي عن الله أنه خلق الإنسان حُرّاً[٢]. ولو لم يكن الإنسان حُرّاً مُريداً لكانت محاسبته تعسُّفاً. فالدينونة قائمة على أساس حرية الإنسان في تبعية الله أو رفضه، ولا معنى — إذاً – لعبادة أو إيمان؛ وهو يُفقد المؤمن رجاء الحياة الأبدية ويطرح من قلبه أي يقين من جهة الخلاص، ويجعل جهاده في السير وراء المخلِّص عبثاً ووهماً كمَن يُضارِب الهواء أو يهيم على وجهه. فأيُّ جدوى في السعي إلى مصير مجهول.

والآيات كثيرة، تلك التي تشير إلى حقِّ الإنسان في قبول الدعوة أو رفضها: "**قد جعلتُ اليوم قدَّامك الحياة والموت، البركة واللعنة. فاختَر الحياة لكي تحيا أنت ونسلك**" (تث ٣٠: ١٩)؛

"**وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه**" (يو ١: ١٢)؛

---

(٢) حتى وإن كانت حريته هذه غير مطلقة (فهي محكومة بالمكان والزمان والهوية والقانون والمجتمع وغيرها من الظروف) ولكنها تتيح له حق الاختيار بين بدائل كثيرة وأهمها الاختيار بين الحياة والموت (تث ٣٠:١٩). والله لا يتدخل بصورة مباشرة في النشاط الإنساني العقلي والعلمي لتطوير الحياة والاختراع وابتكار العلاج والدواء والتنقيب عن أسرار الطبيعة وتسخيرها لرفاهية البشر، والسعي للوصول للكواكب والتنقل بينها والتنبؤ عما يهدد الحياة من كوارث الطبيعة قبل حدوثها. فهذه كلها قدرات أودعها الله في الإنسان ليعمل ويحفظ الأرض التي يعيش عليها (تك ٢:١٥)، وإن لم يتعارض ذلك كله بالطبع مع كون الله المهيمن ضابط الكل.

"**إن أراد أحدٌ أن يأتي ورائي، فليُنكر نفسه ويحمل صليبه (كل يوم) ويتبعني**" (مت ١٦: ٢٤؛ مر ٨: ٣٤؛ لو ٩: ٢٣)؛

"**إن أردتَ أن تكون كاملاً... وتعالَ اتبعني**" (مت ١٩: ٢١)

ومَثَل **الابن الضال** يُشير إلى حرية الإنسان في التخلِّي عن الله أو عودته إليه، واستعداد الله لقبول الخاطئ التائب (لو ١٥: ١١-٣٢). كما أن مَثَل **الزارع** يُبيِّن أن البذار (أي كلمة الله ودعوته) تُلقَى على كل أنواع التربة (أي النفوس)، والأرض الجيدة (أي النفوس المستعدة المستجيبة) هي التي تُعطي ثمراً.

ومع هذا فهذه الإرادة الحُرَّة يمكن أن تتقدَّس وأن تتجه دوماً لِمَا فيه خلاص المؤمن إذا سلَّم حياته لآله كل برٍّ لتسود إرادته هو:

"تمِّموا خلاصكم بخوف ورعدة، **لأن الله هو العامل فيكم أن تُريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة**" (في ٢: ١٢،١٣)؛

"**مَن يصنع مشيئة أبي الذي في السموات** هو أخي وأختي وأُمي" (مت ١٢: ٥٠)؛

"**لتكن لا إرادتي بل إرادتك**" (لو ٢٢: ٤٢)

والمؤمن عندما يتحيَّر أحياناً أمام البدائل ولا يعرف ماذا يختار في بعض مواقف الحياة، فإنه يُحوِّل وجهه نحو الله، طالباً أن يُعينه بالاختيار الصائب كما فعل التلاميذ عند اختيار تلميذ بديلاً عن يهوذا الذي سقط: "وصلُّوا قائلين ... **عيِّن أنت من هذين أيّاً اخترته**، ليأخذ قرعة هذه الخدمة... ثم ألقوا قرعتهم على متياس، فحُسِبَ مع الأحد عشر" (أع ١: ٢٤-٢٦).

الصلاة والعبادة والتسبيح هي هبة الله العظمى التي أنعم بها علينا كأولاد الله (يو ١: ١٢؛ ١يو ٣: ١)، يلتقون بأبيهم الذي في السموات مُتشفِّعين بابنه

يسوع المسيح البار الذي صولحنا فيه. والله وإن كان لا يحتاجنا، ولكنه أحبنا وخلَّصنا من الموت، وجعل لنا الحياة الأبدية ميراثاً. ونحن بدونه، في حياتنا على الأرض، لا نقدر أن نفعل شيئاً (يو ١٥: ٥). وعندنا وعده أننا "**مهما سألنا ننال منه، لأننا نحفظ وصاياه، ونعمل الأعمال المرضية أمامه**" (١يو ٣: ٢٢).

ونحن في جهادنا وتوبتنا نلتمس نعمته ونصرته كقادر على كل شيء. وكسابق لنا في طريق الآلام، يستطيع أن يُعيننا في تجاربنا وأن يرثي لضعفاتنا. وعلمه السابق بما يأتي علينا، لا يعني أنه يُجرِّبنا بالآلام، وإن سمح بها، ولا ينفي أنه يستجيب لنا بحسب مشيئته إنْ جعلنا غايتنا ملكوت الله وبره، واثقين أن مَن مات لأجلنا هو رجاؤنا الذي لا يشاء إلاَّ قداستنا وحياتنا.

الله اختارنا في المسيح يسوع قبل أن نوجد، ونحن كمؤمنين "**مدعوُّون ومختارون**" و"**معيَّنون للحياة الأبدية**". وفي اليوم الأخير سيأتي الرب ليجمعنا مع مختاريه من أقصاء الأرض إلى أقصائها.

ويبقى أن نتبع كلمات القديس بطرس التي تُطالبنا أن نجعل دعوتنا واختيارنا ثابتَيْن (٢بط ١: ١٠)، أي أن نتيقَّن من مصيرنا الأبدي واثقين من وعد الرب أن خرافه "**لن تهلك إلى الأبد**"، ولا يخطفها أحد من يده أو من يد أبيه (يو ١٠: ٢٨،٢٩)، ومُمسكين بالحياة الأبدية التي إليها دُعينا (١تي ٦: ١٢)، ساهرين صاحين (١تس ٥: ٦)، مُتمِّمين خلاصنا بخوف ورعدة (في ٢: ١٢)، ملتحفين "**بنعمة الله المُخلِّصة لجميع الناس**" (تي ٢: ١١) لتحفظ وديعتنا إلى اليوم الأخير (٢تي ١: ١٢).

العبادة والتسبيح

العبادة Worship بمعناها الواسع، هي كل تعبير عن الإيمان بدين ما، سواء ما كان كامناً في القلب أو تُرجم إلى ممارسات مثل الصلاة واللهج والتأمل (فكراً أو نطقاً)، وما يتصل بها من أنشطة ظاهرة كالسجود وحركات الجسد الأخرى، والترتيل والترنم والإنشاد الفردي أو الجماعي، والتسبيح والتمجيد، وما يصاحبه من موسيقى وألحان صوتية أو آلية.

كما تشمل العبادة أيضاً الصوم وألوان النسك وضبط الشهوات، والجهاد في تنفيذ الوصايا والخروج من الذات إلى الآخرين وخدمتهم، وكل ما يتصل بهذه الأمور.

و **التسبيح** Praise هو أحد أنشطة الصلاة الفردية أو الجماعية، وفيه تتجه الروح والمشاعر بصورة مكثفة نحو الله معبرة عن حبها وشكرها وتمجيدها

لشخصه، والتأمل في عظم حبه وفدائه وهباته ودوام صلاحه ورحمته ورعايته وكمال أعماله وبهاء خليقته.

وفي هذا فإن المؤمنين يتشبهون بالملائكة وسكان السماء فيشاركونهم تسبيحهم وترنيمهم حول العرش الإلهي (رؤ ٥:٩، ١٤:٤، ١٥:٣). وهو ما يعبّر عنه القداس الغريغوري بالقول " **الذي ثبّت قيام صفوف غير المتجسّدين في البشر. الذي أعطى الذين هم على الأرض تسبيح السيرافيم. اقبل منا نحن أيضاً أصواتنا مع غير المرئيين. احسبنا مع القوات السمائية**".

ومن الطبيعي أن يقترن التسبيح بالترتيل (أو الترنيم)، والهذيذ والغناء والعزف الموسيقي [كما تجسّده بصورة مُثلي مزامير داود النبي التي هي عماد التسبيح في الكنيسة منذ أيامها الأولى].

أولاً : التسبيح والموسيقى

الموسيقى قديمة قدم الإنسان، واستخدمت في شتى المناسبات تعبيراً عن المشاعر في الفرح والغناء، في الحزن والنواح (أي ٣٠:٣١)، في تهدئة التوتر النفسي (١صم١٦:١٤)، في الحماسة والدعوة إلى الحرب، في النداء والإعلام، في التوجيه وحشد الجهود، وبالطبع في العبادة في كل المجتمعات الوثنية والمؤمنة، قديماً وحديثاً، وهي بالفعل لغة كل البشر التي تخاطب الجميع.

(أ) في فجر البشرية

تسجل الصفحات الأولى من سفر التكوين أن "لامَك" الذي من نسل قايين أنجب ثلاثة أبناء: "يابال" الذي كان أباً لساكني الخيام ورعاة المواشي، واثنين برعا في الموسيقى: "**يوبال**" الذي كان أباً لكل ضارب بالعود والمزمار (الآلات الوترية) "**وتوبال قايين**" الضارب كل آلة من نحاس وحديد (الآلات النحاسية

والمعدنية كالأبواق والصنوج وما يشبهها) (تك ٤: ٢٠-٢٢). ونضيف إلى ذلك أيضاً آلات الإيقاع قديمة العهد كالدفوف والطبول وآلات الموسيقى الأخرى التي أبدعها المصريون القدماء كالقيثارة والهارب وغيرهما.

(ب) في إسرائيل وأيام داود النبي وما بعده

+ يشير الكتاب إلى استخدام كثير من **الآلات الموسيقية** سواء في أيام بني إسرائيل (وأكثرها أخذوه عن المصريين فترة تغّربهم) أو أيام داود المرتل العظيم بعد أن استقرت الخيمة في أورشليم وصار للتسبيح نصوصه وطقوسه. فهناك ذِكرٌ:

للدفوف : خر١٥: ٢٠، ١صم١٨: ٦، ٢صم٦: ٥، ١أي١٣: ٨، أي٢١: ١٢، مز١٥٠: ٣، إش٥: ١٢؛

والقرن والأبواق (الصور والأصوار): خر ١٦: ١٣، يش٦، ١أى١٣: ٨، ١٥: ٢٨، ١٦: ٤٢، ٢أى٥: ١٢، ١٣، ٧: ٦، ٢٩: ٢٦، ٢٧، مز ٨١: ٣، ١٥٠: ٣، دا ٣: ٥، ٧ ؛

والرباب والعيدان (أو الأعواد): ٢صم٦: ٥ ، ١ أى١٣: ٨، ١٥: ٢٦، ٢٨، ٢٩: ٢٥، ٢أى٥: ١٢، أى٢١: ١٢، ٣٠: ٣٣، مز٣٣: ٢، ٧١: ٢٢، ٨١: ٢، ٩٢: ٣، ١٠٨: ٢، ١٤٤: ٩، ١٥٠: ٣، إش٥: ١٢، ١١: ١٤، دا ٣: ٥، ٧، عا٦: ٥،

والصنوج : ١أى١٣: ٨، ١٥: ١٦، ٢٨، ١٦: ٤٢، ٢أى٢٦: ٢٥، أى٥: ١٢، ١٣، مز١٥٠: ٥ ؛

والمزمار: أى٢١: ١٢، مز١٥٠: ٤، دا٣: ٥ ؛

والجلاجل: خر٢٨: ٣٣، ٣٤، ٣٩: ٢٥، ٢٦، زك١٤: ٢٠ ؛

والناى: إر٤٨: ٣٦، دا٣: ٥، ٧ ؛

والمثلثات: ١صم١٨: ٦

+ أما عن **التسبيح** ذاته فيسجل سفر الخروج تسبحة **موسى وشعب إسرائيل** بعد عبورهم البحر الأحمر بذراع الرب الرفيعة " **أرنم (رنموا) للرب** فإنه قد تعظم. الفرس وراكبه طرحهما فى البحر. **الرب قوتى ونشيدى وقد صار خلاصى. هذا آلهى فأمجده. إله أبى فأرفّعه**" (خر١٥: ١، ٢).

+ كما يذكر سفر أخبار الأيام أن **داود النبى والملك** عيّن أربعة آلاف من اللاويين يعزفون على الآلات الموسيقية المختلفة ويترنمون لتسبيح الرب (١أى٢٣: ٥).

"واللاويون المغنون أجمعون آساف (وأخوه) هيمان ويدثون وبنوهم وإخوتهم، لابسين كتاناً، بالصنوج والرباب والعيدان واقفين شرقى المذبح، ومعهم من الكهنة مئة وعشرون ينفخون فى الأبواق. وكان لما صوَّت المبوّقون والمغنون **كواحد، صوتاً واحداً**، لتسبيح الرب وحمده ورفعوا أصواتاً بالأبواق والصنوج وآلات الغناء والتسبيح للرب " **لأنه صالح وأن إلى الأبد رحمته**" أن البيت، بيت الرب، امتلأ سحاباً لأن مجد الرب ملأ بيت الله" (٢أى٥: ١٢-١٤).

" وهؤلاء هم الذين أقامهم داود على يد الغناء فى بيت الرب بعد ما استقر التابوت وكانوا يخدمون أمام مسكن خيمة الاجتماع بالغناء إلى أن بنى سليمان بيت الرب فى أورشليم" (١أى٦: ٣١، ٣٢).

+ وتحفل **مزامير داود** بالذات بالحث على التسبيح والهتاف لمجد الرب، بل هو ينادى الطبيعة أن تترنم لخالقها:

" **سبحوا** الرب يا كل الأمم حمّدوه يا كل الشعوب" (١١٧: ١)؛

" **سبحوا** يا عبيد الرب سبحوا اسم الرب" (١١٣: ١)؛

" **سبحوا** الله فى قدسه. كل نسمة فلتسبح الرب" (١٥٠: ١، ٥)؛

" هلم **نرنم** للرب. نهتف لصخرة خلاصنا" (٩٥: ١)؛

" **رنموا** للرب يا أتقياءه" (٣٠: ٤)؛
" **رنموا (غنوا)** للرب ترنيمة جديدة" (٩٦: ١، ٩٨: ١، ١٤٩: ١)؛
" فيا خائفى الرب **سبحوه**" (٢٢: ٢٣)؛
" لك ينبغى **التسبيح** يا الله" (٦٥: ١)؛
" بمراحم الرب **أغنى** إلى الدهر" (٨٩: ١)؛
" سبع مرات فى النهار **سبحتك** على أحكام عدلك" (١١٩: ١٦٤)؛
" **سبحى (باركى)** يا نفسى الرب" (١٠٣: ١، ١٤٦: ١)؛
" كل الأرض تسجد لك **وترنم** لك. **ترنم** لاسمك" (٦٦: ٤)؛
" الأنهار لتصفق بالأيادى. الجبال **لترنم** معاً أمام الرب" (مز٩٨: ٨)

+ وإشعياء على نفس المثال يكتب:

" **ترنمى** أيتها السموات لأن الرب قد فعل. **أشيدى** أيتها الجبال ترنماً" (إش٤٤: ٢٣)

(ج) فى العهد الجديد

+ عن **آلات الموسيقى** المستخدمة فى حياة الناس يذكر الكتاب (مت٦: ٢) أن الرب نهى من يصنع صدقة أن يصوت قدامه **بالبوق**، الذى كان يستخدم فى الإعلان عن الأحداث.

وفى مَثَل الابن الضال أشار الرب إلى الابتهاج الذى ساد بعودته وكيف سمع الابن الأكبر عند اقترابه من البيت " **صوت آلات طرب ورقصاً**" (لو١٥: ٢٥).

كما يسجل الكتاب وجود **المزمّرين** للنواح عند موت ابنة يايرس (مت٩: ٢٣).

ويذكر سفر الرؤيا أن الملائكة الواقفين أمام الله كانوا " **يبوّقون فى الأبواق**" (رؤ٨: ٢، ٧، ٨: ١٠، ١٢، ٩: ١، ١٣، ١٠: ٧، ١١: ١٥) وأن الغالبين كان "معهم **قيثارات** الله وهم يرتلون ترنيمة موسى عبد الله وترنيمة الخروف.." (رؤ١٥: ٢، ٣).

+ أما عن **التسبيح** فى حياة الرب والتلاميذ والكنيسة الأولى فشواهده كثيرة:

– فيذكر **إنجيلان** أن الرب وتلاميذه بعد العشاء الأخير " **سبحوا** وخرجوا إلى جبل الزيتون" (مت٢٦: ٣٠، مر١٤: ٢٦) فليست هناك مفارقة بين تسبيح الرب وتطلعه نحو الآب بينما هو مقبل على الساعات الأليمة التالية، **فالنفوس التقية الأمينة لا تكفّ عن التسبيح سواء فى وقت الفرح أو فى وقت التجارب. بل أن التسبيح وقت التجارب هو الرد المباشر الذى يحبط سعى إبليس لزعزعة الإيمان فى الله.**

– و**رسائل الرسل** تتنادى بالتسبيح والترتيل والترنم سواء فى القلب أو بالغناء تعبيراً عن الامتلاء بالروح:

" بل امتلئوا بالروح، **مكلّمين** بعضكم بعضاً **بمزامير وتسابيح وأغانى روحية مترنمين ومرتلين** فى قلوبكم للرب" (أف٥: ١٧، ١٨)؛

" وأنتم بكل حكمة **معلمون** ومنذرون بعضكم بعضاً **بمزامير وتسابيح وأغانى روحية** بنعمة **مترنمين** فى قلوبكم للرب" (كو٣: ١٦)؛

" أصلى بالروح وأصلى بالذهن أيضاً. **أرتل** بالروح **وأرتل** بالذهن أيضاً" (١كو١٤: ١٥)؛

" فلنقدم به (أى بالمسيح)، فى كل حين لله **ذبيحة التسبيح** أى ثمر شفاه معترفة باسمه" (عب١٣: ١٥) ؛

" أمسرور أحد **فليرتل**" (يع٥: ١٣)

– وأن الترنم والترتيل هو عمل السمائيين الذين رآهم **القديس يوحنا فى رؤياه " يترنمون ترنيمة جديدة أمام العرش**" (رؤ٥: ٩، ١٤: ٤، ١٥: ٣).

ثانياً : التسبيح والألحان القبطية

يميز التسبيح فى كل كنيسة (بحسب موقعها وتقاليدها وعقيدتها) موسيقاها المرافقة لصلواتها. وبالنسبة لكنيستنا القبطية يقترن التسبيح بالألحان، وهذه وإن كانت تخضع لقواعد الموسيقى المعروفة إلا أنها تختلف فى أنها موسيقى روحية لا تهدف إلى امتاع الآذان والنفوس، وإنما هى إطار جمالى ابتهالى يتيح التأمل فى الكلمات والغوص فيها أثناء الصلاة. فهى وسيلة لإلهاب المشاعر وتعزية النفس الإنسانية الروحية وليست غاية فى حد ذاتها.[١]

(أ) أصول الألحان القبطية

تشير شواهد التاريخ وأقوى الاحتمالات ترجيحاً إلى أن جذور الألحان القبطية نمت فى تربة التاريخ الفرعونى والعبادة المصرية القديمة، وهى بالتالى تعتبر أقدم موسيقى شرقية. فاتصال المصريين بالإله الواحد والابتهال له معروف وتسجله آثارهم وبردياتهم، وإدراكهم للحياة الآتية وتوقهم لها هو جزء من الحضارة المصرية. ولما هبت نسائم الحياة المسيحية على بلادنا دخلت كلمات

(١) كتب القديس أغسطينوس – فى اعترافاته – أنه كان ينتشى عند سماع الألحان الكنسية إذا أُحسن ترتيلها، وكان يرى أن اتقان اللحن يحرك فى قلبه روح الخشوع والتقوى والمحبة، ولكنه مع ذلك يحذر من الانسياق وراء لذة السمع عن التأمل فى الكلمات ومعانيها الروحية، وأنه شخصياً أخذ يتحفظ ويحترز من التركيز على اللحن ممتدحاً نظام القديس أثناسيوس البطريرك السكندرى العشرين الذى أمر بتخفيف ألحان كنيسته حتى لا يطغى اللحن عن الكلمات.

[٢] وتسابيح العبادة الجديدة الحقيقية لتحل محل الصلوات القديمة ولكن بقى الإطار الموسيقى القديم. وربما استُخدمت مقطوعات أو جمل موسيقية بعينها كما هى فى العبادة القديمة، أو استحدث العابدون الموهوبون ألحاناً جديدة وإن كانت بالطبع تتسم بالنهج الموسيقى الذى أبدعه المصريون، والذى هو موضع إعجاب أساطين الموسيقى فى الشرق والغرب.

كما لا نغفل أيضاً انتقال بعض الألحان الشرقية الأخرى إلى الموسيقى القبطية خاصة من التراث الكنسى اليونانى (الرومى) [٣] أو الشامى [٤].

(ب) الألحان القبطية اليوم

الألحان الكنسية قسمان: ألحان **فردية** وهي ما يتلوه الكاهن والشماس خادم الهيكل من صلوات القداس والأسرار الأخرى، و**جماعية** وهي ما يردده الشعب من الألحان في صلوات الليترجية والتسبحة والتي تتنوع حسب المناسبة

(٢) إن الكلمات المصاحبة للحن هى تعبير مكثف عن الإيمان واللاهوت والعقيدة، وهكذا يتعلم الصغار والكبار من خلال الترتيل والأنغام. فعقيدة التثليث قائمة فى لحن "تين أو أوشت" [نسجد لوالد النور وابنه وحيد الجنس والروح القدس البارقليط الثالوث المساوى]، والإيمان بميلاد المسيح من العذراء وشفاعتها الدائمة يتضمنه على سبيل المثال ألحان: بشفاعة والدة الإله، طاى شورى، تى شورى، شيرى ماريا، شيرينى ماريا، إفرحى يا مريم، إضافة إلى ثيئوطوكيات التسبحة. والإيمان بموت المسيح وقيامته وصعوده نتغنى به فى لحن: آمين... بموتك يارب نبشر وبقيامتك المقدسة وصعودك إلى السموات نعترف. وألحان البصخة حافلة بجوانب عقيدة الفداء وعمل الصليب؛ وألحان القيامة تتغنى بهذه العقيدة..وهكذا وهكذا.

(٣) مثل لحن آجيوس، أو أومونوجينيس (أى يا وحيد الجنس) الذى يُترنَّم به فى الساعة السادسة يوم الجمعة العظيمة، وألحان القيامة: اخرستوس آنستى (ويقابله اللحن القبطى بى اخرستوس أفتونف) وتون سينا، ولحن التسبحة تينين (أول ربعين).

(٤) مثل لحن المزمور الشامى بيك انرونوس افنوتى (كرسيك يا الله إلى دهر الدهور) الساعة الحادية عشرة يوم الثلاثاء والثانية عشرة يوم الجمعة العظيمة من البصخة المقدسة.

(صوم – سنوي – كيهكي – أحد – أيام أخرى – بصخة – أعياد ، وغيرها).

وهنا نشير بالاحترام والتقدير إلى الجهد العلمي المتميز الذي بذله **الدكتور راغب مفتاح** (١٨٩٨-٢٠٠١)، مؤسس ورئيس قسم الألحان الراحل بمعهد الدراسات القبطية، مكرِّساً حياته وماله على مدى ثلاثة أرباع القرن لتحقيق مشروع التسجيل الموسيقي للألحان القبطية الذي قام به **د. إرنست نيولاند سميث**، الأستاذ بالأكاديمية الموسيقية في جامعة لندن، على مدى ثمانِ سنوات (حتى ١٩٣٦)، حيث سجّل **للمعلم ميخائيل جرجس البتانوني** – كبير مرتلي الكاتدرائية المرقسية – و**المعلم توفيق يوسف بشاى** – مرتل الدير المحرق–، وجُمعت الألحان في ١٦ مجلداً أصدرتها الجامعة الأمريكية بالقاهرة فيما بعد في ثلاثة أجزاء ضخمة.

وفي مرحلة تالية (بدءاً من عام ١٩٦٠) تعاون **الدكتور راغب مفتاح** مع العالمة المجرية **مارجريت توت** (تلميذة العالم المجري **بارتوك** الذي قام ببعض الدراسات على الموسيقى القبطية أوائل الثلاثينات) في مشروع التدوين الموسيقي لألحان القداس الباسيلي التي سجلها **القمص مرقس جرجس** (كاهن مطاي المتنيح) وظهرت نتائجه في نهاية ١٩٩٨ (بإسهام الجامعة الأمريكية بالقاهرة أيضاً). وواصل العمل في القداس الغريغوري الذي لم ير النور بعد.

ورغم تحفّظ بعض دارسي الموسيقى القبطية [٥] على مدى الدقة والإتقان لعمل **د. سميث** البريطاني و**د. توت** المجرية لاختلاف ثقافتهما وعدم تشبعهما باللحن القبطي، فإن ما انتهيا إليه والجهد الذي بذلاه، والسنين التي كرسها الراحل **د. راغب مفتاح** بجهد فردي دون مساندة من أية جهة، سيظل دوماً

(٥) "الألحان القبطية" للشماس جورج كيرلس (٢٠٠٢) .

موضع التقدير، كما ستظل تسجيلاتهم للموسيقى القبطية تراثاً غالياً حافظاً لها، بعد أن عشنا قروناً على النقل الشفاهي من معلم لمتدرِّب مع ما في هذا من مخاطر التغيير من جيل إلى جيل مهما كان الحرص، وسيظل الباب مفتوحاً لعلماء الموسيقى الكنسية الأقباط كي يراجعوا ويدققوا ويجتهدوا في تقديم تسجيلات أكثر إتقاناً من الناحية الأكاديمية، وتحفظ ليس فقط اللحن بكل التدقيق وإنما أيضاً روح الآباء الذين وضعوا الألحان.

ولعلنا نلاحظ أن الألحان الجماعية [٦] بقيت على أصالتها ودقتها والاهتمام بها، وكان في تلاوتها جماعياً ما حفظها من التحريف، فالكل يتدرب معاً ويرتل معاً ويسلّم إلى الجيل التالي وهكذا.

وعلى العكس من ذلك كانت ألحان الكاهن والشماس **الفردية**، فهي رغم أصالتها وتوثيقها إلا أنها تفتقد بمرور الأجيال الكاهن (والشماس) الموهوب[٧] الذي يبذل الجهد في حفظ القداس ملحَّناً حسب القواعد، والذي تؤهله قدراته الصوتية والموسيقية لإتقان الألحان ومن ثم تلاوتها في صورتها الجميلة بما يعزّى المؤمنين العابدين ويرفع أشواقهم نحو السماء. كما أنه بذلك

---

(٦) ونقصد هنا ألحان القداس القصيرة والطويلة وألحان المناسبات، وألحان أخرى كإبؤورو (= يا ملك السلام) و شيري ماريا (= السلام لمريم الملكة) أو تين أوأُشت إم افيوت (= نسجد لوالد النور) أو أونوف امو ماريا (= افرحي يا مريم) أو أفنوتي إبشويس إنتي بي جوم (= أيها الرب إله القوات).. فضلاً عن ألحان التسبحة الرائعة المطولة وألحان البصخة التي تحلق في أجواء جثسيماني وجبل الجلجثة والصليب والقبر، وألحان القيامة الحافلة بالبهجة.

(٧) لا ننسى في هذا المجال جهد الآباء والمرتلين الحافظين للتراث باللغة القبطية ونخص بالذكر هنا **الأنبا يؤانس** أسقف الغربية المتنيح، **والأنبا أندراوس** أسقف دمياط وكفر الشيخ المتنيح، والمتنيح **القمص مرقس جرجس** كاهن كنيسة مطاي (والذي تتلمذ عليه ابناه **القمص تيموثاوس والقس ساويرس**)، والمتنيح **القمص مرقس جرجس** كاهن كنيسة مارمينا بشبرا، **والقمص كيرلس المقاري، والقمص شنوده الأنبا بيشوى وشقيقه المتنيح القمص بيشوى ديمترى** (كاهن كنيسة العذراء بإيست برونزويك – نيوجيرسي) وغيرهم، ومرتلي الكنيسة العظام بعد **المعلم ميخائيل: المعلمين فهيم جرجس، وفرج عبد المسيح، وصادق عطاالله، وعطية قرياقص، وإبراهيم عياد،** والموهوب المتنيح الأرشيدياكون **دكتور يوسف منصور** وغيرهم.

يسهم في حفظ هذه الذخيرة الروحية الثمينة التي آلت إلينا من الآباء وبالتالي نقلها بأمانة إلى الأجيال التالية.

(ج) عن أهمية الألحان

ولقد يُقال إن الألحان مجرد إطار وإن الاستغناء عنها لا يخلّ بهدف الصلاة، وإن الكاهن لو تلا الصلاة كلاماً مرسلاً وردّ عليه الشعب باقتضاب (كما في بعض الكنائس الغربية) فإن الصلاة قائمة والمسيح هناك على المذبح.

ولكن هذا المنطق (الذي يسوقه من لم يتذوقوا الألحان أو حفظوها) يتجاهل مكوّنات الإنسان وحاجاته، وأنه ليس ذهناً وحواساً عصبية فقط، وإنما هو أيضاً قلب يخفق بمشاعر وعواطف فائضة وروح يهتف بأنات لا يُنطق بها، وأن حياتنا في الله تشمل كل الكيان: ففي الصلاة يشترك الجسد (السجود أو رفع اليدين أو انحناء الرأس) واللسان (الكلمات) والعقل (الفكر والذهن) والقلب (المشاعر) والروح التي تلتهب فرحاً. والكلمة الملّحنة المرتلة تجد صداها في كل جوانب الكيان الإنساني فينحصر عندها في الالّهيات بصورة أوثق ولا ينفلت الفكر ويتشتت، فيكون الثمر أغنى وأوفر. وعندما يتقلّص التأثير فلا يطال بعض الجوانب يكون الثمر محدوداً: النفس أقل شبعاً والقلب أقل فرحاً.

فإذا كانت النعمة قد وهبتنا ما يفرح القلب وينعشه ويعزيه فلِمَ لا نقبل عطية الله ونُقبل عليها. ولِمَ لا نتمسك بأن يكون هذا الإطار والشكل (أي الألحان) متقناً دقيقاً، مجتهدين في حمايته ونقله إلى أجيالنا التالية سليماً نقياً كما تسلمناه.

(د) عن الصوت المناسب للألحان

لما كانت الألحان في كنيستنا صوتية، أي لا تعتمد إلا قليلاً على الآلات الموسيقية[٨] (الناقوس أو الصنوج – وليس الدف الذي يُطلق عليها خطأ – والمثلث أو الترياتو) فمن هنا يصير صوت المرتل – كاهناً أو شماساً – أداة رئيسية في اللحن.

على أن ما يثير الألم والأسف هو أن كثيرين من الآباء الكهنة يفتقدون الصوت المناسب المدرب الذي يستطيعون به أن يصلوا قداساً مُلحَّناً بصورة ما.

وهكذا فإن قداس الكنيسة القبطية الذي تفردت به بين سائر الكنائس الشرقية على مدى التاريخ، بألحانه التراثية الغنية التي تشرك كل الشعب في الصلاة، يتهدده الآن هذا التنازل – من جانب من يزكّون المرشحين للكهنوت – عن شرط درايتهم بالألحان التي تتطلب بالطبع حداً أدنى من الصوت المقبول الذي إذا لم يتوفر يكون قد ضاع اللحن والصوت ولا يبقى إلا الكلمات. وهنا إذا لم يكن الكاهن عارفاً لقواعد النطق الصحيح قبطياً وعربياً (واللغات الأخرى التي يُصلَّى بها في كنائسنا في الخارج) يجد العابدون أنفسهم في مأزق صعب: يبذلون الجهد كي يظلوا حافظين أذهانهم المرهقة في دائرة السمائيات لئلا تهبط إلى أرض الواقع الذي لا يثير غير الانتقاد، مما يثقل ضمائرهم. فهم بدل أن ينالوا التعزية يُحاصرون باللحن الغائب والكلمة الخطأ والصوت غير المقبول.

وحتى لو وضعنا الدراية بالألحان والصوت المناسب في نهاية شروط اختيار الكاهن، يسبقهما بالطبع تقواه وتكريس نفسه وعلمه وخبرته كخادم وقيادته وتجرده... الخ، إلا أنهما يظلان شرطين هامين ينبغي توفرهما في الكاهن القبطي، وفي غيابهما (مع توفر الشروط الأخرى) نظن أنه من المقبول أن يركز

(٨) لايزال الأرغن من أعظم الآلات الموسيقية التي تُستخدم في تسبيح الله. إن صوت الأرغن يتراوح بين النغم الهامس والشلال الجارف الذي يهز النفس هزاً ويكاد يعلن بجبروت حضور الله. وإذا كان للأرغن موقعه في كنيستين فقط من كنائسنا فنحن نتمنى توسيع دائرة استخدامه لدوره في اشتراك كل المؤمنين في التسبيح مع ضبط أصواتهم.

جهده في الخدمات غير الليترجية التي تناسبه وهي كثيرة متعددة [٩] ، فالحصاد دائماً كثير، على أن تكون هناك أولوية للكهنة ذوي القدرات الصوتية واللغوية في تلاوة الصلوات الليترجية. وفي بعض الأديرة لا يُسمح إلا لعدد قليل من الكهنة لخدمة المذبح وهم من تتوفر فيهم هذه القدرات.

إن ألحان الكنيسة القبطية كلها ثروة تستحق الحفاظ عليها، ولابد أن يوضع في الاعتبار الحفاظ على ألحان صلوات الكاهن (والشماس) من الاندثار [١٠] بدل تركها للاجتهاد الفردي الذي يمكن أن يودي بها إن آجلاً أو عاجلاً.

ثالثاً: ملاحظات ختامية

(١) في كتابه "التسبحة اليومية ومزامير السواعي" يحذر المتنيح **الأب متى المسكين** من خطرين يتهددان الطقوس بصورة عامة، **أولهما** : التدقيق الحرفي بدون روح مع تأكيد الذات وحب الظهور، **وثانيهما** : الاستهتار بها واختصارها وتتميمها كيفما اتفق (وفي الحالين ينفصل الطقس عن روح الصلاة ورب الصلاة). ويضيف أن الله هو الذي يقدّس وليست الطقوس والصلوات

---

(٩) إن خدمة الكاهن متنوعة. وربما كان الكاهن موهوباً في التعليم، كأب للاعتراف، كمبشر، كخادم للفقراء أو المرضى، كمدبر ، كخادم اجتماعي، كقائد للجموع ، كخادم للشباب ، ككاتب ومؤلف، وبالتالي فإن عدم لياقته الصوتية أو عدم قدرته على إتقان ألحان القداس لا تحرمه من خدمة الكهنوت ، على أن يُكلّف بالحد الأدنى من خدمة المذبح وهذه يُكلّف بها من إخوته الكهنة ممن لهم موهبة الصوت المناسب لصلاة القداس بألحانه المتعددة والنطق الصحيح لكلمات القداس بلغة سليمة واضحة من أجل تعزية المؤمنين وتوقيراً لخدمة القداس وإحاطتها بالاحترام والدقة اللائقين بحضور الله.

(١٠) نلاحظ في السنوات الأخيرة تواري بعض الألحان القبطية التي كانت شائعة قبل ثلاثة أو أربعة عقود. فمقدمات البولس والكاثوليكون والإبركسيس القبطية اختفت تقريباً واقتصرت تلاوتها في قليل من الكنائس على عيدي الميلاد والقيامة، ومثلها أوشية القرابين بلحنها الرائع للكاهن والشماس (في صلاة باكر) التي لا تجد لها مكاناً حتى في ليالي الأعياد السيدية إما لضيق الوقت أو لغياب الشعب أو لعدم إتقان الكاهن والشماس لها. وننظر بقلق إلى الذخيرة العظيمة من ألحان أسبوع الآلام لئلا ينالها ما نال غيرها.

ذاتها التي تشكل فقط الإطار الذي يقدسنا فيه الله وننال فيه شركة الجسد والدم.

(٢) هناك خطر التعاجب بالصوت في الصلوات الفردية (أي صلوات الكاهن وشماس الهيكل وقارئ الإنجيل) وتحول التلاوة إلى هدف في حد ذاتها. فالكنيسة تصلي ولا تعقد حفلاً غنائياً لخدمة الذات وإمتاع الناس وانتظار المديح وكلمات الإعجاب. ولكن الكاهن والشمامسة والشعب يشكلون جوقة تسبيح سمائية مع الملائكة كما يشير إلى ذلك الاقتباس من القداس الغريغوري في صدر المقال (ص٣٧).

(٣) الخورس الروحي المنضبط، المتقن للحن، الملتزم بالدقة، الشاعر بحضور الله، والذي يرتل كأنه يصلي بخشوع وتركيز وتآلف بروح الفريق دون محاولة للظهور الفردي فيبدأ الجميع معاً ويتوقفون معاً وينتهون من اللحن معاً "**كواحد، صوتاً واحداً**"(٢أى٥:١٢، ١٣) هو أحد عناصر القوة والتعزية الروحية ومشجع على الصلاة والمثابرة على حضور الكنيسة واجتماعاتها، وبعض كنائسنا أفضل ما فيها خورس المرتلين.

(٤) إن "المعلم" و"خورس الشمامسة" مهما كانت مهارتهم ليسوا بديلاً عن الشعب. و"المعلم" الذي يستحق هذا الاسم و"الخورس" الذي يحقق هدف وجوده هو الذي ينجح في إشراك الشعب في ترديد الألحان خاصة الشائع منها، ويدربه على جماعية التسبيح المتناغم بصورة تنعش الروح وتمجد الله. أما الذين يتجاهلون الشعب ويكتفون بالرد وحدهم ويستخدمون طرقاً وطبقات صوتية لا تتيح للشعب المشاركة في ألحان الصلاة بسهولة فهؤلاء يخونون رسالتهم الحقيقية ويشوهون وجه الصلاة ويحرمون الشعب من بركة التسبيح والصلاة، وهذه خسارة كبيرة لأن الضلع الأكبر في مثلث الخدمة الليترجية وهو الشعب قد استُبعِد من الخدمة.

(**٥**) إن المحافظة على الألحان الكنسية الليترجية والإبقاء عليها صوتيةً مع الحد الأدنى من الآلات الموسيقية التي تضبط الإيقاع والسرعة، لا يمنع في مجال التسبيح الأوسع من تكريس أصحاب المواهب الروحية في التأليف الموسيقي وقرض الشعر باستلهام كلمات الكتاب وهي حافلة بآيات التسبيح، مع التوسع في الاستخدام الموسيقي المناسب. وبعض فرق التسبيح في كنيستنا (فرقة دافيد على سبيل المثال) لاقت التقدير ليس في الداخل فقط وإنما في الخارج أيضاً.

(**٦**) من يتقن الألحان فليستخدمها في التسبيح، ومن لا يعرف إلا القليل فليستمتع بما يسمع ويجتهد في أن يحصر ذهنه في معاني الكلمات، وهكذا ينال نصيبه من الفرح ومن نعمة الله. ولكن على الكنيسة أن تجتهد في شرح كلمات الألحان لهؤلاء لكي يتابع الذهن حركة الروح. وسيوفر الفهم فرح المؤمن بما يسمع، وأن يمتد الجهد الكنسي في شرح كل الطقوس (خاصة تلك غير الشائعة والتي لا تتكرر كثيراً (كما في الأعياد والمناسبات الكنسية) ولإزالة تلك الغربة بين كثير من المؤمنين وطقوس الكنيسة والتي تصدّهم عن التمتع بالترتيبات الكنسية التي لم يُقصد بها غير تعميق الفائدة الروحية للمؤمنين.

(**٧**) إن الالتزام بالدقة هو أحد مظاهر النظام وحسن الترتيب وعدم التشويش (١كو١٤،٤٠:٣٣) ، والخدمة التي تتجاهل مشاعر المؤمنين والتزاماتهم وتعثرهم بتجاوز المواعيد المعلنة للخدمة لا تمجد الله ولا تشهد له مهما تعللت بمحاولة إتقان العبادة بتقديم المزيد من الألحان أو التطويل المُغالى فيه في صلوات القداس. كما قد تأتي العثرة من الهرولة وتداخل الصلوات بين الكاهن والشماس والشعب للإسراع في الانتهاء من الصلاة.

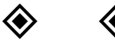

إن التسبيح هو أسمى درجات الصلاة، فلا طلبات هنا ولا شكوى. ليس هناك غير الله تناجيه النفس، تمجده، تتأمل عجائبه، تشكره على إحساناته وتعترف بفضله، تترنم باسمه، تتغنى بصفاته، تبتهج وتفرح لأنها في حضرته.

وفي الليترجية تجتمع نعمتان: نعمة الثبوت في المسيح بتناول جسده ودمه التي هي غاية صلوات القداس، ونعمة التسبيح في الهوسات والإبصاليات وأرباع الناقوس وصلوات الشكر ضمن التسبحة والألحان المصاحبة للقداس، والتي تتنوع بحسب المناسبة.

فالكنيسة تتيح لأعضائها نعمة التسبيح الذي لا يقصد غير وجه الله ورضاه والوجود معه دون الالتفات إلى حاجات الجسد ومعاناة الحياة. وعندما نلتفت إلى الرب وحده نثق أن كل أمورنا مكشوفة وعارية أمامه، وكل احتياجاتنا معروفة عنده، وكل مشاكلنا تنتظر الحلول التي أعدها.

وهكذا ننسحب من توجّهاتنا النفعية التي تشوه علاقتنا بالله ونتجه إلى شركة أكثر غنى وبهجة لا تعرف غير الشكر على كل حال وتستكثر أن تطلب واثقة أنه قادر أن يفعل أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر (أف ٣: ٢٠).

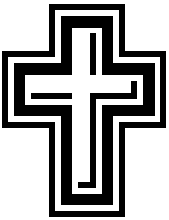

العبادة واللغة

أولاً : نشأة اللغة

+ اللغة والكلمات هي وعاء الأفكار، وترجمة المشاعر، والتعبير عن الشخصية. وما يجول في الذهن والقلب والنية والروح تجسده الكلمات وتنطق به الشفاه، حتى لقد قيل قديماً "**تكلم حتى أراك**".

واللغة كانت وسيلة الاتصال الفائقة بين الناس وهي وراء طفرتهم الحياتية عن الحيوانات العجماء، وبها – لما اخترع الإنسان الكتابة أشكالاً ثم حروفاً وكلمات – سَجّل التاريخ. وهكذا تحقق التقدم واستمر لأن كل جيل يضيف إلى ما أخذه ممن قبله ويخطو خطوة جديدة إلى الأمام. ففي كل منا لهذا السبب كل تاريخ الإنسان من آدم إلى هذه الساعة. وبالمقارنة، فإن الحيوانات، أسماكاً كانت أو زواحف أو طيوراً أو دبابات، دائرة تصرفاتها محدودة ووسائل اتصالها فيما بينها لا تسمح بأكثر من حفظ النوع وهي محكومة بغرائزها (أساساً الطعام والجنس) وعاداتها المتوارثة،

وهي لا تبتكر، ولا تغيّر أساليب حياتها أو بيئاتها إلا بضغوط الطبيعة والتدخل الإنساني[1].

+ ومفردات اللغة من الكلمات ألفّها البشر. وسفر التكوين يشير إلى أن الله أحضر كل حيوانات البرية "**إلى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها. فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية**" (تك٢:١٩، ٢٠).

+ وفي البداية "كانت الأرض كلها **لساناً واحداً ولغة واحدة**" (تك١١:١). ولكن لما انتشر الناس في الأرض بحسب خطة الله "**فبددهم الرب من هناك** (بابل) **على وجه كل الأرض**" (تك١١:٨، ٩)، وانعزلت كل جماعة عن الأخرى، أخذت اللغة الواحدة تتغير ببطء بمضي الزمن فنشأت اللهجات العامية الكثيرة (وهو مانراه في الدول كبيرة المساحة والسكان حيث تختلف اللهجة بين مناطقها وحتى بين قراها[2]. وباستمرار التباعد والزمن نشأت اللغات المختلفة[3].

---

(١)"فخلق الله الإنسان على صورته.. وباركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض **وأخضعوها وتسلطوا** على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض" (تك ١:٢٧ ، ٢٨)

(٢) وعندنا في أحداث العهد الجديد ما يشير إلى ذلك، فوقت محاكمة الرب أشار الخدم إلى لهجة بطرس الجليلية التي تختلف عن لهجة أورشليم: "حقاً أنت أيضاً منهم فإن **لغتك تُظهرك** " (مت٢٦:٧٣). ويوم الخمسين علّق المجتمعون في أورشليم على بشارة التلاميذ قائلين "أترى ليس جميع هؤلاء المتكلمين جليليين فكيف نسمع نحن كل واحد منا لغته التي وُلد فيها.. كريتيون وعُرب نسمعهم يتكلمون بألسنتنا بعظائم الله" (أع ٢:٧-١١).

(٣) علم اللغات Philology يتتّبع جذور التشابه بينها ويبحث في أصولها المشتركة (فهناك صلات وثيقة مثلاً بين العربية والعبرية والسريانية، وبين الإنجليزية والفرنسية، وبين الألمانية والهولندية، وبين الأسبانية والبرتغالية) والكلمات التي انتقلت من لغة إلى أخرى (مثل قط وcat ، سكر و sugar وجرة و jar) . وهناك حوالي ٢٠٠ لغة رئيسية يتكلم بها معظم سكان العالم، ولكن يوجد بالطبع مئات من اللغات، وآلاف من اللهجات المختلفة. وبعض اللغات قد تحتضر وتختفي (فاللغة القبطية اختفت من ألسنة الناس خلال ستة قرون تقريباً، إلا من عديد من الكلمات ضمن اللغة العامية، وبقيت فقط في الصلوات) وأخرى قد تنشأ وتنمو. وكل اللغات تتغير تدريجياً بمضي الزمن، فاليونانية القديمة والإنجليزية القديمة والعربية القديمة غير الحديثة، وهذه ستواصل التطور.

ثانياً : اللغة في علاقة الله بالبشر

+ وكما كانت اللغة وسيلة الاتصال بين البشر، فقد استخدمها الله في الاتصال بالبشر. فتكلم الله مباشرة مع آدم[٤] وحواء[٥] وقايين[٦] ونوح[٧] وإبراهيم[٨] واسحق[٩] ويعقوب[١٠]. وتكلم طويلاً مع موسى[١١] [ونوّه الرب إلى ذلك قائلاً " فماً إلى فم وعيانا أتكلم معه" (عدد١٢: ٧، ٨)] وأيوب[١٢] ويشوع[١٣] وجدعون[١٤] وصموئيل[١٥] وناثان[١٦] وداود[١٧] وسليمان[١٨]، والأنبياء إيليا[١٩] وإشعياء[٢٠] وإرميا[٢١] وحزقيال[٢٢]، أو تكلم الرب من خلال ملاك أو نبي كما فعل مع شاول[٢٣] وداود[٢٤] وزكريا الكاهن[٢٥] ومريم العذراء[٢٦].

---

(٤) تك ٢: ١٦، ١٧، ٣: ٩ ، ١١ ، ١٧-١٩
(٥) تك ٣: ١٣، ١٦
(٦) تك ٤: ٦، ٧، ٩-١٢، ١٥
(٧) تك ٦: ١٣-٢١، ٧: ١-٤، ٨: ١٥-١٧، ٩: ١-١٧
(٨) مرات كثيرة في (تك) الأصحاحات ١٢، ١٣، ١٥، ١٧، ١٨، ٢١، ٢٢
(٩) تك ٢٦: ٢-٥، ٢٤
(١٠) تك ٢٨: ١٣-١٥، ٣١: ٣، ٣٥: ١٠-١٢، ٤٦: ٢-٤
(١١) مرات كثيرة (وأصحاحات بأكملها أحيانا) في (خر) الأصحاحات ٣، ٤، ٦-١٧، ١٩-٣٤، ٤٠، سفر اللاويين (٢٧ أصحاحاً) ، سفر العدد (٣٦ أصحاحاً)، سفر التثنية (٣٤ أصحاحاً)
(١٢) أى ٣٨: ١-٤١: ٣٤
(١٣) يش ١: ١-٩، ٣: ٧، ٨، ٤: ١٥ ، ٦: ٢-٥، ٧: ١٠-١٥، ٨: ١-٩، ١٨، ١٠: ٨، ١٢-١٤، ١١: ٦
(١٤) قض ٦
(١٥) ١صم ٣: ١٠-١٤، ٩: ١٦، ١٥: ١١ ، ١٦: ١-٣
(١٦) ٢صم ٧: ٥-١٦ ، ١ أى ١٧: ٤-١٤
(١٧) ٢صم ٥: ١٩، ٢٣، ٢٤
(١٨) ١مل ٦: ١١-١٣ ، ٩: ٢-٩ ، ٢أى ١: ١١، ١٢، ٧: ١٢-٢٢
(١٩) ١ مل ١٧: ٨، ٩، ١٨: ١، ١٩: ٩-١٨ ، ٢١: ١٧-١٩
(٢٠) ٢مل ١٩: ٦، ٧، ٢٠-٣١، ٢٠: ١-٦، ١٧، ١٨، ١ش ٦: ٨-١٣، ٨: ١-٣٥: ١٠، ٣٨: ٥-٨، ٤٠: ١-٦٣: ٦، ٦٥: ١- ٦٦: ٢٤
(٢١) أجزاء كبيرة من سفر إرميا في الأصحاحات ١-١٩، ٢١-٢٥، ٢٧-٣٧، ٣٩، ٤٢-٥١
(٢٢) حز ٢: ٣- ٤٨: ٣٠
(٢٣) ١صم ١٥: ٢٧-٢٩
(٢٤) ٢صم ٧: ١٤-١٦ ، ١٢: ١-٤
(٢٥) لو ١: ١١-٢٠
(٢٦) لو ١: ٢٨-٣٧

+ وأولى وصايا الله العامة للبشر كانت مكتوبة بأصبع الله [٢٧] بلغة يفهمها البشر (أغلب الظن أنها العبرانية أو أولى مراحلها من السامية)، وهي **الوصايا العشر** التي تسلمها النبي موسى على الجبل [٢٨].

+ وشريعة العهد الجديد والدعوة إلى التوبة والإيمان بالإنجيل (مر١:١٥) نطق بها الرب[٢٩] لتلاميذه وللجموع التي كانت تتبعه وللكتبة والفريسيين واليهود ورؤسائهم في المجامع.

+ وبالكلمة واللغة انطلقت الدعوة إلى الخلاص يوم الخمسين بنار الروح المقدسة وتأسست كنيسة المسيح، ومن خلال الكرازة امتدت إلى أطراف المسكونة. وبالكلمة واللغة كتب التلاميذ والرسل الأناجيل وسفر الأعمال والرسائل والرؤيا، ومنها عرفنا عن الرب وحياته وصلبه وموته وقيامته وصعوده والخلاص من الموت ونوال الحياة الأبدية بالإيمان به.

+ وبالكلمة واللغة تتم الصلاة والتعليم وتفسير كلمة الله وتُمارس الأسرار ويسكن الروح في البشر.

---

(٢٧) "ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء **لوحي الشهادة، لوحي حجر مكتوبين بأصبع الله**" (خر٣١:١٨)

(٢٨) "لوحان مكتوبان على جانبيهما من هنا ومن هنا... و**اللوحان هما صنعة الله والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين**" (خر٣٢:١٥، ١٦). وبعد أن كسرهما موسى قال له الرب "انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما" (خر٣٤:١). ولكن الكتاب يذكر أن الرب أملى موسى الكلمات فكتبها بيده " وقال الرب لموسى **اكتب لنفسك هذه الكلمات... فكتب على اللوحين كلمات العهد، الكلمات العشر**" (خر٣٤:٢٧، ٢٨).

(٢٩) دُعي الرب "**كلمة الله**" (رؤ١٩:١٣) ولُقِّب "**بالكلمة**" Logos (يو١:١، ١٤) لأنه يعلن فكر الله وحكمته ووصاياه "**فبالمسيح قوة الله وحكمة الله.. الذي صار لنا من الله حكمة من الله وبراً وقداسة وفداءً**" (١كو١:٢٤، ٣٠).

ثالثاً : اللغة والألحان

في المقال السابق من هذا الفصل[٣٠] تكلمنا عن دور التسبيح (والألحان) في العبادة بصورة عامة، وهنا نتناول دور اللغة في التسبيح والألحان. وكما هو معروف فقد ظلت الصلوات والتسابيح القبطية اثنى عشر قرناً (وربما أكثر) تُتلى في الكنائس المصرية باللغة القبطية وحدها[٣١] بألحانها المعروفة في التسبحة والليتورجية دون عائق، حتى بدأ استخدام اللغة العربية في الصلوات مع القبطية (بعد أن انتشر التعامل باللغة العربية – على حساب اللغة القبطية – في الحياة اليومية خاصة مع جهات الإدارة والتعليم وغيرها).

ومع الاجتهاد في استخدام نفس اللحن مع النصوص العربية ظهرت الاختلافات في الألحان بين الأصل القبطي والمقابل العربي (قابل مثلاً "هيتين ني ابرسفيا انتي تي ثيئوطوكوس" مع "بشفاعة والدة الإله" أو "نى شيروبيم سى أو أُشت إموك" مع "الشاروبيم يسجدون لك" فهي ربما **تتشابه** كثيراً ولكنها **لا تتطابق** . كما تعددت الاختلافات في المناطق المختلفة فشمال مصر غير جنوبها.

وبالنسبة للقداس، فبسبب طول ألحان القداسين الكيرلسي [الذي وضع أساسه القديس مرقس واستكمله القديس كيرلس الكبير البطريرك الرابع والعشرون (٤١٢-٤٤٤) الذي يخاطب أقنوم الآب مثل القداس الباسيلي] والغريغوري [للقديس غريغوريوس النزيزى الثيئولوغوس أو الناطق بالإلهيات (٣٢٩-٣٨٩) الذي يخاطب أقنوم الابن]، لم يُعد يتلى بالقبطية الآن عادة غير

---

(٣٠) "**العبادة والتسبيح**" ص ٣٦.

(٣١) وهي الصورة الأخيرة من تطور اللغة الهيروغليفية القديمة واستبدلت بحروفها الديموطيقية الحروف اليونانية وأُضيفت إليها سبعة حروف أخرى لا تعرفها اللغة اليونانية [منS (شاى) إلى [(تى)].

صلوات القداس الباسيلي [للقديس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩)] وأجزاء بعينها من القداسين الآخرين[٣٢] التي لايزال يتقنها عدد لا بأس به من الكهنة، وإن كانت أغلب صلوات القداس الآن في كنائسنا المحلية تُتلى باللغة العربية التي لا **تتطابق** ألحانها مع ألحان القداس باللغة القبطية (بل وصار لبعض الموهوبين من أساقفتنا وكهنتنا[٣٣] طريقتهم الروحية المعزية في صلاة القداس باللغة العربية وربما نقبلها على أنها طريقة جيدة لتلاوة القداس)، وهي وإن كانت جميعاً مشتقة من اللحن القبطي إلا أنها قلما تتطابق.

وتتكرر نفس القصة الآن مع تلاوة القداس باللغة الإنجليزية وغيرها[٣٤] بانتشار الكنيسة القبطية في الغرب واستراليا وأفريقيا. والاجتهادات كثيرة، ويمكن القول دون تجاوز أن كل كنيسة قبطية في هذه البلاد يكاد يكون لها ألحانها الخاصة بها .

ونحن نعترف بمصاعب البداية، فهناك أولاً مشاكل الترجمة إلى اللغات المختلفة، ثم استخدام اللحن القبطي مع النصوص المترجمة. والبعض يرى أن الزمن كفيل بالحل وأن القصور في مطابقة اللحن لبعض الوقت لا يعطل الصلاة ولايعوق الفرح الروحي بها. ومع الاجتهاد واستمرار الاتصال والترابط بين كنائس اللغة الواحدة تتقارب الألحان.

---

(٣٢) مثل بكلاؤس غار (شعبك) .. جي ناي نان (ارحمنا يا الله)، بننوتى بنسوتير (ياسيدنا ومخلصنا)، فيئتاف إزمو إمبي سيو (يا من بارك في ذلك الزمان) – من القداس الغريغورى، و.. إننا يا سيدنا لسنا أهلاً – من القداس الكيرلسي.

(٣٣) طريقة **الأنبا بنيامين** مطران المنوفية الراحل، والمتنيح **القمص مرقس جرجس** كاهن كنيسة مارمينا بشبرا، والمتنيح **القمص عبد المسيح الأقصرى**، والمتنيح **القمص أنطونيوس أمين** كاهن كنيسة مارمرقس بمصر الجديدة.

(٣٤) اللغات الرئيسية (غير القبطية والعربية) التي يُصلَّى بها القداس القبطي حالياً هي الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والهولندية والأسبانية والبرازيلية، وفي أفريقيا السواحلية والأمهرية والأريترية وغيرها.

ومع هذا فنحن نرى أنه قد آن الأوان للاستفادة بمجهود المتنيح الدكتور راغب مفتاح في تسجيل الألحان القبطية واستخدام النوتة الموسيقية الموحّدة في الكنائس القبطية[٣٥] (خاصة في كنائس الغرب واستراليا حيث تنتشر الثقافة الموسيقية العلمية) مما ييسر بلوغ هدف توحيد الألحان مع اختلاف اللغات[٣٦].

رابعاً : ملاحظات عن تعدد لغة الصلاة

(١) في متابعتنا لنهج الصلوات في كنائسنا القبطية التي تصلي بالإنجليزية نلاحظ أن بعضها يتبنى اللحن المستخدم مع النص العربي لا القبطي (وربما هذا يحدث أيضاً في الكنائس القبطية التي تصلي بالفرنسية أو الألمانية أو غيرها). وهذا غير مقبول لأن اللحن القبطي هو الأصل. واستخدام اللحن القبطي (لا العربي) هو الكفيل بنقل التراث اللحني القبطي سليماً إلى هذه الكنائس ومن ثم حفظه دون تغيير إلى الأجيال القادمة.

ومن الملاحظ أن ألحان التسبحة ظلت محتفظة بأصالتها، لأنه فضلاً عن جماعيتها (بما يحدّ من إمكان التغيير الذي تتعرض له الألحان الفردية) فإنها تُصلَّى بالقبطية (غالباً) حتى الآن (ومثلها أيضاً لحن آجيوس وكيرياليسون بتنويعاتهما التي تُرتَل دائماً باللغة اليونانية). ومن الممكن طبعاً استخدام لغتين (أو أكثر) في الفقرات المتتالية ذات اللحن القصير المتشابه.

---

(٣٥) بردية البهنسا التي تعود إلى القرن الثاني الميلادي تحوي أقدم لحن مسيحي مُدَّون على نوتة موسيقية.

(٣٦) يتردد في الأوساط الكنسية أن أسقفياتنا في الولايات المتحدة وأوروبا تولى هذا الأمر اهتمامها، ومن خلال مبادراتها والاتصالات فيما بينها نأمل أن تصلى كنائسنا على اتساع القارات بذات الروح والكلمات والألحان مما يدعم الإحساس بوحدة كنيستنا ويضمن مشاركة العابدين في الصلاة والتسبيح دون عناء كلما انتقلوا من كنيسة قبطية إلى أخرى.

أما ألحان التسبحة الطويلة مثل مارين أو أُنه، أو الشيرات، أو الهوسات، أو إزمو إبشويس، أو تينين، وألحان القداس (خاصة في المناسبات) مثل الليلويا التوزيع، وأبيكران، وألحان أسبوع الآلام ودورة القيامة، والعنصرة (بى ابنيفما امباراكليتون) وصوم الرسل (أونتوس آليثوس) فيمكن استبقاؤها باللغة القبطية مع متابعة معانيها بدقة، إلا لو أمكن ترتيلها بلغة أخرى بشرط المحافظة على اللحن والالتزام به بكل إتقان ودقة، وفي هذا فليتنافس المتنافسون خاصة الموهوبون والمؤهَّلون موسيقياً.

(٢) من المهم في هذا المجال استبقاء اللحن القبطي عند قراءة الإنجيل بالإنجليزية (أو غيرها)، لا استخدام طريقة قراءة الإنجيل باللغة العربية، من أجل حماية هذا اللحن من الاندثار[٣٧] ، ابتداء من قراءة المزمور مُلحناً بالطريقة القبطية وختامه بالليلويا حسب القواعد والمناسبات (سنوي – كيهكي – فرايحي – صيامي – شعانيني – عيد ... الخ). وبعد المزمور يمكن للشماس من حين إلى حين أن ينادي على الشعب باللغة المستخدمة أن يقف بمخافة الله، بدلاً من ستاثيتى ميتافوفو ثيئو القبطية حتى يعرف الجميع أن هذه الجملة هي ترجمة تلك القبطية. ثم يقول الكاهن "إف إزماروءوت إنجي في إثنيو" (أي مبارك الآتي....) أو يقولها باللغة المستخدمة وبنفس اللحن، فيرد الشعب بالقبطية "ذوكساسي كيريى" (المجد لك يارب) أو باللغة المستخدمة. [ولا داعى بالتالي بعد ذلك أن يقول الشماس قارئ الإنجيل بالعربية – في حالة ما إذا كانت العربية تُستخدم أيضاً – " قفوا بمخافة الله..." مرة أخرى لأن الشعب قد استجاب لنداء سابق ووقف بالفعل ينصت

(٣٧) الذي يكاد يندثر بالفعل، فالإنجيل (والمزمور) حتى في معظم كنائس مصر لا يُقرأ الآن بالقبطية إلا في أسبوع الآلام.

للإنجيل]. ثم يواصل الكاهن أو الشماس القراءة باللغة المستخدمة باللحن القبطي[٣٨] ويختم بذوكساسي كيريي (أو بما يقابلها) بلحنها.

وعند القراءة العربية[٣٩] يُبدأ مباشرة بالمزمور ويليه "مبارك الآتي...." وقبل تلاوة الإنجيل يقول القارئ " فصل من بشارة الإنجيل كما كتبه معلمنا القديس.. بركاته على جميعنا" ويواصل القراءة حتى ختام فصل إنجيل القداس.

(٣) إن اللغة القبطية هي عصب الألحان التي هي وسيلة التسبيح، والاهتمام بتعليمها والحرص عليها والتدقيق في نطقها صحيحة ليس هدفاً في حد ذاته فليست للغة ما أولوية عند الله، وكل صلاة بإيمان في اسم المسيح مقبولة مهما كانت اللغة التي تُرفع بها، وإنما هي وسيلة دبرتها عناية الله لكي نتلو بها ألحان التسبيح القبطية التي ارتبطت بها منذ ألفي عام، فضلاً عن أنها اللغة التي كُتبت بها آلاف المخطوطات من كتابات الآباء في القرون الأولى وتحوي أساسيات الإيمان والعبادة.

ومع تعدد لغة الصلوات في كنيستنا في العقود الأخيرة تبقى الألحان القبطية هي الأساس الذي تُبنى عليه الألحان باللغات المختلفة ووسيلة توحيد نمط الصلاة في الكنائس القبطية على اتساع القارات.

المهم إذاً عند صلاة القداس بأي من هذه اللغات أن يُستخدم اللحن القبطي، لا العربي (كما يحدث ربما دون وعي)، وإلا فُقد اللحن القبطي إلى الأبد في هذه الكنائس خارج مصر، وهي خسارة لسنا مضطرين إليها ويمكن تفاديها ببعض الجهد.

---

(٣٨) نتيجة عدم الفهم فإن بعض الشمامسة عند القراءة باللغة الأخرى المستخدمة (السائدة) للإنجيل يعيد من جديد قراءة المزمور دمجاً وهو الذي سبقت تلاوته ملحناً بهذه اللغة. ويقول من جديد وبشكل آليّ ما يقابل "قفوا ... " ثم ما يقابل "ربنا والهنا ومخلصنا ..." كأن هذا كله لم يكن قد تُلي وهو تكرار غير لائق ويعني أننا لا نفهم ما نقول أو نسمع أو أننا لاننصت.

(٣٩) يمكن القول أنه قد صارت للإنجيل العربي قراءته اللحنية الخاصة بل ربما صارت هناك أكثر من طريقة: وبعضها يلمس القلب فعلاً (طريقة المتنيح الأنبا بنيامين مطران المنوفية الأسبق)، وبعضها مغالى فيه ويستعرض القارئ فيها صوته بما يسئ إلى روح الصلاة. ومهمة المرشدين الروحيين هي استبعاد هذا الأسلوب الذي لا يمجد الله.

خامساً : اللغة والقراءات الكنسية

اللغة والكلمة المكتوبة هي الباب الذي دخلنا منه إلى التلاقي مع كلمة الله سواء بالقراءة أو بالسماع.. وقداس الموعوظين (القسم التعليمي من الليترجية) عماده قراءة أجزاء مرتّبة حسب "القطمارس" من المزامير والإنجيل وسفر الأعمال والرسائل[٤٠].

وقراءات كل يوم (وخاصة الآحاد) مختارة بعناية لتخدم موضوع الإنجيل، وبالتالي فإن العظة التي تلى القراءات تشير إلى الموضوع العام (الذي يربط بين قراءات الفترة من السنة) والموضوع الخاص (الذي يربط بين قراءات اليوم) بما يتيح فهما أشمل وأعمق لكلمة الله بدل الفهم المبتسر إذا اقتصر على جزء بعينه. فالروح القدس هو الكاتب الواحد لكل الكتاب، وكل جزء يلقي الضوء على سائر الأجزاء، وإن كان ضيق الوقت المتاح في أيامنا لايتيح كثيراً غير شرح فصل الإنجيل خلال الليترجية، ولكن اجتماعات درس الكتاب في الكنائس تستكمل شرح الأناجيل وباقي أجزاء الكتاب.

ولنا هنا بعض الملاحظات لكي تحقق هذه القراءات الفائدة المرجوة :

(١) لاهتمام الكنيسة بالقراءات ودورها في نشر الكلمة وتعليمها وفهمها فإنها خصصت أولى رتب الشموسية لتكون الأناغنوستس (=الأُغنسطس) أو القارئ الذي يُفترض فيه أن يعرف الكتب المقدسة قراءة وفهماً وتفسيراً وتعليماً[٤١]،

---

(٤٠) وكانت في أصلها القبطي تُقرأ كلها ملّحنة.. وإن اقتصر الأمر حالياً على تلحين مقدمات ونهايات البولس (رسائل القديس بولس) والكاثوليكون (رسائل القديسين بطرس ويعقوب ويوحنا ويهوذا) والإبركسيس (سفر الأعمال) والإبقاء على تلحين المزمور والإنجيل. كما تلّحن المزامير والإنجيل وحتى أجزاء العهد القديم وعظات الآباء التي تُقرأ خلال أسبوع الآلام.

(٤١) وبالتالي فهذه الرتبة لاتكون للأطفال. وقد ظل **الدكتور وهيب عطا الله** (المتنيح **الأنبا غريغوريوس** أسقف البحث العلمي) حتى بعد أن صار نائباً لرئيس اللجنة العليا لمدارس الأحد (أي نائباً للبابا)، في هذه الرتبة إلى أن سيم رئيس شمامسة (أرشيدياكون) وهو يختم العقد الرابع من عمره. هكذا كان مستوى القارئ.

وبالتالي فما نراه الآن من هبوط مستوى كثيرين ممن يتقدمون لتلاوة فصول القراءات الكنسية بصورة تثير الأسى[٤٢] يشير إلى وجود مشكلة تحتاج إلى حلٍّ لأن المعاني الحقيقية للقراءات لاتصل إلى السامع، وأن الجزء التعليمي من الليترجية بدأت تتراجع قيمته. وربما احتاج الأمر، في من يُرسمون لهذه الرتبة، أن يجتازوا دورة تأهيلية، تستمر عاماً مثلاً، في دراسة الكتاب وإتقان قراءة الكلمة، كشرط للرسامة على أن يستمر اشتراكهم في اجتماع درس الكتاب بالكنيسة بصورة دائمة.

ولاشك أن التدقيق في اختيار من يقرأون كلمة الله الجديرة بالاحترام والتوقير، ينشر المعرفة والفهم ويشجع المؤمنين على قراءة الكلمة وحفظها، ويستبعد غير المؤهلين من الاقتراب من منبر كلمة الله ويصون لها جلالها ودورها.

(٢) نلاحظ أن ضعف مستوى اللغة العربية بصورة عامة بين المصريين وتراجع القدرة على القراءة الصحيحة، بل وضياع بعض الحروف تماماً من ألسنة العدد الأكبر مثل الثاء (وتنطق س) والذال والظاء (وتنطقان ز) – وربما أيضاً القاف التي تُنطق أقرب إلى الكاف – جعل المؤهلين لقراءة أجزاء الكتاب بعربية صحيحة عملة نادرة. كما أن هذا انعكس أيضاً على قراءة بعض حروف اللغة القبطية المقابلة مثلY ثيتا (فيقال "سيتوطوكوس "بدلاً من "ثيئوطوكوس" مثلاً، و"اسؤواب" بدلاً من "اثؤواب") ، وD ذلتا (فيقال "أزارّياس" بدلاً من "أذاريّاس" أي عزريا، و"زورون" بدلاً من "ذورون" أي قربان)، فضلاً عن غياب حرف Π پي المقابل لحرف P في الإنجليزية – الذي سقط هو الآخر

(٤٢) بل أن كثيراً من الأخطاء اللغوية الفادحة التي تتردد على أفواه القارئين الذين اقتحموا هذه الخدمة دون أن تجد من يصححها – من الكاهن أو رئيس الشمامسة أو كبير المرتلين – في وقتها كي يصحح القارئ نفسه على الفور – صارت تثير الابتسام وربما الضحك، وبعضها تحول إلى نكات للتندر. وهكذا أدى إهمال هذه الرتبة إلى الإساءة إلى كلمة الله، وإلى تراجع الخشوع والاحترام الواجب في بيت الصلاة.

(فيقال " بنشويس" بدلاً من "پنشويس" أي ربنا، "بي نيشتي" بدلاً من "پي نيشتي" أي العظيم، "أبوسطولوس" بدلاً من أپوسطولوس" أي رسول).

والعبء هنا يقع على الكهنة والمعلمين وقادة الشمامسة وخدام مدارس الأحد لتعليم اللغة القبطية واستمرار التدريب على القراءة الصحيحة. وقد يكون من المفيد أن يُحدد مسبقاً من سيقوم بالقراءة في خدمة القداس التالية كي يستعد لها قبل يوم الخدمة.

(**٣**) إن **العظة** أي تفسير القراءات (خاصة فصل الإنجيل) واستخراج التعاليم منها لفائدة المؤمنين الروحية وحثّهم على السلوك بحسب وصايا الله ليست أمراً ثانوياً يمكن إغفاله كلية، أو أن يُؤدّي دون إعداد كاف كأنه ملءُ فراغ.

والعظة إن أُحسن تناولها ونَعِمت بمساندة الروح، واستعد الواعظ مسبقّاً لها بكل وسيلة متاحة: بالقراءة المتعمقة والاستعانة بكتب التفسير والصلاة التي تسأل معونة الروح، وإلزام النفس أولاً بكل تعليم قبل أن يُطالب به الشعب، مع استلهام أحوال الشعب وأحداث الحياة لكي يصير التعليم عملياً قابلاً للتطبيق مناسباً لظروف السامعين لا تجريدياً منفصلاً عن واقع الناس، تصبح العظة عندها سبباً للتعزية والفرح والفائدة الروحية وتغيير نهج الحياة إلى الأفضل.

أما الذين يهدرون وقت العظة بأقوال مرسلة تأتيهم عفو الخاطر وهم يلتقطون آية من هنا وفكرة من هناك، وقد يحاولون مزج ما يقولون ببعض المرح لإرضاء الناس وتسليتهم وانتزاع الضحك منهم، فهؤلاء دون قصد يحتقرون كلمة الله ويهينون الموقع الجليل الذي يقفون فيه: موقع التعليم وخدمة السيد، ويسيئون إلى شعبهم بإضعافهم روحياً وتعميق غربتهم عن كلمة الله. وإذا استمروا على نهجهم هذا إلى النهاية فسوف يتعرّضون بالقطع لغضب السيد المكتوب عنه "**غيرة بيتك أكلتني**" (مز ٦٩:٩، يو ٢:١٧).

❋ ❋ ❋

إن الله يتصل بخليقته بكل وسيلة وإذا كان للخالق علاقته بالسموات والأفلاك (مز ١:١٩) والأنهار (مز ٣:٩٣، ٨:٩٨) والجبال (مز ١:٨٧، ١:١٢١، إش ١٢:٥٥) وطيور السماء (مت٢٦:٦ ، لو٦:١٢) وزنابق وعشب الحقل (مت ٢٨:٦-٣٠)، فعلاقته أوثق بالبشر الذين هم الأفضل (مت ٢٦:٦)، وهم من أعطاهم أن يتسلطوا على سائر مخلوقاته (تك١:٢٨)، والذين جبلهم على صورة ابنه الذي تجسد في ملء الزمان وصار إنساناً مثلهم (غل ٤:٤، ٥، ١تى ٣:١٦).

فأعظم أعمالنا أن نسبّح خالقنا [٤٣]. هذا متاح حتى لمن فقدوا نعمة الكلام "مترنمين ومرتلين في **قلوبكم** للرب" (أف ٥:١٩) أو البصر أو السمع. ومن يتمتعون بحواسهم ونالوا نعمة التعليم فليصلوا ويرنموا "**أعلى أحد مشقات فليصل. أمسرور أحد فليرتل**" (يع ٥:١٣) ويقرأوا كلمة الله "**وفي ناموسه يلهج نهاراً وليلاً**" (مز ١:١٢) ويدرسوها أو يستمعوا إليها (إش ١:٢)، وفي كل الحالات يطيعونها ويلتزمون بها ويبشرون بها بكل طريق.

فلنشكر الله على اللغة والكلمات، فبها كلمَنا الله وبها نتكلم معه مسبّحين.

(٤٣) وأن يكون قصدنا مجده في كل أنشطتنا وخدمتنا.

القـــداس الإلـــهي
..السماء علي الأرض

هناك سؤال يتردد بين الحين والحين من منتظمين في حضور **القداس الإلهي** في كنائسنا أنهم يجدون صعوبة في ربط أجزائه، وفهم كل ما يجري أمامهم مـــن صلوات وطقوس.

ونحن هنا نحاول أن نرسم الخطوط العريضة للقداس بصورة مركـــزة بمـــا يساعد علي استيعاب هذه الخدمة ونوال بركتها العظمي.

القداس في أساسه هو إعادة حقيقية **لسر الشكر** كما رسمـــه الـــرب يـــوم الخميس ليلة الآلام، وعلاقته بالصليب لا تحتاج إلى بيان. ولأنه مركز العبادة في الكنيسة ووسيلة الثبوت في المسيح لغفران الخطايا ونوال الحياة الأبدية فقـــط ارتبط به كثير من الصلوات والتسابيح، وصار أيضاً مجالاً للتعليم الروحي وفهم العقيدة للكبار والصغار، ويتكامل معه بناء الكنيسة ووضع صـــور التلاميـــذ والقديسين وتذكارات الآباء باعتبارهم الشهود الأحياء الحاضرين القداس مـــع أعضاء الكنيسة المجاهدة.

ويسبق القداس **صلاة عشية** في الليلة السابقة، **وصلاة باكر** في الساعات الأولى من اليوم.

ويخدم **القداس** عدد من الكتب للصلاة والتعليم والتسبيح والتأمل هي :

(١) الخولاجي المقدس؛

(٢) كتاب صلوات السواعي (الأجبية)؛

(٣) كتاب التسبحة (السنوية والكيهكية). وكلها تتكامل معاً.

(٤) كتاب القراءات الكنسية (القطمارس) ويشمل :

- كتاب قراءات الأيام على مدى السنة القبطية؛
- كتاب قراءات الآحاد على مدى السنة القبطية شهراً شهراً؛
- كتاب قراءات الصوم الكبير؛
- كتاب قراءات أسبوع البصخة؛
- كتاب قراءات الخماسين.

وتتضمن قراءات كل يوم إنجيلاً ومزموراً لكل من العشية وباكر والقداس فضلاً عن فصول من إحدى رسائل القديس بولس **(البولس)** وإحدى الرسائل الجامعة **(الكاثوليكون)** (وهي رسائل القديسين يعقوب وبطرس ويوحنا ويهوذا)، وفصلاً من سفر أعمال الرسل **(الابركسيس)** يليه قراءة من كتاب **السنكسار**، وهو تاريخ أحوال الكنيسة وآبائها وقديسيها وشهدائها وأعيادها على كل يوم من أيام السنة القبطية.

وتشمل قراءات **الصوم الكبير والبصخة** أجزاء مختارة من **العهد القديم** (غير المزامير). وهناك دراسات كثيرة عن نظام القراءات الكنسية والموضوع الذي يربط بينها في كل يوم أو في كل أحد أو في كل فترة.

صلاة عشية وباكر

وتبدأ **صلاة عشية** كما في الأجبية **بصلاة الغروب والنوم**، وتقال **الأواشي** (أي الطلبات) الخاصة، ثم يليها أجزاء من **التسبحة** الخاصة باليوم بألحانها المتميزة، وقانون الإيمان، وأوشية الإنجيل، ثم مزمور وإنجيل العشية، وتُختم، وبعدها يُبدأ في **صلاة نصف الليل** التي يعقبها **صلاة باكر** التي تتبع النهج السابق وتتضمن مزمور وإنجيل باكر.

صلاة القداس

يبدأ القداس **بتقدمة الحمل** (الصلاة التمهيدية على القربان والخمر)، ويليه **قراءات اليوم** والعظة التي تختم الجزء التعليمي، وبها ينتهي القداس الذي كان يسمى **قداس الموعوظين** الذين كانوا يُهيَّئون لدخول الإيمان في بدايات حياة الكنيسة. ويبدأ **قداس المؤمنين** بالقبلة المقدسة، والصلوات الأولى منه تحفل بالتسبيح والتأمل في مجد الله الذي لا يُستقصى مع مشاركة الملائكة في ترتيلهم : قدوس... قدوس (إش ٦:٣ ، رؤ٨: ٤)، وتمهيداً لصلوات **سر الشكر** بعرض قصة الخطية والخلاص وتجسد ابن الله، وبذله نفسه فداء عنا وموته وقيامته ومجيئه الثاني.

ثم يمسك الكاهن بالخبز والكأس ويستعيد أحداث تأسيس سر التناول، وبعدها يهتف الشعب مؤمّنين على كلام الرب **أنه في كل مرة يشتركون في سر التناول (الافخارستيا) يبشرون بموت الرب ويعترفون بقيامته وصعوده وينتظرون مجيئه الثاني.**

وهنا تذكر الكنيسة قديسيها الذين تثق أنهم أحياء وأنهم مشاركون معهم في الصلاة، كما تصلي من أجل المنتقلين. **ثم تسجد الكنيسة إكراماً للجسد والدم الأقدسين**، وتبدأ في التناول مصحوباً بالتسبيح والتهليل (**ألحان التوزيع** التي تتغير حسب المناسبات الكنسية).

وسنلاحظ أن **صلاة القداس هي شركة بين الكاهن والشمامسة والشعب** ولا تقوم بغياب الكاهن أو الشعب. فالكاهن يصلي والشعب يرد مشاركاً.. وكل كنيسة من الكنائس الرسولية تستخدم ألحانها الخاصة لتنشيط الصلاة وتشجيع مشاركة الجميع في الصلاة وحفظها.

فنصوص القداسات هي تقريباً واحدة في كل الكنائس الرسولية، ولكن ما يختلف هو الطقوس، أو شكل الكنيسة، أو الألحان أو الأدوات الموسيقية، أو اللغة. وبعض الكنائس استغنت عن الألحان بشكل كبير وصار القداس حواراً بغير لحن.

ملاحظات هامة

سيكون مفيداً بالطبع الاستعانة بكتاب **الخولاجي المقدس**، وكتب **تفسير القداس** وهي متوافرة، **وكلما انحصر ذهن المؤمن في صلاة القداس بالروح، وطرح عنه كل هموم الحياة ومشاغلها، مشاركاً بالتسبيح، وحريصاً على الحضور المبكر المنتظم، ومتابعاً لما يسمع ويرى، ومستعداً تائباً، ومتقدماً خاشعاً للمائدة المقدسة، كلما نمت أُلفَتُه مع القداس، وزاد فهمه ورقت مشاعره الروحية، فيدرك في كل مرة حضور المسيح وحلول الروح، وانفتاح السماء على الأرض، وحدة الماضي والحاضر والأبدية، ويصير حضور القداس نبعاً للسلام والفرح، ونمواً للإيمان، وغلبة لكل آلام الزمان الحاضر.**

بين السبت والأحد

يوم الرب هو يوم العبادة "**اذكر يوم السبت لتقدسه، ستة أيام تعمل... وأما اليوم السابع ففيه سبت (راحة) للرب إلهك**" (خر٢٠:٨-١٠). وظَل يوم السبت قروناً كيوم العبادة. والسؤال هو : **لماذا استبدل يوم الأحد بيوم السبت كيوم العبادة فى العهد الجديد؟**

للإجابة عن هذا السؤال يلزم أن نعود إلى البدايات.

+ فالكتاب المقدس يذكر أن "**الله بارك اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقاً**" (تك ٢ : ٣).

والمقصود باستراحة الله فى اليوم السابع ليس أنه كفّ عن العمل، **فعمل الله لا ولم ولن يتوقف "أبى يعمل حتى الآن وأنا أعمل"** (يو ٥ : ١٧)، وإنما هو الانتهاء من مرحلة الخلق وبثّ الحياة فى الكون، ولكن هيمنة الله ورعايته لكل ما أوجده تظل قائمة ومستمرة " **لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد** "(أع ١٧ : ٢٨)، فالله أصل الحياة وسر الوجود ومصدر كل طاقة فى الكون.

واليوم السابع يختلف عن باقى الأيام، فلم يقترن ذكره "بمساء وصباح" كسائر أيام الخليقة الستة، وهذا يعنى أنه **تام فى ذاته ولا نهاية له وخارج عن الزمن**، ومن هنا فهو **يرمز إلى الراحة الأبدية** [التى يمثلها اليوم الجديد – الأحد].

+ وقد فُرض السبت على بنى إسرائيل لأول مرة عندما أعطى الله المنّ فى البرية **"غداً عطلة سبت مقدس للرب**. ستة أيام تلتقطونه (المنّ) وأما **اليوم السابع ففيه سبت** (راحة) لا يوجد فيه.. **فاستراح الشعب فى اليوم السابع"** (خر ١٦ : ٢٣، ٢٦، ٣٠).

+ ثم كانت وصية حفظ السبت وتقديسه لبنى إسرائيل، وهى **الوصية الثالثة** من **الوصايا العشر** التى تسلمها موسى من الله على جبل سيناء **"اذكر يوم السبت** لتقدسه. ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما **اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك. لا تصنع عملاً ما**.. لأن فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها **واستراح فى اليوم السابع لذلك بارك الله يوم السبت وقدّسه"**(خر ٢٠ : ٨ – ١٢).

فالسبت إذاً هو يوم راحة من أعمال الإنسان ليكون يوم عمل لحساب الله. وتقديسه يعنى تخصيصه لعمل الله، وإن كان لم يُدع أبداً "يوم الرب" الذى كان فقط رمزاً له.

+ بمضى القرون تحوّل السبت عند بنى إسرائيل ليكون يوم سكون تتوقف فيه الأعمال والأسفار والأحمال. وربما سُمح بأسفار قصيرة (سفر سبت – أع ١ : ١٢) وأحمال خفيفة، ولكن حُرمت كل الأعمال حتى تلك التى تهدف إلى عمل الخير، **بما ابتعد بالسبت عن قصد الله بتقديسه لحسابه**. وهذا ما لاحظه الرب وانتقده، وتعمد أن يصنع بعض المعجزات فى السبوت (مت١٢ : ١٠ – ١٣، مر٣ : ١– ٥، لو ١٣ : ١٠ – ١٧، ١٤ : ١ – ٦، يو ٥ : ١ – ١٨، يو ٩)

مؤكداً إنه "**يحل فعل الخير فى السبوت**" (مت ١٢ : ١٢) وأن "**السبت إنما جعل لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت إذ أن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً**" (مر ٢ : ٢٧، ٢٨) وإنه "**أعظم من الهيكل**" (مت١٢ : ٦، ٧).

+ وجاء انشقاق حجاب الهيكل (مت ٢٧ : ٥١، مر ١٥ : ٣٨، لو ٢٨ : ٤٥) وخرابه كله فيما بعد - تحقيقاً لما تنبأ به الرب قبل صليبه (مت ٢٣ : ٣٨، ٢٤: ٢) – **إعلاناً عن انتهاء عهد الله القديم** وما يتعلق به من منظومة الطقوس اليهودية "**لسنا بعد تحت الناموس بل تحت النعمة**" (رو ٦ : ١٤). كما جاءت ذبيحة المسيح الكفارية **وسر الإفخارستيا** لتصير الحقيقة الجديدة التى أبطلت **الذبائح الرمزية القديمة، وكهنوت المسيح الملوكى** ليبطل **الكهنوت اللاوى، والمعمودية بالماء والروح** لتحل محل **الختان الجسدى** (رغم كونه علامة عهد فى القديم - تك ١٧ : ٩ - ١١) "**فى المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة بل الإيمان العامل بالمحبة**" (غل ٥ : ٦).

+ **ثم جاءت قيامة الرب** - التى أكملت عمل الصليب والموت - **يوم الأحد** (مت ٢٨ : ١، مر ١٦ : ٩)، فأدخلت فى حياة الكنيسة يوماً جديداً لتقديسه، فإذا كان **السبت** (**اليوم السابع**) **هو يوم الراحة** الذى طلب الرب تقديسه، **فالأحد** (**اليوم الأول أو الثامن**) **هو "يوم الرب"** (رؤ ١ : ١٠) "**هذا هو اليوم الذى صنعه الرب نبتهج ونفرح فيه**" (مز ١١٨ : ٢٤)، **وهو اليوم الذى يشير إلى الراحة الحقيقية** (**السبت الحقيقى**) **التى يدخلها كل من يؤمن بالابن مخلصاً وحيداً، بالإنقاذ من الموت الأبدى والتحرر من الخطية وتحقيق قصد الله الأزلى فى أن يوجد الإنسان ولا يموت بل "يحيا إلى الأبد"** (تك ٣ : ٢٢). فهو يوم العودة إلى الملكوت **وتحقيق الخليقة الجديدة. وهو كاليوم السابع – خارج الزمن بارتباطه المباشر بالحياة الأبدية.**

+ هكذا صار **الأحد** – منذ تأسيس الكنيسة - **يوم الرب** : يوماً للعبادة واحتفالاً أسبوعياً بيوم القيامة ولاجتماع الكنيسة حول الجسد والدم وانفتاح

الأرض على السماء واتصالاً دائماً واشتراكاً مسبقاً فى الفرح الأبدى ونحن لازلنا فى الجسد.

وأُبطلت الفروض الناموسية بما فيها الموقع الأثير ليوم السبت "فلا يحكم عليكم أحد فى أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال **أو سبت التى هى ظل الأمور العتيدة**" (كو ٢ : ١٦ - ١٧) فكلها ظلال أو أشباه أو رموز للأمور العتيدة الدائمة.

وحتى فى الأمور التى شدّد عليها مجمع أورشليم الأول (٥١م) لم يأت ذكر لحفظ السبت (أع١٥:١٨) كما أكد مجمع نيقية (٣٢٥م) على إبطال السبت بمعناه القديم.

ولا ينفرد **الأحد** فقط بأنه **يوم القيامة المجيدة، والخليقة الجديدة**، ولكنه أيضاً **يوم كثير من ظهورات الرب** بعد القيامة (لو٢٤:٣٦، ١٥، يو٢٠:١٩، ٢٦)، **ويوم حلول الروح القدس** (موعد الآب) وتأسيس الكنيسة الجديدة - مملكة المسيح على الأرض (أع ٢)-، وهو **اليوم الذى شهد فيه القديس يوحنا رؤياه** عن الأيام الأخيرة "**كنت فى الروح فى يوم الرب**" (رؤ١:١٠).

+ ورغم انفراد يوم **الأحد** بأنه "**يوم الرب**" لما يمثّله من الثقل الروحى كيوم للخلاص وإتمام قصة الله مع الإنسان، وما يرمز إليه كاليوم **الأول** (أو **الثامن**) بين أيام الأسبوع، **إلا أن كل الأيام تبقى لله واهب الحياة والخلاص**. وهكذا تتواصل الصلاة فى الكنيسة وترفع الإفخارستيا كل أيام السنة (عدا أربعة أيام من أسبوع الآلام). ومن هنا رتبت الكنيسة قراءات الكتاب المقدس فى الصلوات الكنسية لكل يوم من أيام السنة.

+ نعم، لقد **صار للأحد الدور المحورى فى العبادة الكنسية**، ولكن ظلت الكنيسة توقّر يوم **السبت** وحفظت له قيمته كيوم أمر الرب بتقديسه فى مرحلة ما كيوم راحة لم يتمتع بها أحد فى العهد القديم بسبب الخطية، فظل فى الكنيسة **يوماً احتفالياً تمهيدياً للعبادة** فى يوم **الأحد** (صلاة عشية)، ولا يجوز فيه

- كالأحد - الصوم الانقطاعى والميطانيات (عدا يوم سبت النور الذى كان فيه الرب فى القبر).

+ بالمقارنة - إذاً - **يتفوق الأحد على السبت** بمقدار تفوق **العهد الجديد (النعمة)** على **العهد القديم (الناموس)** :

فإذا كان السبت قد جُعل يوماً لراحة لم يتمتع بها أحد على الأرض، ورمزاً لراحة حقيقية تتحقق فى ملء الزمان، وبالنسبة للمسيح اليوم الذى احتواه القبر ميتاً، فإن الأحد هو "يوم الرب" الذى تمجد بقيامة المسيح وانتصاره، وهو الحقيقة المتعلقة بالأبدية، ففيه تم الخلاص الذى به فتحت أبواب الملكوت ليعود الإنسان من جديد إلى بيته الأبدى.

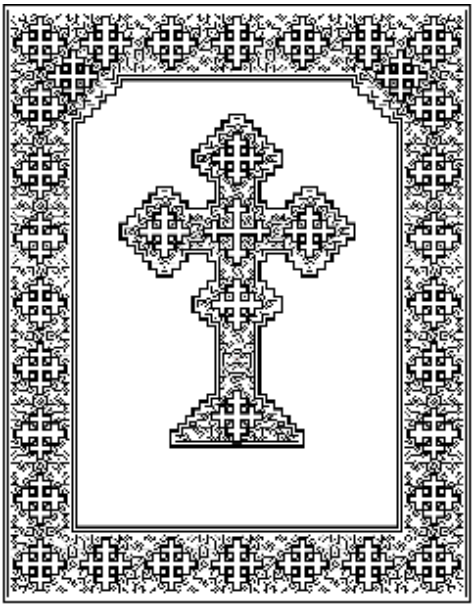

الناموس والأنبياء وعهد النعمة

نحن نعرف أن للناموس دوره فى الإعداد لمجئ المسيا، وكما يقول القديس بولس "**كان الناموس مؤدبنا إلى المسيح لكى نتبرر بالإيمان، ولكن بعد ما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدب لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع**" (غل ٣ : ٢٤، ٢٥).

والسؤال الآن: ماذا يبقى، وماذا تم تجاوزه من الناموس وكتب أنبياء العهد القديم؟ والجواب باختصار شديد:

(أ) الذى يبقى دون تغيير من العهد القديم:

+ **التاريخ الإنسانى** وقصته مع الله، فهذه حقائق لا تسقط بالتقادم.

+ **عهود الله ومواعيده،** ورعايته للإنسان منذ بداية الزمان وتدبيره للخلاص بعد السقوط.

+ **أبطال الإيمان** : بجانب نماذج الضعف البشرى التى يذكرها العهد القديم ولا يخفيها، فهناك النماذج المشرقة وأبطال الإيمان (راجع عب ١١) الذين صدقوا المواعيد من بعيد وماتوا على رجاء القيامة من الأموات، وصاروا قدوة فى الإيمان والتوبة والعبادة وطاعة الله.

+ **النبوات ورؤى المستقبل، وشهادة العهد القديم عن المسيح** : داود، إشعياء، أرميا، حزقيال، دانيال، والأنبياء الصغار "**فتشوا الكتب لأنكم تظنون إن لكم فيها حياة أبدية. وهى تشهد لى**" (يو ٥ : ٣٩).

+ **روحانيته وحكمته** : المزامير، الأمثال، الجامعة، أيوب.

+ **ما كشف عن كمال العهد الجديد** ومحبة الله وسخائه فى العطاء حتى التجسد والموت.

(ب) والذى تم تجاوزه

+ **انحصار عهد الله فى شعب معين** بعد تمام التدبير بمجئ المخلص "وتكونون لى شهوداً فى أورشليم وفى اليهودية والسامرة **وإلى أقصى الأرض**" (أع ١ : ٨). "وقال لهم اذهبوا وتلمذوا **جميع الأمم وعمدوهم** باسم الآب والابن والروح القدس" (مت ٢٨ : ١٩).. "وقال لهم اذهبوا **إلى العالم أجمع** واكرزوا بالإنجيل **للخليقة كلها**" (مر ١٦ : ١٥)."وأن يكرز باسمه **بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم**" (لو ٢٤ : ٤٧).

+ **الرموز** (الذبائح، الخيمة والهيكل، الختان)، فبعد الفداء بالصليب وبعد القيامة صار المسيح الفصح الجديد "لأن **فصحنا أيضاً المسيح** قد ذبح لأجلنا" (١كو ٥ : ٧)، وجسده الهيكل الحقيقى "مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية الذى فيه كل البناء مركباً معاً **ينمو هيكلاً مقدساً فى الرب**" (أف ٢ : ٢، ٢١)، **وحل ختان المسيح** (**أى**

المعمودية: خلع جسم خطايا البشرية) مكان ختان العهد القديم "**وبه أيضاً ختنتم ختاناً غير مصنوع بيد بخلع جسم خطايا البشرية بختان المسيح** مدفونين معه فى المعمودية التى فيها أقمتم أيضاً معه بإيمان عمل الله الذى أقامه من الأموات" (كو ٢ : ١١، ١٢).

+ **العقوبات الفورية بالإهلاك** "فلما رأى ذلك تلميذاه يعقوب ويوحنا قالا يارب أتريد أن نقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل إيليا أيضاً. فالتفت وانتهرهما وقال لستما تعلمان من روح أنتما. لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص" (لو ٩ : ٥٤ – ٥٦)، **وذلك لحلول عهد النعمة والغفران** "ولا يعلّمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب لأنهم كلهم سيعرفوننى من صغيرهم إلى كبيرهم يقول الرب. **لأنى أصفح عن كل أثمهم ولا اذكر خطيتهم بعد**" (إر ٣١ : ٣٤) بعد أن رفع المسيح بدمه الصك الذى كان علينا "**إذا محا الصك الذى علينا** فى الفرائض الذى كان ضداً لنا وقد رفعه من الوسط **مسمراً إياه بالصليب.** إذ جرد الرياسات والسلاطين أشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه" (كو ٢ : ١٤، ١٥).

+ **الالتزام باليوم السابع** (السبت : الانتهاء من عمل الخليقة المادية) **كيوم الراحة** (السبت بالمعنى الروحى) **واستبدل به اليوم الأول** (**الأحد**) يوم دخولنا بالمسيح إلى الراحة الحقيقية بقيامة ابن الله وانتصاره على الموت والخطية وإبليس والعالم "لأننا نحن المؤمنين ندخل الراحة كما قال حتى أقسمت فى غضبى لن يدخلوا راحتى مع كون الأعمال قد أُكمِلَت منذ تأسيس العالم. لأنه قال فى موضع عن السابع هكذا **واستراح الله فى اليوم السابع من جميع أعماله.** وفى هذا أيضاً لن يدخلوا راحتى" (عب ٤ : ٣ – ٥).

+ **حرفية الناموس وحدوده القديمة** "لا تظنوا إنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. **ما جئت لأنقض بل لأكمل** فإنى الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل. فمن

نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلَّم الناس هكذا يُدعى أصغر فى ملكوت السماوات. **وأما من عمل وعلَّم فهذا يدعى عظيماً فى ملكوت السموات.** فإنى أقول لكم إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات" (مت ٥ : ١٧ – ٤٨)، وتكميل الناموس بشريعة المحبة : " لا تكونوا مديونين لأحد بشئ إلا بأن يحب بعضكم بعضاً. **لأن من أحب غيره فقد أكمل الناموس.** لأنه لا تزن لا تقتل لا تسرق لا تشهد بالزور لا تشته وإن كانت وصية أخرى هى مجموعة فى هذه الكلمة أن تحب قريبك كنفسك. **المحبة لا تصنع شراً للقريب. فالمحبة هى تكميل الناموس"** (رو ١٣ : ٨ – ١٠)، وهى الوصية الجديدة المتوافقة مع عهد النعمة "فإن الخطية لن تسودكم **لأنكم لستم تحت الناموس بل تحت النعمة"** (رو ٦ : ١٤).

+ **نجاسة الأشياء والمواد، وصارت النجاسة هى تلوُّث النفس بالخطية** "كل شئ طاهر للطاهرين وأما للنجسين وغير المؤمنين فليس شئ طاهراً بل قد تنجس ذهنهم أيضاً وضميرهم" (تى ١ : ١٥)، "ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان بل **ما يخرج من الفم هذا ينجس الإنسان"** (مت ١٥ : ١١)، "فقال بطرس كلا يارب لأنى لم آكل قط شيئاً دنساً أو نجساً. فصار إليه صوت ثانية **ما طهره الله لا تدنسه أنت"** (أع ١٠ : ١٤، ١٥).

+ **الطلاق لأى علة غير الزنى** وذلك **استعادةً لقدسية الزواج** قبل دخول الخطية "إذاً ليسا بعد **اثنين بل جسد واحد. فالذى جمعه الله لا يفرقه إنسان.** قالوا له فلماذا أوصى موسى أن يُعطَى كتاب طلاق فتُطلَقْ. قال لهم أن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم ولكن من البدء لم يكن هكذا" (مت ١٩ : ٦ – ٨)، وسُموًّا به إلى مثله الأعلى : **سر المسيح والكنيسة** "كذلك يجب على الرجال أن **يحبوا نساءهم كأجسادهم.** من يحب امرأته يحب نفسه. فإنه لم يبغض أحد جسده قط بل يقوته ويربيه **كما الرب أيضاً للكنيسة.** لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه. من أجل هذا **يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته**

ويكون الاثنان جسداً واحداً. هذا السر عظيم ولكنى أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة" (أف ٥ : ٢٨ – ٣٢).

(ج) فهل الله يتغير أو يتراجع إذاً؟

.. **حاشا**.. إن **العهد القديم** (العهد الأول) **بطبيعته مرحلى ويهيئ للعهد الجديد**، والإيحاءات عن العهد الجديد مذكورة فى باطن العهد القديم "... هوذا أيام تأتى يقول الرب حين أُكمل مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا **عهداً جديداً**. لا كالعهد الذى عملته مع آبائهم يوم أمسكت بيدهم لأخرجهم من أرض مصر لأنهم لم يثبتوا فى عهدى وأنا أهملتهم يقول الرب. لأن **هذا هو العهد** الذى أَعهده مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب **أجعل نواميسى فى أذهانكم وأكتبها على قلوبهم وأنا أكون لهم إلهاً وهم يكونون لى شعباً**. ولا يعلّمون كل واحد قريبه وكل واحد أخاه قائلاً أعرف الرب، لأن الجميع سيعرفوننى من صغيرهم إلى كبيرهم. لأنى أكون صفوحاً عن آثامهم ولا أذكر خطاياهم وتعدياتهم فيما بعد. فإذا قال **جديداً** عتق الأول. وأما ما عتق وشاخ فهو قريب من الاضمحلال" (إر٣١: ٣١-٣٤، عب ٨ : ٨ – ١٣).

والإنسان احتاج لهذا الأعداد الطويل لكى يتقبل **العهد الجديد وخلاص المسيح.. ولكن تجاوز العهد القديم لا يعنى نسخه، ولكنه يعنى أن العهد الجديد امتد بعده (الميل الثانى) فالالتزام بالعهد القديم وحده نكوص وعودة إلى الناقص، والالتزام بالعهد الجديد وحده غير منطقى لأنه امتداد للعهد القديم وتحقيق لنبواته وخاتمة للبداية الأولى**.. والسيد المسيح لم يتجاهل العهد القديم **بل استكمله** وأشار إليه واقتبس منه (مكتوب...) وطلب أن نفتشه لأنه يشهد له "**فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية. وهى التى تشهد لى**" (يو ٥ : ٣٩)، وكذلك اقتبس منه كتبة الأناجيل والرسائل والرؤيا.

وإرسال **يوحنا المعمدان** سابقاً للمسيح، ومبشراً به، وشاهداً على كماله وسموّه "وفى الغد نظر يوحنا يسوع مقبلاً إليه فقال **هوذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم** هذا الذى قلت عنه يأتى بعدى رجل صار قدامى لأنه كان قبلى. وأنا لم أكن أعرفه.. **وشهد يوحنا قائلاً إنى قد رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه**. وأنا لم أكن أعرفه. ولكن الذى أرسلنى **لأعمد بالماء ذاك قال لى الذى ترى الروح نازلاً ومستقراً فهذا الذى يعمد بالروح القدس وأنا قد رأيت وشهدت إن هذا هو ابن الله**" (يو ١: ٢٩ – ٣٤) هو آخر شهادات العهد القديم للمخلص الموعود به، **كما شهد السيد المسيح أيضاً ليوحنا** آخر أنبياء العهد القديم "وبينما ذهب هذان ابتدأ يسوع يقول للجموع عن يوحنا.. **الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان**. ولكن الأصغر فى ملكوت السموات أعظم منه" (مت ١١ : ٧ – ١١).

وفى تجلى المسيح على جبل طابور ظهر إلي جانبيه **موسى وإيليا (رمزا الناموس والأنبياء)** يشهدان له إعلاناً على عضويتهما فى ملكوت المسيح مع سائر مؤمنى العهد القديم.

إن **الكتاب المقدس** كله وحدة واحدة بوحدة الموحى به، وبوحدة العلاقة بين الله والإنسان، وبوحدة المخلص الذى فدى الإنسان فى العهدين، وبوحدة الملكوت الذى سينتهى إليه جميع المؤمنين من آدم إلى آخر الدهور.

"هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت. له اسمعوا" (مت ١٧:٥)

٢

قضية المؤمن والكنيسة

+ الانتماء للكنيسة، مسئولية مشتركة بين الكنيسة والمؤمن
+ الكنائس التقليدية ورياح التغيير

الانتماء للكنيسة

مسئولية مشتركة بين الكنيسة والمؤمن

هل انتماء المؤمن للكنيسة أمر حتمي؟ ألا يمكن أن يمارس المؤمن إيمانه بالمسيح مستقلاً دون أن يكون منتمياً إلى الكنيسة.. أية كنيسة؟

إن المسيحية تتميز بأنها عقيدة شخصية، أي أن الإيمان المسيحي هو تعبير عن علاقة عضوية مباشرة بين المؤمن والمسيح، فلماذا يصير المؤمن عضواً ضمن جماعة المؤمنين؟

في الحقيقة إنه لا توجد ثنائية هنا: أي علاقة فردية مع المسيح وعلاقة ضمن الكنيسة جسد المسيح. فالعلاقتان متكاملتان كوجهي العملة، ففي اللحظة التي يصير فيها إنسان للمسيح بالإيمان، يصير بالضرورة عضواً في الكنيسة.

ومكتوب عن المؤمنين الأوائل "**وكان الرب كل يوم يضم إلى الكنيسة الذين يخلصون**" (أع٢:٤٧) فمن ينال الخلاص ينضم تلقائياً إلى الكنيسة.

والآيات المختارة التالية تلقي الضوء على هذه العلاقة المزدوجة:

"**وهو** (أي المسيح) **رأس الجسد الكنيسة... الذي صرت أنا بولس خادماً له، الذي الآن أفرح في آلامي لأجلكم وأكمل نقائص شدائد المسيح في جسمي لأجل جسده الذي هو الكنيسة**" (كو١:٢٣، ١٨، ٢٤)؛

"**وأما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً**" (١كو١٢:٢٧)؛

"**المسيح أيضاً رأس الكنيسة... وهو مخلص الجسد... تخضع الكنيسة للمسيح.. كما أحب المسيح الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها لكي يقدسها مطهراً إياها بغسل الماء بالكلمة... لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه**" (أف ٥:٢٣-٣٠).

فإذا كان الله أبانا فالكنيسة أمّنا. والمسيح أحب الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها كما يحب الرجال نساءهم. وكما أن الرجل رأس المرأة فالمسيح أيضاً هو رأس الكنيسة، وكما تخضع المرأة للرجل فالكنيسة تخضع للمسيح (أف ٥:٢٤).

الكنيسة هي نحن، جسد المسيح، وكل فرد منا عضو في هذا الجسد.

المسيح (الرجل) التصق بالكنيسة (امرأته) وصار الاثنان جسداً واحداً، فليس غريباً أن نقول إننا أعضاء الكنيسة، رجالاً ونساءً "**أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه**" (أف ٥:٣٠)، وإن "**هذا السر عظيم**" (أف ٥:٣٢).

وعلى المستوى اللاهوتي: فالروح القدس يوحدنا في المسيح **بالمعمودية** بشركة الموت والدفن والقيامة (رو ٦:٣-٥)، وتكريس الكيان والأعضاء له **بالميرون**. أي أننا نولد جميعاً من بطن واحدة وننتمي إلى أم واحدة وأب واحد (**أبانا الذي في السموات** — مت ٦:٩، لو١١:٢).

ونحن **بالتناول** من جسد المسيح ودمه نتحد بالمسيح ونثبت فيه ويثبت فينا (يو٦:٥٦) على مستوى لا تُسبر أغواره اللاهوتية.

وعلى مستوى الإنجيل، فأنا متحد بقريبي في المسيح (في الجسد الواحد). ووصية المحبة (**تحب قريبك كنفسك** – لا١٩:١٨، مت ٢٢:٣٩، مر١٢:٣١، لو١٠:٢٧) تجعلني ملتزماً به بل ومسئولاً عنه. **وبالتالي فبرغم أنه لابد أن تكون لي بالمسيح علاقة على المستوى الشخصي (فالإيمان بالمسيح يقتضي هذه العلاقة) ولكن من المستحيل مسيحياً أن أحيا مستقلاً عن سائر المؤمنين لأن المسيح الواحد يجمعنا كلنا فيه**[1].

أولاً : نحن والكنيسة

إن استمرار حياتنا في المسيح مشروط باستمرار علاقتنا بالكنيسة (والعكس طبعاً حتمي، فعضو الكنيسة الحي يحيا بالقطع إيماناً حياً في المسيح يسوع).

فبعد **المعمودية والميرون**، تأتي **التوبة** المتجددة **والاعتراف** للاشتراك المتواتر في مائدة الرب حيث يجتمع ويتوحد كل أعضاء الكنيسة. كما أن الكنيسة هي المسئولة عن إجراء **سر الزيجة** الذي به تمتد الكنيسة بميلاد أعضاء جدد للحياة الأبدية. وهذه كلها ليست إبداعات بشرية وإنما هي ترتيب إلهي.

إن حاجتنا كمؤمنين إلى الكنيسة بكل معانيها (جسد المسيح – جماعة المؤمنين المعيّنة – بيت الرب – كنيسة البيت – الآباء الرعاة والخدام) هي أساسية ولا تخفي على أحد:

---

(١) ارتباط المؤمن عضوياً بشخص المسيح وفي نفس الوقت ارتباطه بسائر المؤمنين ضمن الكنيسة يمكن تمثيله بالدائرة : **فمركز الدائرة هو المسيح** المخلص الوحيد ورأس الكنيسة. **ومحيط الدائرة هو مجموع المؤمنين** نقاط متلاصقة (كما هو مفهوم "الخط" في الرياضيات) وكل عضو يلتحم بالآخر **بالإيمان المشترك في المسيح وعمل الأسرار ومحبة القريب، وأنصاف الأقطار الممتدة بين مركز الدائرة (المسيح) وكل نقطة على المحيط (المؤمن) هي العلاقة الإيمانية بين رأس الكنيسة وكل عضو فيها**. وهكذا تنشأ الكنيسة من اتحاد الرأس بالأعضاء والأعضاء بالرأس والأعضاء بعضهم البعض في المسيح.

(١) لأنها مستودع الأسرار المهيئة للخلاص.. وهنا يصدُق القول **"لاخلاص خارج الكنيسة"**، وخدمتها الرئيسية هي إقامة القداس الذي يهيئ للتناول من جسد الرب ودمه الذي "**يعطي عنا خلاصاً وغفراناً للخطايا وحياة أبدية لمن يتناول منه**" كما يهتف الكاهن معترفاً في نهاية كل قداس.

(٢) لأنها بيت الرب الذي تليق به القداسة (مز ٩٣:٥) وهو المكان المكرس للصلاة والعبادة والتسبيح (وتأتي هنا على وجه الخصوص الأديرة وبيوت الخلوة والاعتكاف).

(٣) لأنها مركز الوعظ والتعليم ودراسة كلمة الله والإرشاد الروحي. فالكنيسة هي حافظة وحارسة ومفسرة الكتاب المقدس الذي هو دستور حياة المؤمنين وأساس الإيمان، والكنيسة في الأساس هي التي جمعت أسفار الكتاب وشهدت بصحتها، وهي التي قاومت وتقاوم البدع والهرطقات وهي التي حصرت أساسيات الإيمان في قانون تعترف به كل "الكنائس".

(٤) الكنيسة باحتفالها بأعياد الرب تُذّكرنا بخلاص الرب وحياته، وهي تستحضر لنا الأحداث وتضعنا في خضمّها فنستعيد ما صنعه الرب لأجلنا وهكذا تظل علاقتنا بالرب دافئة نشطة، وإذا لم تكن هناك هذه الترتيبات الكنسية فالأرجح أن تلهينا الأيام ومشاغل الحياة عن الالتفات إلى مصدر حياتنا ومستقبلنا الأبدي. كما أن احتفال الكنيسة بالملائكة والشهداء والقديسين يذكرنا بخدمتهم وجهادهم ويجدد نظرتنا إلى نهاية سيرتهم فنتمثل بإيمانهم (عب١٣:٧) ويؤكد على وحدة الكنيسة المجاهدة هنا مع تلك المنتصرة التي استوطنت الفردوس وأن الله ليس إله أموات بل إله أحياء (مت٢٢:٣٢، مر١٢: ٢٧، لو٢٠:٣٨).

(٥) الوجود وسط جماعة المؤمنين يُنهض ويشجع ويذكّر وينشّط ويحث على الجهاد فالنفوس المتقدمة تلهب حياة الضعفاء والمتكاسلين والفاترين.

(٦) الكنيسة هي مكان العزاء وقت الآلام والضيقات والأحزان وحصار التجارب، وفيها نودع الذين رقدوا على رجاء القيامة وننال تشديداً للإيمان ساعة حضور الموت.

(٧) الكنيسة هي مجال الخدمة المتنوعة (روحية – اجتماعية- اقتصادية) حيث يُمارس إنكار الذات ومحبة القريب ولقاء المسيح في إخوته المحتاجين.

ثانياً : كيف يتحقق وينمو الانتماء للكنيسة

تحقيق ونمو انتماء المؤمن للكنيسة هو مسئولية مشتركة بين المؤمن والكنيسة، لايغني دور أحد الطرفين عن دور الآخر، **ولكننا نضع دور الكنيسة في المقام الأول باعتبار الأهمية واتساع المسئولية:**

(أ) عن دور الكنيسة

ويُقصد بالكنيسة هنا آباؤها (الإكليروس) فهم المكرسون المقدسون (أي المخصصّون) للخدمة، المختارون بنعمة الله والذين يتبعون خطى الراعي الصالح الذي يبذل نفسه عن الخراف (يو١٠: ١١) والذين يتقدمون الصفوف، ويقدمون أنفسهم قدوة لسائر المؤمنين (١تي ٤: ١٢). وهم المنوط بهم تقوية الوشائج مع أعضاء الكنيسة. وعلى قدر ما تبذله الكنيسة لإبقاء العلاقات مع المؤمنين حية نشطة وفاعلة على قدر ما تنمو هذه العلاقات وتمتد جذور الانتماء في تربة الحب. وعلى العكس فالإهمال وعدم المبالاة بالفاترين والمتعثرين وعدم الاهتمام بالملتزمين يطعن روح الانتماء في الصميم، ومن ثم تتفسخ العلاقات مع الكنيسة بمعناها العام والخاص.

+ الكنيسة كيان سماوي على الأرض، والمسيح إذ أحبها "**اقتناها بدمه**" (أع٢٠: ٢٨) "**وأسلم نفسه لأجلها.. لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لادنس فيها ولاغضن أو شئ من مثل ذلك بل تكون مقدسة وبلاعيب**" (أف٥: ٢٥، ٢٧). وفي

علاقتها بإلهها ورأسها هي "**عذراء عفيفة للمسيح**" (٢كو١١:٢). وهي لا تطلب مجد نفسها أو تسعى إلى مجد العالم لتصبح مؤسسة بين مؤسساته، وإنما غايتها مجد "**الذي أحبنا وقد غسّلنا من خطايانا بدمه وجعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه**" (رؤ١:٥، ٦).

من الطبيعي والواجب إذاً أن تحب وترعى وتفتقد وتبالي وتعزي وتشفق وترفق وتسامح وتعفو وتساند وتضحي وتبذل، وتسلك دائماً في النور، ولاتتحالف أبداً مع أهل الظلمة، ولا تحابي أو تميّز، ولا تخاف، ولا تقسو، ولا تكره، ولا تحفل بالمال إلا لإنفاقه على أوجه الخير والاحتياج،ولا تتنازل عن مبادئها عندما تضيق بها السبل، وتظل على ثقتها في الرب رأسها الذي يدافع عنها ويكفيها ويسد عوزها.

+ الكنيسة هي بيت الشفاء من أمراض الخطية (لو٥:٣١) وهي ساحة الغفران والتحرر. والرب هو الطبيب الحقيقي لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا، وهو لايزال كما كان أيام حياته على الأرض "**يجول يصنع خيراً ويشفي جميع المتسلط عليهم إبليس** " (أع ١٠:٣٨).

ومن هنا فإن من أولى مسئوليات الكنيسة إعداد الآباء للتعامل مع اعترافات التائبين (ومن المعروف أن الكاهن لم يكن يمارس سر الاعتراف مباشرة وتلقائياً بعد رسامته وإنما بعد تأهيله ونواله الخبرة اللازمة ومن ثم يحصل على تصريح مكتوب من أسقفه لبدء هذه الخدمة بالغة الأهمية). وقد بدأت بعض الإيبارشيات مؤخراً في عقد دورات لتأهيل كهنتها للاستشارات الروحية والعائلية ومشاكل الشباب والتحليل النفسي، وهذه كلها أدوات هامة في تعامل الكنيسة مع المؤمنين خاصة مع زيادة ضغوط الحياة الاجتماعية والاقتصادية والصحية، وسقوط الحواجز بين المجتمعات بانتشار وسائل الاتصال السريع، وارتفاع معدل التوترات السياسية والتطرف على مستوى العالم شرقاً وغرباً، ولكن يظل عمل الروح القدس وقوة الصلاة والإيمان وموهبة الشفاء

وجدوى التوبة العطية الإلهية التي توفرها الكنيسة لشعبها والتي تتجاوز معطيات الطب النفسي، الذي ينبغي مع هذا الاستفادة من كل الإمكانيات التي يتيحها من أجل خدمة المؤمنين ومواجهة مشاكلهم.

إن رعاية الكنيسة للمؤمنين هي الصخرة التي تتحطم عليها كل مكائد إبليس لإبعاد المؤمن عن الكنيسة وإلهائه عن توبته، وهي في نفس الوقت الوسيلة الفعالة لنمو علاقة المؤمن بكنيسته وتعميق جذورها وهو ما ينعكس إيجابياً على حياته الإيمانية كلها.

(ب) عن دور المؤمن

ثم نأتي إلى **دور المؤمن** في تأكيد انتمائه للكنيسة وتعميق جذوره وأواصره مدى الحياة باعتباره ضرورة حياتية لسلامته الروحية وخلاصه الأبدي. وهذه بعض جوانب مسئوليته :

(**١**) أن يُبقي على حيوية إيمانه بكل أجنحته متوهجة نشطة **بالعبادة الحارة** ومحورها شخص المسيح، **وحفظ كلمة الله** واللهج فيها، ودراستها بتدقيق، **والتوبة النشطة** يساندها الارتباط المنتظم بأب اعتراف مختبر (طوبى لمن يجده) ومرشدين روحيين. فالنفس المؤمنة الحريصة على سلامتها ونموها لا تستغني عن الكنيسة.

(**٢**) ألاّ يصير حضور القداس روتيناً يتم كيفما اتفق، وإنما **أن تنمو في القلب محبة صلاة القداس والاستعداد الروحي للتناول والتبكير في الذهاب إلى الكنيسة**، مع بذل الجهد بحسب الموهبة في حفظ ما يمكن حفظه من ألحانه وصلواته التي تتغير حسب المناسبات الكنسية، **والانتظام في حضور الكنيسة** في كل صلواتها بحسب ما يتاح من الوقت من التسبحة إلى العشيات والقداسات وتسابيح كيهك وصلوات البصخة والأعياد السيدية وأعياد الملائكة والشهداء

والقديسين واحتفالات الكنيسة برأس السنة وأيام النهضات الروحية وغيرها.. مع متابعة ترتيب القراءات (القطمارس) على مدى السنة القبطية.

(٣) **الالتزام بالأصوام الكنسية** دون تهاون باعتبارها نشاطاً روحياً جماعياً يستثير التوبة بما يمهّد للاحتفال بتجسد الرب مولود بيت لحم، أو الابتهاج بقيامة السيد وتحقيق الخلاص أو غيرها من المناسبات الروحية.

(٤) **الاحتفال بالأعياد** وفي مقدمتها عيدا الميلاد والقيامة وسائر الأعياد السيدية وأعياد الصليب والملائكة والشهداء والقديسين والتأمل في أبعادها الروحية وعدم الانحصار في المظاهر الاجتماعية مع أهميتها.

(٥) **الانتظام في الاجتماعات الروحية** كاجتماع الصلاة، اجتماع دراسة الكتاب المقدس، اجتماع الشباب، اجتماع الخدام، فهذا ينعش الحياة الداخلية، ويخفف من ثقل التجارب، ويوثّق العلاقة مع الله ويبعدنا عن تأثير العالم وسهام إبليس.

(٦) **الانخراط في أي نوع من أنواع الخدمة** بحسب الوقت المتاح والخبرة والسن كخدمة الفقراء أو المرضى أو المسنّين أو المناطق العشوائية التي يحاصرها الفقر والجهل والمرض والفساد والإهمال، أو خدمات الكنيسة المتنوعة (مطبوعات – مكتبة – الموسيقى والألحان والكورال – حفلات ... الخ)، أو التدريب والتعليم للطلاب أو العاطلين عن العمل، وغيرها من ألوان الخدمة.

ثالثاً : معوقات الانتماء للكنيسة والتغلب عليها

بالطبع فإن الارتباط بالكنيسة يصادفه كثير من المعوقات من الداخل ومن الخارج، ونعرض هنا لأهمها وكيف نتعامل معها :

(١) عدم الانشغال أصلاً بقضية الخلاص بسبب الارتباط بالعالم والخضوع لشهوات الجسد وتأجيل التوبة، ففي غياب الإيمان لا يصبح هناك معنى للانتماء للكنيسة. وإلى أن تفتقد النعمة، بوسائلها، النفس البعيدة اللاهية وقت التجارب عندما تحاصرها مرارة الحياة وبؤسها فتلجأ إلى المخلص تائبة، هنا تشتد الحاجة إلى الكنيسة. **فالتوبة هي الباب الواسع للولوج إلى الكنيسة سفينة النجاة وبيت الشفاء والفرح** ومن ثم الاندماج مع سائر المؤمنين أعضاء الكنيسة.

(٢) عدم الشعور بأهمية الانتماء للكنيسة أو باتصاله المباشر بالإيمان بالمسيح وذلك بسبب الفهم الخاطئ والتغرب عن كلمة الله. فالكنيسة هي جسد المسيح والمسيح هو رأس الكنيسة، **والإيمان المشترك والافخارستيا يوحّدان كل أعضاء الكنيسة في جسد واحد رأسه المسيح**. المؤمن الحقيقي هو بالضرورة عضو في كنيسة المسيح وسيجتمع مع إخوته في اليوم الأخير ضمن الكنيسة الممجَّدة.

(٣) الخبرات السلبية السابقة في التعامل مع بعض خدام الكنيسة والانشغال بها، وانتقاد الخدام وإدانتهم ربما سعياً لتبرير الأخطاء الذاتية أو إسقاط ما في النفس على الآخرين.

ونقول هنا إن عثرات خدام الكنيسة – على ندرتها – هي بالفعل تضيف إلى جراحات المسيح وتدمّر حياة الكثيرين وتشوه وجه الكنيسة وتهين براءتها، وهي بهجة لعدو الخير وكل الأشرار الذين يسعدهم هلاك الجميع، كما تستغلها وسائل الإعلام في إهالة الغبار على الكنيسة[٣].

(٣) وقد يصل الأمر إلى منّصات القضاء، وفي الغرب تضطر الإيبارشيات لدفع الملايين كتعويضات لمن أساء إليهم خدام بعض الكنائس مهما تقادم الزمن، إضافة إلى الاعتذار العلني وطلب العفو.

ومع أن هذه خطايا بشر ومن الظلم أن تتحملها الكنيسة (رغم مسئوليتها عن متابعة سلوك خدامها ومحاكمة من يخطئ وعزل الخبيث والمنحرف) فإنها من ناحية أخرى تحمّل رجل الدين مسئولية السهر والحذر، وألا يستسهل الخطأ لتبعاته الخطيرة على سلام الكنيسة والمؤمنين. وإن أخطأ فليهرع مندفعاً إلى التوبة، لاجئاً إلى حضن الرب الذي مات من أجل الخطاة، **وعلى المستهتر أن يخشى عقاب رئيس الكهنة العظيم** (عب٤:١٤) **راعي نفوسنا وأسقفها** (١بط٢:٢٥) **قبل قضاة هذا العالم.**

ومع كل هذا، فإن التوقف عند حدود أخطاء الأفراد وتصرفاتهم يتسم بالسطحية، **فالكنيسة جسد المسيح الممتد عبر الأرض وحتى السماء** (من أقاصي المسكونة إلى أقاصيها – أوشية السلامة) **أكبر وأعظم وأنقى ولا يعيبها ضعفات بعض الأفراد وسقوطهم، ويظل دم المسيح كفيلاً بتطهير التائب من كل خطاياه.**

ونضيف أنه ربما كان هناك بالفعل ميل عند البعض لتهويل أخطاء الأسقف والكاهن باعتبارها لا تليق ممن يفترض فيهم أن يكونوا القدوة للمؤمنين، ولكن الرب نبهنا ألا نتعثر من مثل هذه الأخطاء قائلاً **"على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون"** (مت٣،٢٣:٢)، أما قدوتنا فهو الرب نفسه الذي قال **"تعلّموا مني"** (مت ١١:٢٩)، والقديس بولس يعلّمنا **"كونوا متمثلين بي كما أنا أيضاً بالمسيح"** (١كو ١١:١).

(٤) وهناك أيضاً التوقف أمام القصور في بعض الترتيبات الطقسية أو صعوبة بعض الممارسات أو عدم فهمها. ونؤكد هنا **أن الطقس ليس غاية في ذاته** وليس شكلاً مجرداً، وقد لا يدرك البعض معناه، وقد يؤدَّي بصورة آلية

خالية من الروح مما يفقده هدفه وجماله، وهو يحتاج إلى شرح لتمتلئ أذهان المؤمنين بالفهم فالفرح.

(٥) وهناك الحيرة والارتباك أمام اختلاف العقائد وتبادل التعصب بين الطوائف، ويشوّه الانقسام صورة جسد المسيح.

ونقول إن المسيح فوق الانقسامات والطوائف **"هل انقسم المسيح"** (١كو١:١٣) المسيح واحد (يو ١٠:١٦) وبالتالي كنيسته (**كنيستي** – مت١٦:١٨، **كنيسة الله** – أع ٢٠:٢٨، ١كو١٠:٣٢، ١٢:١٢، ١٣، ٢٠) كما يصفها قانون الإيمان الواحد، وكما يشير إليها الكاهن في أوشية السلامة **"كنيسة واحدة** (وحيدة) **مقدسة** (أف ٥:٢٧) **جامعة** (مت ٢٨:١٩، كو ١:٦) **رسولية** (أف ٢:٢٠)". وفي الأبدية ستسقط الحواجز الوهمية بين "الكنائس" ولن يكون هناك مجال لكي تستقل كل "كنيسة" عن الأخرى، **وسيجتمع الكل كنيسة ورعية واحدة حول المسيح الواحد والراعي الواحد ورأس الكنيسة.**

(٦) وهناك ضعف الخدمة، أو تهاونها، أو إسقاطها البعيدين من حساباتها، أو الافتقار إلى الأب الروحي والخادم المتفاني المحب. هذا قصور مؤلم وهلاك يتهدد نفوساً تعيش في الخطر. ولكن مع هذا تبقى التلمذة المباشرة على كلمة الله والكتب الروحية. وكثيرون نالوا نعمة عظيمة من هذا الطريق. والنفوس المخلِصة لابد أن تقودها النعمة إلى مرشد محب وعليها أن تُقبل إليه وتلتزم بإرشاده بطاعة واتضاع.

رابعاً : ملاحظات

(**١**) الانتماء للكنيسة موضوع روحي يتجه مباشرة لشخص المسيح ويتمايز عن التحزب لأشخاص وقادة داخل الكنيسة. هذا كان الحال في كنيسة كورنثوس قديماً ودانه القديس بولس "**أنا لبولس وأنا لأبلوس وأنا لصفا وأنا للمسيح. هل انقسم المسيح. ألعل بولس صلب لأجلكم أم باسم بولس اعتمدتم... لم أعزم أن اعرف شيئاً بينكم إلا يسوع المسيح وإياه مصلوباً**" (١كو١:١٢، ١٣، ٢:٢) "**بل المسيح الكل وفي الكل**" (كو ٣:١١).

(**٢**) الانتماء للكنيسة موضوع إيماني متمايز عن الانتماء الطائفي الذي قد يرتبط بالتعصب وكسر وصية المحبة أي الانسحاب من المسيح الذي "**مات لأجل الجميع**" (٢كو٥:١٥). الإيمان الحقيقي يتجاوز الحدود بين الطوائف، ولا يتجاهل قدر "الكنائس" الأخرى ودورها في الكرازة وإبلاغ كلمة الخلاص "للخليقة كلها" (مر١٦:١٥)، ويرى المسيح في كل من ينادي باسمه. **اختلاف الفهم للعقيدة لا يعني الانكفاء على الذات ورفض الآخر، بل يظل رجاء الوحدة (ليكون الجميع واحداً** - يو١٧:٢١) **هو الهتاف الداخلي لكل المؤمنين**، وتشجيع الحوار واللقاء واجتماعات الصلاة لتحقيق نداء الراعي الواحد من أجل رعية واحدة تضم شمل الجميع (يو ١٠:١٦)، وشهوة قلب المخلص في صلاته الأخيرة قبل الصليب (يو١٧:١١، ٢١-٢٣).

(**٣**) الانتماء للكنيسة ليس انتماءً اجتماعياً أو نفعياً. بالتأكيد هناك جانب اجتماعي في لقاءاتنا الكنسية. فنحن يوم القداس نلتقي بأصدقائنا وأقاربنا ومن نحبهم ومن نعرفهم ومن لا نعرفهم. وقد نزورهم بعد القداس أو نجتمع معاً في مكان ما. هذا وارد.. ولكن لا يصح أن يكون هذا هو الهدف الأول أو الوحيد من المجئ إلى الكنيسة. **ينبغي مهما كان الأمر أن يغلب اللقاء الإلهي ودخول**

الأقداس والتناول وتأكيد التوبة ليكون سبب الفرح الأول من التوجه إلى الكنيسة هذا اليوم.

(٤) الانتماء للكنيسة ليس بديلاً عن الانتماء للوطن ومحبته وخدمته، وهو لا يتعارض معه بل ولا ينفصل عنه، والأول عينه على الوطن الأفضل أي السماوي (ملكوت السموات) (عب١١:٦) وغايته الخلاص وتتميمه لنوال الحياة الأبدية، أما الثاني فيتعلق بالأرض والتاريخ والولاء للمكان الذي لا يُنسى فضله في توفير الأمن والحماية والتعليم والعمل وأيضاً لأنه يضم الكنيسة التي ننتمي إليها جغرافياً، وفيه نمارس العطاء ومحبة القريب إخوة الوطن ونقدم للعالم وجه المسيح المنير.

والرب نفسه انتمى إلى مدينة على الأرض هي الناصرة **ودعى ناصرياً** (مت٢:٢٣) وكان معروفاً باسم **"يسوع الناصري"** (مت ٢٦:٧١، مر١:٢٤، ١٠: ٤٧، ١٤:٦٧، لو ٤:٣٤، ١٨:٣٧، ٢٤:١٩، يو ١٨:٥، ٧) وهكذا كُتب اسمه في لوحة على الصليب (يو١٩:١٩)، وهكذا بشر به تلاميذ وصنعوا القوات باسمه (أع ٢:٢٢، ٣:٦، ٤:١٠)، والرب نطق اسمه هكذا في رؤياه لبولس في طريق دمشق (أع٢٢:٨) بل كانوا يطلقون على من تبعوه **"شيعة الناصريين"** (أع ٢٤:٥). ومكتوب عن الرب **"ولما جاء إلى وطنه** (أي الناصرة)" (مت ١٣:٥٤، مر ٦:١)، ولما قيل له **"كم سمعنا أنه جرى في كفر ناحوم فافعل ذلك هنا أيضاً في وطنك"** (لو ٤:٢٣) رد عليهم قائلاً **"الحق أقول لكم إنه ليس نبياً مقبولاً في وطنه"** (مر ٦:٤، لو٤:٢٤).

المسيح عاش على أرضنا وفيها علّم وخدم ومات وقام، ونحن عرفنا الرب في هذه البقعة من الأرض وطننا، **وقربي الذي أوصاني الرب بحبه كنفسي هو**

جاري وشريكي في الوطن، ومحبتي المسيحية تفترض أن تمتد لتغمر ليس فقط أعضاء الكنيسة وإنما كل شركاء الوطن. وإيماني المسيحي يفترض أن أحب وأخدم وأدافع عن وطني بكل الأمانة والعطاء، وألا أنزلق إلى الانعزال أو التعصب وكراهية الآخر غير المسيحي. فالكراهية انسحاب من المسيح وإنكار للإيمان وحياة في الظلمة "من قال إنه في النور وهو يبغض أخاه فهو الآن في الظلمة" (١يو ٢:٩).

✪ ✪ ✪

انتماء المؤمن للكنيسة هو ضرورة حيوية لخلاصه...

وعلى الكنيسة والمؤمن أن يواصل كل منهما دوره في تنمية هذه العلاقة وتعميقها وحمايتها ففيها الحياة وبدونها يكون الذبول والموت.

الكنائس التقليدية ورياح التغيير

نظرة إلى الوراء

ظلت الكنائس التقليدية الشرقية إلى عهد قريب بمنأى عن تيارات التحلل التي اجتاحت غيرها سواء الكنائس التقليدية الغربية أو غير التقليدية بصفة عامة. فرأينا الكنيسة في الغرب تتجه إلى السلطان الزمني تسعى إليه وتتشبث به. ثم راحت تشتغل بالسياسة وتثير المنازعات وتقود الحروب ثم انتهت إلى أن صارت دولة لها في كل شأن رأي. وتاهت في جزئيات ليس لها نهاية ورافق ذلك التنازل عن كثير من مبادئ العبادة التي تسلمتها بالتقليد الآبائي، فتقلصت مدة الخدمة الليترجية، وتخففت من فترات الأصوام التي رتبتها المجامع المسكونية، وغلبت على خدمتها الروح الاجتماعية بحجة مسايرة ظروف العصر.

أما الشيع والطوائف التي خرجت عن الكنيسة الغربية فقد أتبعت مبدأ الرفض فأزاحت من طريقها تقاليد الأباء مبتدئة بالأسرار إلى سائر طقوس العبادة المختلفة التي حسبتها من معوقات الاتصال بـــالله. ولكـــن منـــهج الرفض الذي أنشقت به البروتستانتية في القرن السادس عشر عن الكنيسة في الغرب متحللة من معظم تقليدات الكنيسة، ما استقام منها وما انحرف عن قصده، بدأت هي الأخرى تعاني من آثاره. فأخذت تتفتت منها الشيع والفئات (٢٥٨ مذهباً في هولندا وحدها على سبيل المثال)، وكل منها يبدأ من جديد بحسب ما يراه، فلا التزام هناك بشئ يقي من حريـــة الانقـــسام والتعديل والتغيير بحسب ظروف الزمان المتغيرة. وبالاستطراد في التفكـــك والركون إلى الرؤية الذاتية تباعدت الكنيسة عن مصدر قوتهـــا وأخـــذت صبغة المؤسسات الاجتماعية ولجأت إلى كل وسيلة مهما كانـــت لجـــذب الناس إليها بما في ذلك تنظيم حلقات الرقص والقبول بالانحلال كجزء من طبيعة العصر.

ولم يكن التقليد الذي رفضه هؤلاء هو مجرد التراث الذي تسلمته الكنيسة من الآباء ولكنه كان الشاهد على صحة الإيمان والإنجيل الذي تـــسلمته مـــن نفـــس المصادر.كما لم يكن الطقس مجرد تنظيمات مقيدة وحركات شكلية ولكنه كـــان الإطار الذي تمارس فيه الكنيسة عبادتها الروحيـــة بـــصورة تجمـــع الأعـــضاء في شركةالقداسة والوسيلة التي تلقن الأبناء من خلالها كلمة الإنجيل والإيمان والعقيدة. وكان تسليم التقليد من جيل إلى جيل هو العلامة على صدق الإيمان الرسولي.

الخطريقترب

على أن حوافز الحديث هنا ليست استعراض ما آلت إليه أحوال الكنيـــسة في الغرب فهذا معروف ولم نأت فيه بجديد. ولكن الدافع إليه هو أن ما كـــان

بعيداً عنا بدأ يقترب منا. وإن الأمر لم يعد خاصاً بكنائس الغرب، بل أن كنائس شرقية قريبة إلينا جداً وشريكة في الإيمان الأرثوذكسي بدأت هي الأخرى تتخلى جزئياً عما تسلمته من تقليدات العبادة بادئة طريقة التنازلات الذي سلكته الكنائس الغربية خاصة ما يتعلق باختصار القداسات والأصوام وفترة الانقطاع ذاتها ولم يستثن من ذلك حتى أقدم الأصوام وأقدسها : الصوم الأربعيني وأسبوع الآلام (*).

وتقصد هذه الكنائس بذلك إلى ما يأتي:

+ أن تجعل العبادة مقبولة ميسرة بدل إهمالها وتجاهلها. فهي تساير العصر وظروفه ولا تتخلف عن موكبه.

+ التخفيف عن المؤمنين المرهقين في الأعمال الكثيرة ومعاونتهم على الخروج من مأزق عصيان قوانين الكنيسة الذي تدفعهم إليه ظروف العصر وبذا تستعيد الكنيسة هيبتها بجعل قوانينها ممكنة التنفيذ بدلاً من قوانين مغالًى فيها لا تلائم الظروف.

+ محاولة جذب المسيحيين البعيدين عن الكنيسة بأحساس أن المنهج الكنسي متخلف عن ظروف العصر. وهي بذلك تسعى لإقامة الجسور بينها وبين أبنائها الذين تفصلهم عنها هوة تتعاظف مع كل يوم.

وما هي الأسباب ؟

(*) في محاولة لتيسير الصوم علي شعبها، الذي تراجع التزامه بالأصوام، لجأت كنيسة أرثوذكسية شقيقة – منذ ستينات القرن الماضي – إلي تخفيف الصوم الأربعيني (المسموح فيه أصلاً أكل السمك) وقصرته علي الأسبوعين الأول والأخير – محافظةً علي بدايته ونهايته – علي أن يُصام الأربعاء والجمعة في الفترة بين الأسبوعين (ويباح فيها إقامة الأكاليل)، وإن لم تمنع من يريد صوم الأربعين المقدسة كلها، واختصرت فترة الانقطاع لتكون حتي الظهيرة، بما في ذلك يوم الجمعة العظيمة الذي جعلت الصلاة فيه علي فترتين صباحية ومسائية.

ومهما تكن المبررات فإن هناك أسباباً أقوى هي التي تقود كنيسة مـــا إلى تقديم تنازلات قبولاً بالأمر الواقع القاهر وفي محاولة لتخفيف صليب المـــسيح وجعل وزنه معقولاً يسهل حمله، وإلى السعى لإغراء الناس واجتذابهم بالهـــدايا والهبات ونقل الجو الاجتماعي العصري إلى داخل الكنيسة من أجل تـــذويب الفوارق بين الكنيسة والعالم لتفادي صدمة الانتقال المبارك من العالم كما هـــو إلى الكنيسة كما ينبغي أن تكون.

ويمكن تلخيص هذه الأسباب فيما يلي:

+ أن الكنيسة – أي كنيسة تسلك هذا السبيل – قد فقـــدت وظيفتـــها كشاهد للمسيح وصليبه، وثقل صليب المسيح هو احدى علاماته وإن كان هو يحمله معنا (أو بالأحرى عنا).

+ أن الكنيسة قد فقدت هيبتها عندما فقدت قوة المناداة بالخلاص وبدأت تحس بضآلتها أمام جبروت العالم وسطوة أغلاله التي كبلت أولادها.

+ أن الكنيسة قد فقدت موهبتها في الكرازة والتعليم وبدل أن ترفض الأمر الواقع وتشجبه وتنادي بالعودة إلى الله رضيت بنصف الهزيمة لتتفادى هزيمـــة كاملة لابد أن تبلغها يوماً طالما سارت على ذات الطريق.

+ أن الكنيسة قد فقدت قدرتها علـــى تبكيـــت الخطـــاة والمتـــهاونين والبعيدين فطفقت تتوسل إليهم وتسترضيهم وهم يترفعون ويتدللون بـــل ويتذمرون.

+ أن الكنيسة قد أفلست روحياً ونسى رعاتها خدمتهم وصار عنـــدهم الدين حرفة يتعيّشون منها، وانشغلوا بمواكبة العالم فلما انفض من حـــولهم الناس – إذ فشلوا في مخاطبتهم روحياً – اجتهدوا في محاولة جمعهم بـــأي طريق ولو بخلط الحياة الاجتماعية المنحلة بالجو الديني – أي مخاطبتهم عن

طريق الجسد – فالكنيسة تريد أن تجمع البنين لا لتقودهم إلى الأبدية وإنما لمجرد أن تمارس نشاطاً اجتماعياً ظاهراً.

وواضح أن هذه الكنيسة – بهذه الصورة – قد تقطعت صلاتها بتيار الروح القدس الهادي وصارت تعمل بفكر شخصي. فقد غاب عنها مثلاً أن تدرك لماذا تباعد الناس عنها وحسبته أنه لتشددها وتزمتها وانغلاقها فتحولت إلى التساهل والتخفيف. ولكن الناس بقوا على تباعدهم. ذلك أنه ماذا يدفع إنسان ليسعى إلى الكنيسة؟ أليس عندما يشعر أن فيها حاجته التي لا يجدها خارجها. فإذا تنكبت الكنيسة طريقها وضاع منها هدفها في التبشير بالملكوت ودعوة الخطاة للتوبة وتعزية نفوسهم واروائها فماذا يبقى لها لتقدّمه؟ وماذا يدفع انسان العالم إليها عندئذ؟ هل ليشترك في صلوات خلت من حرارتها أو ليسمع عظات اجتماعية جافة؟ إن وقته أضيق من أن يضيعه فيها. أم ليرقص ويلهو ويتسلى؟ أن هذا يجده خارج الكنيسة ولا حاجة به إلى مزيد منه. وهنا فإن الكنيسة **تخسر مرتين: مرة** عندما تفقد منهجها الخلاص وهو عملها الأساسي وتفقد معه أسلحتها الروحية؛

ومرة عندما تنهزم في السباق الاجتماعي أمام العالم الذي اقترضت منه أسلحته لأنه بإمكانياته وعراقته أقدر منها بالطبع في إشباع ميول الجسد.

وماذا عن النتائج ؟

فإذا كانت هذه الأسباب فماذا تكون النتائج :

+ التباعد يوماً وراء يوم عن الإيمان الرسولي وتسليمات الآباء فتتغرب كنيسة اليوم عن أصولها الأولى ويحدث الانفصال الأليم بين ماضي الكنيسة وحاضرها، وبالتالي بين حاضرها ومستقبلها.

+ تفقد الكنيسة وظيفتها كحارسة على ما تسلمته وبدل أن تقود النـــاس إلى الحياة الأبدية تعدهم للدينونة "**ويل لكم أيها الكتبة والفريـــسيون المـــراءون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحداً ومتى حصل تصنعونه ابناً لجهنم**" (مت٢٣:١٥) فينطبق عليها القول "**لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره**" (مت٢١:٤٣).

+ تكريس التهاون ومباركته وتقنينه كنسياً. أي إكسابه صـــفة الـــشرعية وحمايته من الانتقاد.

+ فقدان الثقة في الكنيسة ورعاتها وعدم احترام كلماتها وتوجيهاتها فتنعزل حتى عن المخلصين من أبنائها. وتبرد محبة الكثيرين بسبب كثـــرة الأثم وعـــدم إدانته.

+ تخفت أصوات التوبيخ والانتهار والوعظ وتتزايد أعمال التدليل والملاطفة والنتيجة إغراق المسيحيين في الحياة الهينة فيفقدون روح الجهاد.. ومن ناحيـــة أخرى لن يتوقف المتهاونون عن المطالبة بالتخفيف عنهم من واجبات العبادة الـــتي سيتزايد ثقلها مهما اختُصرت، طالما ظل العالم على شراهته في التهام وقتهم وجوره على جهدهم وإمكانياتهم، وطالما بقيت الكنيسة على استعدادها للتنازل وابـــتلاع الانحرافات بكل رضى. وقد لا تمضي أجيال قليلة إلا ويصبح الكثير من ترتيبـــات العبادة مجرد ذكريات طواها الزمن.

+ طالما قد فتح باب التنازلات فلن يوصد بل ستدخل مجالات جديدة دائـــرة الانتقاد والمطالبة بالتغيير. وحتى الكتاب المقدس الذي يعتبره الـــبعض الحـــد الأدنى للاتفاق بين الجميع، لن ينجو من محاولات الاختصار والتعديل والتشكيك ومـــن اتهامه بعدم ملاءمة نصوصه وروح العصر.

+ يشحب وجه الكنيسة النسكي وتمتد العدوى لتصيب الحياة الرهبانية في صميمها وتفقدها أهم مقوماتها، وتفقد الكنيسة بالتالي ركناً من أهم أركـــان زخمها الروحي.

+ على الجانب الفردي فإن هبوط المستوى الروحي بصفة عامة واضمحلال المثل الروحية يؤدي إلى قتل مواهب العبادة بين المؤمنين ووأد النمو الروحي. وهذا يقود إلى خطرين يهددان البسطاء، أولهما : خطر **الكبرياء الروحي** يصيب البعض وسط كنيسة يتفشى فيها الضعف والانحلال فكل من نفذ مطالب الكنيسة المتواضعة حسب نفسه باراً أما من تجاوزها إلى أكثر منها – وهو ميسور – فقد صار قديساً عظيماً، وثانيهما: خطر **الاكتفائية** يترصد البعض الآخر حيث يحسب كل من تمم هذه المطالب أنه قد بلغ إلى نهاية المطاف فتتأقلم حياته على هذا المستوى الهزيل وهو يراه غاية الروحانية فلا قامات هناك يقيس نفسه عليها ولا مثل يسعى إليها.

هل من حل ؟

والآن، هل هناك ما يقال لكنيسة تتراجع أمام سطوة عالم يريد أن يسحب الأرض من تحت قدميها وهي تتفاوض معه ليبقى لها شيئاً؛ كنيسة تريد الانعزال عن العصر الذي تعيش فيه وتسعى للتلاؤم معه ؟

+ نعم، يقال أن **على الكنيسة أن تعرف روح العصر** الذي تعيش فيه، وأن تعي التيارات التي تتصارع فيه، وألا تتجاهل التحديات التي تجابهها، **وأن تكون مستعدة لتجيب على كل التساؤلات التي تثور من حولها** وإنما بشرط أن تجيب إيمانياً، وهو الممكن الوحيد لكنيسة رأسها المسيح.

+ ويقال إن على هذه الكنيسة أن تدرك مسئوليتها الإيمانية تجاه أجيال المستقبل **فتظل مخلصة لما تسلمته لا تفرط فيه ولا تتنازل بأي حجة من أجل أن تسلم أمانة الإيمان كما تسلمتها بدل أن تدان في اليوم الأخير على تفريطها وخيانتها.**

+ ويقال إن على هذه الكنيسة **أن تدرك أن سر قوتها هو في صلابتها وتمسكها بحق الهها وصليبه، في حرارة عبادتها ونسكها، وفي دوام نقاوتها** وتناءيها عن روح العالم وانحلاله لتتمكن من خدمة العالم وإنارته وتقويمه وتوبيخه وردعه أن اقتضى الأمر.

+ ويقال أن عليها **أن تراجع نفسها وتتجه إلى مصدر قوتها** وتستند على ذراعه الرفيع، وتترع من أرضها زوان الفكر الذي ارتضت أن تغرسه بيدها يوم انحجبت عنها رؤية الذين معها وانغلبت من مشهد الذين عليها. وأن تكون لها الشجاعة المسيحية لتعلن أنها كانت قد تنكبت الطريق وهي الآن ترجع إلى الحق. وأن تكون مستعدة للرد بقوة الإيمان على كل الأصوات المقاومة والمعوقة لعمل الله.

+ ويقال أن عليها ألا تستجيب منذ الآن لمطالب الخاضعين لسلطان الزمان الذين تزحزح مكان الرب في حياتهم إلى خارج السياجات، وصارت علاقتهم به عبئاً ينوءون تحته ويجاهدون للتخلص منه، فيبحثون عن الفتات الباقية يقدمونها له. **على الكنيسة أن تسعى لخلاص هؤلاء وتتويبهم وانقاذهم من الهلاك** الذي يسعون إليه، شهادة للحق الذي تسلمته، وتشجيعاً للنفوس القليلة المخلصة المجاهدة وسط هذا الظلام.

ما هو دور كنيستنا ؟

وفيما يتعلق بكنيسة مصر الأرثوذكسية فإلى أي مدى يهمها هذا الذي يجري من حولنا وماذا يكون رد الفعل عندها ؟

والرد البسيط أن الأمر لم يعد خياراً. فما هوجم به غيرنا لن ننج منه نحن. وأمراض العصر تنتشر دون أن تعبأ بحدود القارات. ولذا **فإن انتباه الكنيسة ورعايتها لأولادها وتعبئة قواها واستعدادها للاستشهاد ضرورة محتمة طالما هي تريد أن تحيا كعروس هيأت نفسها لزواج أبدي لا انفصام فيه.**

ومن ناحية أخرى فإن مسئولية كنيستنا تتزايد في ظل ظروف الانحسار السائدة من حولها بما يجعل دائرة عملها تتسع لتشمل هذا العالم المتسع ومن ضمنه كثير من أبنائها انتشروا الآن في أنحاء المعمورة ومعرضون بالطبع للانحراف في تيار العالم الذي لا يرحم.

ونحسب أن كنسيتنا مهيأة للقيام بدور كبير في نهضة الحياة المسيحية :

+ لروحها المحافظة الواضحة وتمسكها بتقاليدها ونفورها من التعديل والتغيير في أساسيات التقليد الأبائي.

+ بعدم اتصالها لفترة طويلة بالتيارات الخارجية وعزلتها عن الكنائس الأخرى التي عصفت بها رياح التغيير فحفظت بذلك وجهها الرسولي الأصيل وانتعشت شخصيتها الروحية وتدعمت بما يسمح لها الآن بالاتصال لتؤثر لا لتتأثر.

+ بشبابها المتجدد ونهضتها الروحية (بعد سبات السنين الطويلة) متمثلة أساساً في خدمة التربية الكنسية التي بدأت بتعليم الأطفال ثم امتدت لتشمل كل مستويات الكنيسة، والتي حمل رسالتها في البداية الشمامسة ثم اتسع نطاق رجالها ليشمل الكهنة ثم الأساقفة، والآن بابا الكرازة المرقسية الأنبا شنوده الثالث، الذي يعيد إلينا - وهو يعظ الآلاف كل أسبوع - صورة لبابا الكنيسة كانت قد اندثرت في ظلام القرون الماضية.

+ بحركة التكريس النشطة على مستوى الخدمة وسط الناس، وعلى مستوى الرهبنة بما يبشر باحتمالات مفرحة.

+ باتجاهاتها الصوفية التعبدية ككنيسة شرقية لم تختلط بالعالم ورياساته ولم تتسلل إليها أمراض العالم المختلفة التي أصابت الكثير من كنائس الغرب.

والآن... **ما هي الخطوط العريضة للعمل الكنسي في ظل هذه الظروف ؟**

+ تكثيف العمل الروحي في الكنيسة ودعمه خاصة في أطراف البلاد وقراها وتوصيل الكلمة إلى كل محتاج - ولو بالمراسلات - مع التركيز على رسالة التوبة والخلاص، ومضاعفة الجهد في خدمة الشباب والرد على تساؤلاتهم.

+ **اظهار جانب الحق في قوانين الكنيسة وتعاليمها** لجعل قضية التمسك بتقاليد الآباء قضية إيمانية وليس لمجرد الانغلاق على القديم والتعصب له ورفض التجديد.

+ **التأكيد على دور الأب الروحي في قيادة النفوس وتوجيهها**، وعلى مسئوليته – من قبل الكنيسة – عن التوفيق بين حدود القانون الكنسي وإمكانيات تنفيذه بمعرفته بقامات أولاده الروحية وفهمه لظروفهم، وبذا تقطع الكنيسة الطريق على التجاوز الحر للقانون الكنسي (خاصة بالنسبة للأصوام) دون مشورة الأب.

+ **تشجيع حركة التكريس** بمختلف صورها، فنهضة الكنيسة تعتمد إلى حد بعيد على النفوس التي باعت حياتها بالكامل بلا تحفّظ من أجل المسيح وخدمته.

+ **العمل على نشر الفكر الروحي الأرثوذكسي خارج الحدود**، سواء في المؤتمرات أو بحركة ترجمة نشطة تقودها هيئة كنيسة رسمية.

ماذا تأخذ الكنيسة من العصر؟

على أنه لكي تتكامل نظرة كنيستنا ويستقيم عملها فإن عليها ألا تتجاهل العصر وتحدياته أو تعمل في عزلة عنه. ومن ثم فعليها :

+ **أن تنقّب وتعيد اكتشاف تقاليدها وأنظمتها وطقوسها** لئلا يكون قد تسلل إليها طارئ غريب واستعادة ما سقط منها بسبب الإهمال. فضلاً عن مراجعة لغة وأسلوب ومحتوي الكثير من الكتب الكنسية يشكر كاتبوها على جهدهم بقدر العلم المتاح في عصرهم.

+ ألا تحتقر التقدم العلمي أو تتعالى عليه وأن تفيد من إمكانيات العصر المتاحة في الإدارة والتنظيم والأسلوب العملي، وأن تشكل لجان لتقييم العمل الكنسي ومشروعاته.

+ أن تؤازر كل جهد يسعى لاستفادة الكنيسة من إمكانيات العصر : مثل استكمال تدوين الألحان الكنسية باللغة الموسيقية وتسجيلها – تطوير المباني الكنسية من ناحية العمارة واللمسات الفنية في الصور والإضاءة والأبنية الملحقة للنشاطات الروحية والاجتماعية والثقافية المختلفة... الخ، مع السعي لاستقطاب المواهب الفكرية والأدبية والفنية وتكريسها لخدمة عمل الله.

+ أن تتيح للأديرة أن تكون مراكز للإشعاع الروحي والثقافي لخدمة الكنيسة والعالم والكرازة للمتغربين.

+ أن تتعاون مع الكنائس الأخرى في حقل الكرازة ومقاومة الإلحاد والسعي من أجل وحدة كنيسة المسيح، مع الاهتمام بحضور المؤتمرات الكنسية الجادة للتعرف على الاتجاهات السائدة وتقييم تجاربنا.

+ أن تحاول دفع مؤسسات الكنيسة الثقافية في تيار البحث العلمي المحايد لفائدة الكنيسة ودراسة التراث الآبائي وبعثه على أسس علمية - تقصّي أحوال المؤمنين من كل الفئات ومعرفة اتجاهات الشباب المعاصر والمخاطر التي يتعرض لها شبابنا وكيف ندرأها عنهم – المشاكل الاجتماعية للأسرة القبطية وكيف تؤثر على حياتها الروحية – مشاكل الكنيسة في المستويات الحضارية المختلفة : القرية، المدينة، العاصمة – بذل جهد احصائي يسند هذه الدراسات المختلفة، وهذه يمكن أن تكون على هيئة بحوث ورسائل علمية، محاضرات وندوات، استفتاءات، مؤتمرات علي أسس علمية تقليدية، وغيرها.

o o o

أما بعد ...

فلندرك منذ الآن الأخطار المحدقة بنا ونُعّد أنفسنا لمجابهتها قبل أن نُباغَت بها، لنتشدد بالإيمان ونثق في المسيح أننا نستطيع أن نغلب، **ولنعرف أنها ليست مسئولية فرد أو أفراد ولكنها مسئولية كل أعضاء الكنيسة**.

فلا ننم إذاً كالباقين بل لنسهر ونصح، ونعمل عمل الرب.

"لأنه يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح" (١تي ٢:٥).

٣

قضية الشفاعة

+ قضية الشفاعة

قضية الشفاعة

ونقصد هنا **شفاعة القديسين**. فلا توجد قضية بالنسبة **لشفاعة المسيح – الشفيع الكامل**[1] **ووسيط العهد الجديد** (عب ٩: ١٥؛ ١٢: ٢٤)، والأفضل (عب ٧: ٢٢)، والأعظم (عب ٨: ٦) – والذي صار كفَّارة[2] لخطايانا وخطايا العالم كله (١يو ٢: ١،٢)، وشفع في المذنبين (إش ٥٣: ١٢) بدمه وموته وقيامته. وبخلاصه الذي انتظرته الأجيال صار **الوسيط الواحد** بين الله (الآب) والناس (١تي ٢: ٥) فليس بأحد غيره خلاص (أع ٤: ١٢). وبفعل ذبيحته الكاملة[3] وفدائها الأبدي (عب ٩: ١٢) يخلص إلى التمام الذين يتقدَّمون به إلى الآب مؤمنين **"إذ هو حيٌّ في**

---

(١) راجع مقال "**يسوع المسيح الشفيع الكامل**"، في كتاب "**عن المسيح**" من "**نور الحياة**" – ص١١٤.

(٢) من copher العبرية بمعنى يُغطِّي cover. فالمسيح ستر عُرينا بثوب برِّه، ويقول الرب لإشعياء بعد أن مسَّ الملاك شفتيه بجمرة من فوق المذبح: "إن هذه قد مسَّت شفتيك، فانتُزع إثمُك **وكُفِّر** عن خطيتك" (إش ٦: ٧). ويقول الوحي "طوبى للذين غُفرت آثامهم **وسُترت** خطاياهم" (مز ٣٢: ١؛ رو ٤: ٧).

(٣) راجع مقال "**المسيح رئيس الكهنة العظيم والذبيحة الكاملة**"، في كتاب "**عن المسيح**" من "**نور الحياة**"– ص٦٠.

كل حين ليشفع فيهم" (عب ٧: ٢٥)، وتُقبل توبتهم وتُغفر خطاياهم وتدخل صلواتهم إلى ما وراء الحجاب، وتظل شفاعته فاعلة حتى يوم مجيئه عندما يختم مهمته الخلاصية بتمجيد قديسيه ودينونة الرافضين.

كما لا توجد قضية بالنسبة **لشفاعة الروح القدس** الذي يقود إلى الإيمان، ويُساند الجهاد، ويُقدِّس الحياة (رو ١: ٤؛ ١كو ٦: ١١؛ ٢تس ٢: ١٣)، ويشفع فينا بأنَّات لا يُنطق بها (رو ٨: ٢٦)، ويُعزِّي في الآلام (يو ١٤: ١٦)، ويشهد للمسيح (يو ١٥: ٢٦)، ويرشد إلى جميع الحق (يو ١٤: ١٧؛ ١٥: ٢٦؛ ١٦: ١٣)، ويترافع عنا وقت الاضطهاد والمحاكمات (مت ١٠: ١٩،٢٠).

وحتى خمسة قرون خلت لم تكن هناك قضية بالنسبة **لشفاعة القديسين** – صلواتهم وطلباتهم وتوسُّلاتهم من أجل المؤمنين – ولم يكن بينها تناقُض وبين **شفاعة المسيح الفريدة**. وكان مفهوماً حدود الدور الذي رسمته لهم إرادة الله ونعمته، كأعضاء أحياء ضمن الكنيسة المنتصرة أو كرفاق للمؤمنين في الكنيسة المجاهدة، تؤيِّده أحداث الكتاب المقدس ووصاياه على مدى العصور.

ولم تتحوَّل شفاعة القديسين إلى قضية جدلية لا داعي لها إلاَّ في القرون المتأخِّرة عندما غالى البعض في قيمة دورهم[٤]، الأمر الذي رآه غيرهم تجاوزاً،

---

(٤) أفرطت كنيسة روما في إكرام العذراء، فلم تَرَها فقط أُمّاً لله – **ثيئوطوكوس** – التي أخذ منها جسده، وأُمّاً للكنيسة والشفيعة الأمينة لجنس البشر؛ وإنما شريكة في الخلاص ومولودة بغير ذنب الخطيئة الأصلية، وتُسمَّى هذه العقيدة: "الحَبَل بلا دنس الخطية Immaculate Conception"، دون سند من الكتاب والتقليد، ورغم قول العذراء الصريح أمام أليصابات: "تبتهج روحي بالله **مخلِّصي**" (لو ١: ٤٧)، فهي كانت تنتظر خلاص الرب مع سائر المنتظرين (لو ٢: ٢٥،٣٨)؛ فضلاً عن تركيز كنيسة روما على فضائل القديسين وأعمالهم الصالحة وعرض الفائض منها لحساب المؤمنين، يضيفونها إلى رصيد ذويهم المنتقلين أو رصيدهم هم عند انتقالهم، فيفيدون بإعفائهم من عقوبات المطهر (بحسب اعتقادهم)، بعضها أو كلها، وبالتالي يتيسر دخولهم إلى الفردوس.

ويتصل بهذا الأمر "صكوك الغفران" (لتقليص فترة المطهر) التي عُرفت أوائل القرن الحادي عشر واتسع استخدامها مع الحملات الأوروبية (التي استمرت قرنين حتى عام ١٢٩١م) لتشجيع الجنود على الانخراط في الحرب، وبعدها صارت تُمنح لِمَن يقومون بأعمال خيرية، أو الذين يزورون قبر الرسولَيْن بطرس وبولس في روما (بديلاً عن القدسَ التي سقطت)، أو مقابل تبرعات (فكانت الإيصالات تتضمن غفران عدد من الخطايا).

ومَن ثمَّ استبعدوه كلِّيةً إذ رأوا فيه انتقاصاً من عمل المسيح الكفَّاري – رغم مجافاة هذا الفكر لروح الكتاب – فحرموا أنفسهم ومن تبعهم دون مبرر من معونة أتاحتها نعمة الله. وإذا كان للجرعة الزائدة من أي دواء مضارها، فالطبيعي هو الالتزام بشروط استخدامه، ولا تكون الدعوة إلى عدم تناوله لأن العيب لم يكن في الدواء.

وكانت هذه هي البداية التي أدَّت، مع أسباب غيرها، إلى انقسام الكنيسة مرة أخرى. ومُضيّ السنين بدأ التخلِّي عن كثيرٍ من أُسس الحياة الكنسية وعقائدها وتقاليدها. وطال التغيير شكل الكنيسة نفسها، فتجرَّدت من هيكلها ومذبحها وصور شهدائها وقديسيها. وهكذا استُبعد الجيد مع الرديء، وعانى جسد المسيح جراحاً جديدة، وتضاعفت المصاعب أمام وحدة الكنيسة.

هذه، إذاً، القضية التي نحن بصددها: **شفاعة القديسين**. وها نحن نعرضها في ضوء كلمة الله والفكر الآبائي الأرثوذكسي.

مقدمة لُغوية

المعنى الحرفي للشفاعة Intercession – ضمن معانٍ أخرى في العربية كالمعونة والإضافة والإقران – هو الوساطة والتدخُّل لحساب مَن يحتاج لدى مَن يملك الحاجة، ويُقابلها في اللغة اليونانية عدد من الكلمات مثل: **باراكليتوس وباراكليتون** Parakleton (باراقليط)، وتعني وسيط Mediator، شفيع، محامٍ، محاجّ، معزٍّ (أي ١٦: ٢؛ يو ١٤: ١٦،٢٦؛ ١٥: ٢٦؛ ١٦: ٧؛ رو ٨: ٢٦،٢٧،٣٤؛ عب ٧: ٢٥؛١يو ٢: ١)؛ **وإنتينخاني** (هكذا تُنطق في اليونانية) entygkhanei بمعنى يتوسل، يتضرَّع، يلتمس، يستغيث (دا ٦: ١٢،١٣؛ أع ٢٥: ٢٤؛ رو ١١: ٢؛ ١تي ٢: ١؛ يع ٥: ١٦).

فالمقابل اليوناني واحدٌ سواء في شفاعة الابن أو الروح القدس، من ناحية؛ أو شفاعة وتوسُّل وطلبات الكنيسة والقديسين، من ناحية أخرى؛ رغم الفارق في

المعنى بين الشفاعتين (وربما كان هذا سبباً في إثارة القضية كأن العملَيْن متكافآن).

وفي الكلمات اليونانية والقبطية:

– **پرسڤيا** presfeia وهي يونانية بمعنى شفاعة أو سفارة (لو ١٤: ٣٢؛ ١٩: ١٤) (ومنها پرسڤيتيروس أي الشيخ أو القس أو الشفيع أو الوسيط)، وتُستخدم في صلوات الكنيسة مقترنة باسم العذراء ورؤساء الملائكة السبعة وسائر الطغمات السمائية والقديس يوحنا المعمدان؛

– **إڤكي** (إڤشي evche) باليونانية أو **إشليل** بالقبطية، بمعنى صلاة، وتُستخدم في صلوات الكنيسة مقرونة باسم الآباء التلاميذ والرسل والشهداء وآباء الكنيسة المنتصرة وقديسي كل يوم (حسب السنكسار)؛

– **پروستاتيس** prostatis واستُعملت في الكتاب المقدس للمؤنث بمعنى مُعينة (مثل فيبي – رو ١٦: ٢،١)، ولكنها تُستعمل أيضاً للقديسين من الجنسين للدلالة على الشفاعة، كما في صلاة "السلام لكِ": (نسألِك اذكرينا أيتها **الشفيعة** المؤتمنة أمام ربنا يسوع المسيح ليغفر لنا خطايانا).

أولاً: شهادة كلمة الله

(١) "صلُّوا بعضكم لأجل بعض"

إن طبيعة الكنيسة كجسد المسيح، هو فيه الرأس، الذي يلتحم به أعضاء الكنيسة على الأرض وفي السماء، تجعل الكل **"أهل بيت الله"** حسب تعبير القديس بولس (أف ٢: ١٩) الذين في محبتهم يهتمون ببعضهم اهتماماً واحداً (١كو ١٢: ٢٥)، وفي اسم المسيح يُقدِّمون طلباتهم من أجل أنفسهم ومن أجل الآخرين، والتي تدخل إلى الأقداس من خلال **الوسيط الواحد بين الله** والناس (١تي ٢: ٥)، الذي في شفاعته الفريدة صار لنا شركة مع الله الآب

والروح القدس.

ولقد يُقال إن الصلاة من أجل الآخرين ليست ضرورية، فكل واحد يُصلِّي عن نفسه. ولكن ماذا عن المرضى والغائبين عن وعيهم؟ وماذا عن المخدوعين بالعالم اللاهين عن خلاصهم؟؟ وماذا عن الذين في شعورهم بعِظَم خطاياهم لا يجرأون أن يرفعوا وجوههم لله؟ وماذا عن المنسحقين المنحصرين في همومهم؟ وماذا عن الملايين المحاصرين بالأوبئة والمجاعات والحروب وثورات الطبيعة؟ بل إن الكتاب نفسه يحثُّنا أن نصلي بعضنا لأجل بعض (يع ٥: ١٦)، وحتى من أجل أعدائنا الذين يُسيئون إلينا (مت ٥: ٤٤) كي يغفر الله لهم ويُغيِّر نهج حياتهم.

والقديس بولس، كما يذكر الآخرين في صلواته بلا انقطاع (رو ١: ٩؛ ٢كو ١٣: ٧؛ أف ١: ١٦؛ ٣: ١٤-١٩؛ في ١: ٣،٤؛ كو ١: ٣، ٩-١٢؛ ١تس ١: ٢؛ ٣: ١٠؛ ٢تس ١: ١١؛ ٢تي ١: ٣، فل ٤)، هو يطلب "**أن تُقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكُّرات لأجل جميع الناس**" (١تي ٢: ١،٢)؛ بل إنه يطلب الصلاة من أجله (رو ١٥: ٣٠؛ ٢كو ١: ١١؛ ١تس ٥: ٢٥؛ فل ٢٢؛ عب ١٣: ١٨) ومن أجل خدمته: "**مُصلِّين بكل صلاة وطلبة... لأجل جميع القديسين ولأجلي لكي يُعطَى لي كلام عند افتتاح فمي**" (أف ٦: ١٨،١٩).

وعندما أُلقي القديس بطرس في السجن، صعدت من الكنيسة "**صلاة بلجاجة إلى الله من أجله**" (أع ١٢: ٥)، فأرسل الله ملاكه وحرره من سجنه. وفي إرسالية برنابا وشاول صامت الكنيسة وصلَّت من أجلهما (أع ١٣: ٣). ومُعلِّمنا يعقوب يطلب الصلاة من أجل المرضى (صلاة الكنيسة، أو صلاة المريض، أو صلاة من حوله، أو صلاة الجميع)، "**وصلاة الإيمان تشفي المريض** (الذي دهنه قسوس الكنيسة بزيت باسم الرب) **والرب يُقيمه، وإن كان قد فعل خطية تُغفر له** (بتوبته إذا كان واعياً)" (يع ٥: ١٥).

وكما كان – ها هو كائن – فالكنيسة في صلواتها اليوم تطلب من أجل سلامها، ومن أجل خُدَّامها، ومن أجل خلاص العالم، ومن أجل المرضى والمسافرين والمعوزين؛ بل هي تُصلِّي أيضاً من أجل الطبيعة:جوًّا (أهوية) ومياهاً وعُشباً وزرعاً وثماراً وحيواناً؛ كما تُصلِّي من أجل كل مَن له تعب في خدمة الله بكل نوع؛ وتذكر الراقدين والقديسين كما تطلب صلواتهم. وشماس الهيكل في ختام صلوات القداس يُنادي الشعب: "اطلبوا عنا وعن كل المسيحيين الذين سألونا أن نذكرهم في بيت الرب". والكنيسة في هذا كله تنسجم مع روح الإنجيل وشركة الحب والرابطة العضوية التي تجمع كل أعضاء الكنيسة في المسيح في السماء وعلى الأرض.

فشفاعتنا بعضنا لأجل بعض هي استجابة لصوت الإنجيل. وإذا كان الرسل وهم تحت الآلام يطلبون صلوات الكنيسة عنهم، فليس غريباً أن نطلب صلواتهم – أي شفاعتهم – وهم في المجد.

(٢) الله يُكرم قديسيه

+ كلمات الكتاب تشهد بإكرام الله لقديسيه: "**أُكرم الذين يكرمونني، والذين يحتقرونني يصغرون**" (١صم ٢: ٣٠)؛ "**إن كان أحد يخدمني، يكرمه الآب**" (يو ١٢: ٢٦)؛ "**الذي يسمع منكم يسمع مني، والذي يرذلكم يرذلني**" (لو ١٠: ١٦)؛ "**ذِكْر الصدِّيق للبركة**" (أم ١٠: ٧)؛ "**الصدِّيق يكون لذكْرٍ أبدي**" (مز ١١٢: ٦)؛ "**اذكروا مرشديكم الذين كلَّموكم بكلمة الله. انظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثَّلوا بإيمانهم**" (عب ١٣: ٧).

+ والكتاب يصف الأبرار أنهم "**يضيئون** كضياء **الجَلَد**، والذين **ردُّوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور**" (دا ١٢: ٣)، ويضيئون "**كالشمس في ملكوت أبيهم**" (مت ١٣: ٤٣)، "**وهُم لم يكن العالم مستحقاً لهم**" (عب ١١: ٣٨)؛ وأنَّ "**طِلبة البار تقتدر كثيراً في فعلها**" (يع ٥: ١٦-١٨).

+ وبعض الذين عاشوا في البِر أكرمهم الله جداً مثل **أخنوخ** الذي "**سار**

مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه" (تك ٥: ٢٤)، **وإيليا** الذي صعد في مركبة نارية إلى السماء (٢مل ٢: ١١)؛ **وبولس** الذي اختُطِفَ إلى "السماء الثالثة" (٢كو ١٢: ٢).

+ بل إن الله نسب نفسه إلى قديسيه قائلاً "أنا إله **إبراهيم** وإله **إسحق** وإله **يعقوب**" (خر ٣: ٦،١٥،١٦؛ ٤: ٥؛ مت ٢٢: ٣٢؛ مر ١٢: ٢٦؛ لو ٢٠: ٣٧؛ أع ٧: ٣٢) وتعاهَدَ معهم، ومن هنا كان الآباء والأنبياء يتشفعون بهم لكي يتحنن الله عليهم (تك ٣٢: ٩-١١؛ خر ٣٢: ١١-١٣؛ تث ٩: ٢٦،٢٧؛ ١مل ٨: ٢٢-٢٦؛ ١مل ١٨: ٣٦-٣٨؛ ٢مل ١٣: ٢٢،٢٣؛ ١أخ ٢٩: ١٠-١٨، ٢٦:٣١-٣٥؛ ٢أخ ٦: ٤٢).

+ وقد وبَّخ الله هارون ومريم لَمَّا تقوَّلا على **موسى** قائلاً عنه: **"هو أمين في كل بيتي، فماً إلى فم وعياناً أتكلَّم معه"** (عد ١٢: ٧،٨) مستهولاً كيف لا يخشيان أن يتكلَّما على عبده موسى. وقد كشف الرب عن قدر **موسى (وصموئيل)** عنده عندما رفض توسُّل إرميا النبي من أجل بني إسرائيل قائلاً: "إن وقف **موسى وصموئيل** أمامي لا تكون نفسي نحو هذا الشعب" (إر ١٥: ١) بما يشير أيضاً إلى عِظَم خطية الشعب وانحرافه حتى أنه سيرفض شفاعة موسى وصموئيل من أجلهم.

+ ومن أجل قديسيه كان الله يفيض ببركاته ويتحنن بغير طلب أو حتى بعد انتقالهم من العالم:

- فأمانة **نوح** وطاعته أنقذت كل عائلته. كما أن تمجيده لله عندما بنى مذبحاً وأصعد عليه محرقات حمداً وشكراً لله، جعلت الله يتنسم رائحة الرضا ويقول في قلبه: **"لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان"** (تك ٨: ٢٠،٢١).

- والله "ذَكَرَ **إبراهيم**" (تك ١٩: ٢٩)، وأنقذ لوطاً من وسط الهلاك الذي عوقبت به سدوم وعمورة. وبسبب طاعة **إبراهيم** وتقديمه إسحق للرب كانت

البركة لكل النسل: "**يتبارك في نسلك جميع أُمـــم الأرض**" (تـــك ٢٢: ١٦-١٨)، مؤكِّداً وعده السابق له (تك ١٢: ٣،٢). كما أن الله بارك إسحق لأجل **إبراهيم** قائلاً: "**أكون معك وأُباركك... وأُكثِّر نسلك كنجوم السماء من أجل أن إبراهيم سمع لقولي**" (تك ٢٦: ١-٥، ٢٤).

- والرب بارك بيت فوطيفار بسبب **يوسف**: "**وكانت بركة الرب على كل ما كان له في البيت وفي الحقل**" (تك ٣٩: ٥).

- وبسبب خطية سليمان حَكَمَ الله بتمزيق مملكته، ولكنه من أجل **داود** - الذي توسَّل به سليمان إلى الله (مز ١٣٢: ١٠) - لم يفعل ذلك في أيامه "بل من يد ابنك أُمزِّقها... بل أُعطي سبطاً واحداً لابنك لأجل **داود** عبـــدي..." (١مل ١١: ١١-١٣)، ويكرر عهده هذا مع يربعام (١مـــل ١١: ٣١-٣٦). ومن أجل **داود** أيضاً لم يترع الرب مُلْك يهوذا من أبيام حفيد أبشالوم (١مل ١٥: ١-٥) ويهورام بن يهوشافاط (٢مل ٨: ١٩)، وأنقذ أورشليم من ملك أشور (٢مل ١٩: ٣٢-٣٤).

+ كما أن الرب أيام جسده أظهر في أكثر من مناســبة تقــديراً خاصــاً وإكراماً لبعض مَن حوله:

- فشهد **للمعمدان** أنه أعظم مواليد النساء (مت ١١: ١١).

- وساعة التجلِّي كرَّم النبيَّيْن **موسى وإيليا** بدعوتهما من وراء الحُجُـــب إلى جانبيه: اللذين "**ظهرا بمجدٍ وتكلَّما عن خروجه الذي كان عتيداً أن يُكملـــه في أورشليم**" (مت ١٧: ٣؛ مر ٩: ٤؛ لو ٩: ٣٠،٣١).

- كما وعد **تلاميذه** قبل أيام من صليبه: "**أنتم الذين تبعتموني، في التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كُرسيِّ مجده، تجلسون أنتم أيضاً علـــى اثـــني عـــشر كرسيّاً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر**" (مت ١٩: ٢٨). بل إن أسماء الرسل ستكون مكتوبة على أساسات سور أورشليم الجديدة النازلة من الـــسماء (رؤ

٢١: ١٤).

– وامتدح الرب **مريم** أُخت لعازر التي دهنت قدميه بالطِّيب ومسحتهما بشعر رأسها ليلة آلامه مُستبقة تكفينه قبل موته قائلاً: **"حيثما يُكرز بهذا الإنجيل في كل العالم، يُخبَر أيضاً بما فعلته هذه تذكاراً لها"** (مت ٢٦: ١٣؛ مر ١٤: ٩).

فنحن في إكرامنا للقديسين نسير على خُطَى الرب ووصاياه، كما أننا في الحقيقة نُكرِم بذلك مَن أرسلهم ونُمجِّد مصدر صلاحهم وقداستهم، وهو الله.

(٣) عن شفاعة المنتقلين

الذين يُشكِّكون في شفاعة القديسين يتعلّلون بأن هؤلاء بعد انتقالهم قد احتجبوا عن الذين في العالم، فلا جدوى من طلب صلواتهم ولا هم يدرون بما يجري في عالم الأحياء.

ولكن كلمة الله تكشف لنا مدى بُعد هذا الفكر عن الحقيقة. فكل الشواهد تشير إلى أن المنتقلين – خاصة القديسين منهم – يعرفون أكثر بعد انتقالهم. وحسب كلام الرب فإنهم في الفردوس أحياء. فالله **"ليس هو إله أموات بل إله أحياء، لأن الجميع عنده أحياء"** (مت ٢٢: ٣٢؛ مر ١٢: ٢٧؛ لو ٢٠: ٣٨؛ عب ١١: ١٦).

وقديسو الرب، وقد تخفَّفوا من كثافة الجسد ومحدوديته ورُفعت عن كاهلهم أعباء الزمان الحاضر ومشاغله وقصوره وهمومه وآلامه، قد اتسعت دائرة معرفتهم وحركتهم وفاعليتهم. وفي هذا السياق يكتب القديس بولس: **"فإننا ننظر الآن في مرآة في لُغز، لكن حينئذ وجهاً لوجه. الآن أَعرف بعض المعرفة، لكن حينئذ سأَعرف كما عُرِفت"** (١كو ١٣: ١٢).

ويُشير الكتاب إلى أن **صموئيل** بعد موته كان يَعْلَم بكل ما فعله الملك شاول ورَفْض الله له بالتالي، وتنبَّأ أن الرب سيدفعه ليد الفلسطينيين وهو ما

كان (١صم ٢٨: ١٥-١٩؛ ٣١: ١-٦).

ويكشف لنا الرب في مَثَل الغني ولعازر (لـــو ١٦: ١٩-٣١) أن **إبـــراهيم** - بعد خروجه من الجسد - كان يعلم عن موسى والأنبياء (وأسفارهم) الذين جاءوا بعده بقرون، وهو عرف بحياة الغني ولعازر. كما أن الغني بعـــد موتـــه - وهو في موضع العذاب - لا يزال يهتم بخاصته ويطلب من أجلهم.

والرب يشير إلى أن **إبراهيم** أبا الآباء - وهو في موضع الأبرار - تهلَّل بأن يرى يومه (أي مجيئه للخلاص) فرأى وفرح (يو ٨: ٥٦). ويُسجِّل الوحي عـــن **آبـــاء العهد القديم** أنهم ماتوا جميعاً في الإيمان وهم لم ينالوا المواعيد (التي تحقَّقت فيما بعد بمجيء المخلِّص)، ولكنهم **"من بعيد نظروها** (بالروح والإلهام) **وصدَّقوها وحيَّوْهـــا وأقرُّوا بأنهم غرباء ونُزلاء على الأرض"** (عب ١١: ١٣). أي أنهم ماتوا على هـــذا الرجاء، الذي لما تحقَّق أدركوا وفرحوا كإبراهيم أبيهم.

وقد سبقت الإشارة إلى أنه عند تجلِّي الرب ظهر إلى جانبيه النبيَّان: **موسى** (بعد أكثر من ١٥ قرناً من موته) **وإيليا** (بعد ما يقرب من تسعة قرون مـــن اختطافه حيّاً إلى السماء)، ليكونا شاهدَي الناموس والأنبيـــاء علـــى تحقيـــق الخلاص.

وإذا كان الرب يكشف لقديسيه في حياتهم ما خَفِيَ ويجعلهم يروْن ما لا يُرى (حتى قيل عن **صموئيل**: "كل ما يقوله يصير" - ١صم ٩: ٦؛ وعن **أليشع** أنه يعرف ما يتكلَّم به ملك آرام في مخدعه - ٢مل ٦: ١٢)، وهـــو كشف **لأليـــشع** انحراف تلميذه جيحزي (٢مل ٥: ١٥-٢٧)، **ولـــدانيال** حلم الملك بختنصَّر (دا ٢: ١٩)، **ولبطرس** انحراف حنانيا وسفيرة وكذبهما على الروح القدس (أع ٥: ١-١٠)؛ فكيف لا يهبهم هذه المعرفة وهم في الروح في رحاب الفردوس؟ فمعرفة القديسين هي في الحقيقة هبة الـــروح القدس، وليست قدرة ذاتية.

هذا عن المعرفة الموهوبة للقديسين المنتقلين ودرايتهم بما يجري لإخوتهم على الأرض. أما عن إمكاناتهم، فإذا كانت عظام **أليشع** أقامت الميت الذي طُرِحَ في قبره فمسَّها (٢مل ١٣: ٢١)، وإذا كان ظل **بطرس** (أع ٥: ١٥) ومناديل ومآزر **بولس** تشفي الأمراض وتُخرج الأرواح الشريرة (أع ١٩: ١٢)، فكم بالأَوْلى تكون قدراتهم وهم في المجد.

ويُسجِّل الكتاب – كما سبقت الإشارة – أن الأنبياء والمجاهدين كانوا يتشفَّعون بالآباء الراحلين كي يتحنَّن الله عليهم. **فيعقوب** المُطارَد من أخيه عيسو يُنادي: "**يا إله أبي إبراهيم وإله أبي إسحق**، صغيرٌ أنا عن جميع ألطافك... نجِّني من يد أخي، من يد عيسو" (تك ٣٢: ٩-١١). **وموسى** يطلب من أجل شعبه متوسِّلاً إلى الله بآبائه: "**اذكُر إبراهيم وإسحق وإسرائيل عبيدك**" (خر ٣٢: ١١-١٣؛ تث ٩: ٢٦-٢٩). وهكذا فعل **داود** وهو يسأل من أجل الشعب ومن أجل ابنه سليمان (١أخ ٢٩: ١٠-١٩)، **وسليمان** وهو يطلب من أجل إسرائيل والهيكل متشفِّعاً بآبائه **إسرائيل وداود** (١مل ٨: ٢٢-٢٦؛ ٢أخ ٦: ٤٢)، **وإيليا** وهو يتوسَّل من أجل نصرة شعبه (١مل ١٨: ٣٦-٣٨).

(٤) عن شفاعة الملائكة

أما أن الملائكة تدري بأحوالنا وتُدرك احتياجاتنا وتفرح لتوبتنا، فهذا واضحٌ من قول الرب: "**يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة... هكذا أقول لكم: يكون فرح قدَّام ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب**" (لو ١٥: ٧، ١٠).

وقبل هذا وبعده، فالكتاب يُسجِّل صراحةً أن الملائكة جميعهم "**أرواح خادمة مُرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص**" (عب ١: ١٤)، فمعونتهم للمجاهدين هي جزء أساسي من دورهم الذي وُجِدوا من أجله، وبالتالي

فطلب معونتهم يتفق وإرادة الله. ولا ننسى دور **الملائكة** في إعلان الخلاص ببشارتهم لزكريا (لو ١: ١١-٢٠)، والقديسة مريم (لو ١: ٢٦-٣٧)، ويوسف خطيبها (مت ١: ٢٠-٢٣؛ ٢: ١٣،١٩،٢٠)، والرعاة (لو ٢: ٩-١٤)، وفي شفاء المرضى "لأن **ملاكاً** كان ينزل أحياناً في البِركة (بيت حسدا) ويُحرِّك الماء. فمَن نزل أولاً بعد تحريك الماء، كان يبرأ من أي مرض اعتراه" (يو ٥: ٤).

ونستعيد هنا مشهد حلم يعقوب حيث **الملائكة** صاعدة نازلة على سُلَّم يمتدُّ بين السماء والأرض بما يشير إلى وساطتهم بين البشر والله (تك ٢٨: ١٢)، ومشهد دانيال وهو في الجُب وسط الأسود الوديعة يقول للملك داريوس: إنَّ "**إلهي أرسل ملاكه وسد أفواه الأسود فلم تضرني**" (دا ٦: ٢٢)، كما أُرسل إليه فيما بعد **ملاك** لمسه وقوَّاه وشدَّده (دا ١٠: ١٨،١٩)، وفسَّر له رؤياه (دا ١١: ١١،١٢).

ويذكر النبي زكريا أن **الملاك** توسَّل إلى الرب قائلاً: "**يا رب الجنود إلى متى أنت لا ترحم أورشليم ومدن يهوذا التي غضبتَ عليها هذه السبعين سنة**"، فأجاب الرب الملاك بكلام طيِّب وكلام تعزية: "... **والرب يُعزِّي صهيون بعدُ، ويختار بعدُ أورشليم**" (زك ١: ١٢،١٣،١٧).

وقد أشار الرب إلى عناية الملائكة بالصغار وعن موقعهم المتقدِّم في السماء عندما قال: "**انظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار، لأني أقول لكم: إن ملائكتهم في السموات كل حين ينظرون وجه أبي الذي في السموات**" (مت ١٨: ١٠).

وفي سفر الرؤيا نرى **الملائكة** ترفع إلى العرش الإلهي طلبات القديسين: "وجاء **ملاكٌ** آخر ووقف عند المذبح ومعه مبخرة من ذهب، **وأُعطي بخوراً كثيراً لكي يُقدِّمه مع صلوات القديسين جميعهم** على مذبح الذهب الذي أمام العرش. **فصعد دخان البخور مع صلوات القديسين من يد الملاك أمام الله**" (رؤ ٨: ٣-٥).

(٥) الله يقبل وساطة قديسيه

تحفل صفحات الكتاب بعهديه بتشفُّعات وصلوات القديسين وتوسُّلاتهم واستجابة الرب لِمَا يطلبون، سواء أن يرجع عن حمو غضبه فيعفو ويغفر، أو يمنح النصرة، أو يشفي، أو حتى يُقيم من الموت.

(أ) من العهد القديم

+ **فإبراهيم** توسَّل من أجل إسماعيل، فكان وعد الرب **"سأجعله أُمة لأنه نسلك"** (تك ١٧: ١٨-٢٠؛ ٢١: ١٣). وأخبر الله إبراهيم بأمر سدوم قبل أن يُنفِّذ حُكْمه فيها ليُعطيه فرصة التوسُّط عنها، وتوسَّل إبراهيم طويلاً عسى أن يكون هناك أبرار في المدينة. وكانت إجابة الرب في النهاية: **"لا أُهلك من أجل العشرة"** (تك ١٨: ١٣-٣٢)، ولكن لم يوجد عشرة أبرار يشفعون في إخوتهم، فكان أن أمطر الله "على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء" (تك ١٩: ٢٤).

+ وتوسَّل **لوط** من أجل صوغر (المدينة الصغيرة)، فلم ينلْها ما أصاب سدوم حتى مضى وسكن فيها (تك ١٩: ١٨-٢٢).

+ وصلَّى **إسحق** لأجل رفقة امرأته العاقر: **"فحبلت وولدت عيسو ويعقوب"** (تك ٢٥: ٢١).

+ وكان **أيوب** يُصعِد محرقات من أجل أولاده قائلاً: "ربما أخطأ بنيَّ وجدَّفوا على الله في قلوبهم" (أي ١: ٥).

+ ولم يكفّ **موسى** عن التوسُّل من أجل شعب إسرائيل منذ خروجهم وحتى دخولهم كنعان، وكان شفيعاً مُلحًّا ومحامياً بارعاً. وكان الرب يستجيب لشفاعته بالرغم من هول سقطات الشعب التي يصعب حصرها. ففي حربهم مع عماليق ظل موسى رافعاً يديه إلى غروب الشمس من أجل نصرتهم بقيادة يشوع (خر ١٧:

١٠-١٣). وبعد سقوطهم في عبادة العجل، صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة وسقط أمام الرب سائلاً أن يذكر وعده للآباء. ويسجِّل الكتاب: **"فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه"** (خر ٣٢: ٧-١٤؛ تث ٩: ١٦-٢٠، ٢٥-٢٩).

وفيما بعد قال **موسى** للشعب: "أنتم قد أخطأتم خطية عظيمة، فأصعد الآن إلى الرب لعلِّي أُكفِّر خطيتكم"، ورجع إلى الرب قائلاً: "آه، قد أخطأ هذا الشعب خطية عظيمة... والآن إن غفرتَ خطيتهم، وإلاَّ فامْحُني من كتابك الذي كتبتَ"، فقال الرب: **"... والآن اذهب اهْدِ الشعب إلى حيث كلَّمتك. هوذا ملاكي يسير أمامك"** (خر ٣٢: ٢١-٣٤).

ولما ضرب الرب بالوبأ المتذمِّرين من شعب إسرائيل بعد ابتلاع الأرض لقورح وداثان وأبيرام، خرَّ **موسى وهارون** على وجهيهما من أجلهم، وحسب أمر الرب أخذ هارون المجمرة ووضع البخور "وكفَّر عن الشعب... فامتنع الوبأ" (عد ١٦: ٤١-٥٠).

ولما تذمَّر الشعب وأرسل الرب الحيَّات المُحرقة فلدغت الشعب، صلَّى **موسى** لأجل الشعب، وكأمر الرب صنع حيَّة من النحاس ووضعها على الراية **"فكل مَن نظر إليها كان يحيا"** (عد ٢١: ٤-٩).

+ ويُسجِّل الكتاب صلوات كثيرة **لصموئيل** من أجل إسرائيل، ففي حربهم مع الفلسطينيين **"صرخ صموئيل إلى الرب فاستجاب له"** (١صم ٧: ٥،٩؛ ١٢: ٢٣).

+ ويحفل الكتاب بتوسُّلات **داود**، وهكذا صلَّى من أجل بيته وشعبه: "والآن أيها الرب الإله أقِم إلى الأبد الكلام الذي تكلَّمتَ به عن عبدك وعن بيته... وليكن بيت عبدك داود ثابتاً أمامك... **لأنك أنت يا سيدي الرب قد تكلَّمتَ، فليُبارَك بيت عبدك ببركتك إلى الأبد"** (٢صم ٧: ١٨-٢٩؛ ١أخ ١٧: ١٦-٢٧). وقد وضع **داود** كل ثقته في الرب، ومن هنا كان يقول: "فلنسقط في يد الرب لأن مراحمه كثيرة، ولا أسقط في يد إنسان" (٢صم ٢٤: ١٤).

وفي أواخر أيامه ضرب الرب إسرائيل بالوبأ، فكلَّم **داود** الرب قائلاً: "ها أنا أخطأتُ وأنا أذنبتُ، وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا؟ فلتكن يدك عليَّ وعلى بيت أبي... وبنى داود مذبحاً للرب وأصعد محرقات وذبائح سلامة. **واستجاب الرب من أجل الأرض، فكفَّت الضربة عن إسرائيل**" (٢صم ٢٤: ١٧،٢٥).

+ وهكذا أيضاً توسَّل **سليمان** إلى الرب عند تدشين الهيكل من أجل شعبه: "اسمع تضرُّع عبدك وشعبك إسرائيل الذين يُصلُّون في هذا الموضع... فاسمع أنت من السماء، واغفر خطية شعبك إسرائيل وأرجعهم إلى الأرض التي أعطيتها لآبائهم" (١مل ٨: ٢٢-٥٣).

+ **وإيليا النبي** "**صلَّى صلاة أن لا تمطر، فلم تُمطر على الأرض ثلاث سنين وستة أشهر، ثم صلَّى أيضاً فأعطت السماء مطراً**" (١مل ١٧: ١؛ ١٨: ٤١-٤٥؛ يع ٥: ١٧،١٨). ووسط هذا الجفاف، ظل "**كوار الدقيق لا يفرغ، وكوز الزيت لا ينقص**" في بيت أرملة صرفة صيدون ببركة الرب على يد إيليا (١مل ١٧: ٨-١٦). كما استجاب الرب لصراخ **إيليا** من أجل ابن الأرملة الميت "**فسمع الرب لصوت إيليا، فرجعت نفس الولد إلى جوفه، فعاش**" (١مل ١٧: ٢٢). واستجاب الرب لتضرُّعه من أجل الشعب أمام أنبياء البعل (١مل ١٨: ٣٩)، وبصلاته نزلت نار من السماء مرةً فأكلت المحرقة (١مل ١٨: ٣٨) ومرتين فأحرقت الذين جاءوا ليمسكوه (إيليا) (٢مل ١: ١٠-١٢).

+ وطلب **أليشع** من أجل المرأة الشونمية التي أضافته، **فوهبها الله ابناً** (٢مل ٤: ١٤-١٧)، ولما مات "**صلَّى إلى الرب**" واضطجع عليه **فقام من الموت** (٢مل ٤: ٣٢-٣٥). ولما حاصر جيش أرام مدينة دوثان للقبض على أليشع، اضطرب تلميذه جيحزي جداً وامتلأ خوفاً، **فصلَّى أليشع من أجله** "ففتح الرب عيني الغلام فأبصر وإذا الجبل مملوءٌ خيلاً ومركباتِ نارٍ حول أليشع"، وضرب الرب الأراميين بالعَمَى "كقول أليشع" (٢مل ٦: ١٤-١٨).

+ وصلَّى **حزقيَّا** الملك الصالح من أجل الذين أكلوا الفصح و لم يتطهَّروا "**فسمع الرب لحزقيَّا وشفى الشعب**" (٢أخ ٣٠: ٢٠).

وأمام تهديد سنحاريب ملك أشور وصعوده على مدن يهوذا وإثارته الشعب ضد حزقيَّا الملك، صلَّى ومعه **إشعياء بن آموص** النبي "وصرخا إلى السماء. **فأرسل الربُّ ملاكاً فأباد كل جبارِ بأسٍ ورئيس وقائد في محلَّة ملك أشور. فرجع بخزي الوجه إلى أرضه... وخلَّص الرب حزقيَّا وسكان أورشليم**" (٢مل ١٩: ١٤-٣٧؛ ٢أخ ٣٢: ١-٢٢).

+ ويُسجِّل الكتاب صلاة **نحميا** وصومه ونوحه من أجل أورشليم المتهدِّمة (نح ١: ١-١١) وطلبه مساعدة الملك أرتحشستا "فأعطاني الملك حسب يد إلهي الصالحة عليَّ" (نح ٢: ٨)، وقال لَمن أرادوا أن يُثبِّطوا همته: "**إن إله السماء يُعطينا النجاح ونحن عبيده نقوم ونبني**" (نح ٢: ٢٠).

+ و لم يتوقف سائر الأنبياء عن التشفُّع من أجل شعب إسرائيل. فيذكر الكتاب صراخ **حزقيال** (حز ٩: ٨)، وطلبة **دانيال** "بالصلاة والتضرُّعات، بالصوم والمسح والرماد" (دا ٩: ٣-٢٧)، وتوسُّل **عاموس** (عا ٧: ٢-٦).

(ب) من العهد الجديد

+ في أولى معجزات الرب (يو ٢: ١-١١) حيث دُعِيَ هو وأُمه إلى عُرْس في قانا الجليل، وإذ نفد الخمر وأدركت العذراء حرج أهل العُرس، تقدَّمت من ابنها تُخبره بالأمر دون أن تطلب شيئاً. ولأنها وضعت ثقتها في ابنها القادر على سدِّ الأعواز، قالت للخُدَّام: "**مهما قال لكم فافعلوه**"، وهو طلب أن يملأوا الأجران ماءً، ثم قال لهم الرب: "**استقوا الآن**".

وما قامت به العذراء هو مهمة **الوسيط** أو **الشفيع**. فالرب يُساند احتياجات السائلين عند "الذي معه أَمْرُنا" (عب ٤: ١٣) بالنهج الذي يراه، استجابةً أو رفضاً أو في الوقت المُعيَّن. وفي هذه المعجزة بالذات، رغم تحفُّظ المسيح في البداية (باعتبار

أن موعد إجراء المعجزات لم يأت بعد، لأن هذا يُعجِّل بساعة الصليب إذ قال: "لم تأت ساعتي بعد")، إلاَّ أن دالة المحبة التي تربطه بأُمه القديسة التي اقتربت منه جسداً وروحاً كما لم يقترب إليه أحد أدركتها العذراء تُغلِّف كلماته، وهذا ما ملأها ثقة في استجابته. ومن هنا كانت كلماتها القاطعة للخدام، كما أن هذه الدالة هي التي جعلته يستجيب لوساطتها، وهي نفس شفاعتها المستمرة إلى مدى الأيام.

وهي أيضاً رسالة كل قدِّيسي الكنيسة الذين يُصلُّون عنا ويرفعون طلباتنا إلى العرش السماوي، حيث "**الشفيع الكامل**" هاتفين بنا "**ارفعوا أعينكم** (إليه) **وانظروا**" (يو ٤: ٣٥)، و"**مهما قال لكم فافعلوه**" موجِّهين قلوبنا إلى طاعته.

+ كثيرون مؤمنون تقدَّموا للمسيح، سواء بدموعهم أو بتوسُّلاتهم، طالبين الشفاء أو حتى الإقامة من الموت لآخرين؛ فتحنَّن الرب واستجاب لهم، أي لشفاعتهم، وشفى مرضى لم يتكلَّموا أو يُعلنوا إيمانهم، وبعضهم نالوا الشفاء دون أن يراهم.

– **فالأصدقاء الأربعة** حملوا المفلوج ودلُّوه من السقف أمام المسيح: "**فلما رأى يسوع إيمانهم**، قال للمفلوج: ثق يا بني، **مغفورة لك خطاياك... قُمْ واحمل فراشك واذهب إلى بيتك**" (مت ٩: ٢،٦؛ مر ٢: ٥،١١؛ لو ٥: ٢٠،٢٤).

– وأرسل قائد المئة **شيوخ اليهود** يتوسَّطون له عند الرب يسوع من أجل شفاء عبده، فجاءوا إلى الرب وتوسَّلوا قائلين: "إنه مستحق أن يُفعَل له، لأنه يحب أُمتنا وهو بنى لنا المجمع. **فذهب يسوع معهم**". فالرب قَبِلَ شفاعتهم وذهب لشفاء العبد المشرف على الموت. ولكن عين الرب كانت أيضاً على **توسُّل قائد المئة** نفسه واتضاعه الذي قال: "لستُ مستحقاً أن تدخل تحت سقفي، لكن قُلْ كلمة فقط فيبرأ غلامي". وتعجَّب الرب واصفاً إيمان قائد المئة أنه فاق كل مَن في إسرائيل، قائلاً له: "**اذهب وكما آمنتَ ليكُن لك**"، "**فبرأ غلامه في تلك الساعة**" (مت ٨: ٥–١٣؛ لو ٧: ٢–١٠).

– ورئيس المجمع **يايرس** توسَّل إلى الرب من أجل ابنته الصغيرة الوحيدة المشرفة على الموت، وفي الطريق إلى البيت جاء مَن أخبر بموتها، ولكن الرب قال لرئيس المجمع: "**لا تخف. آمن فقط**". ودخل إلى البيت وأمسك بيد الصبية، **فقامت ومشت** (مت ٩: ١٨،١٩، ٢٣-٢٥؛ مر ٥: ٢٢-٢٤، ٣٥-٤٢؛ لو ٨: ٤١،٤٣، ٤٩-٥٦).

– واستجاب الرب لتوسُّل **المرأة الكنعانية** وصراخها من أجل ابنتها ذات الروح النجس الذي أفقدها عقلها، وامتدح إيمانها قائلاً: "ليكن لكِ كما تريدين"، "**فشُفِيَت ابنتها** (وهي في البيت) **من تلك الساعة**" (مت ١٥: ٢١-٢٨؛ مر ٧: ٢٤-٣٠).

– بل إن الرب تحنَّن على **الأرملة الباكية**، ودون أن تتكلَّم لمس نعش ابنها الوحيد وأقامه من الموت ودفعه إلى أُمه (لو ٧: ١١-١٦).

– ومن أجل توسُّل **الرجل** من أجل ابنه المصروع، "انتهره يسوع فخرج منه الروح النجس (الأخرس الأصم). **فشُفِيَ الغلام من تلك الساعة**" (مت ١٧: ١٤-١٨؛ مر ٩: ١٧-٢٧؛ لو ٩: ٣٨-٤٢).

– واستجاب الرب يسوع لدموع **مريم ومرثا** من أجل أخيهما لعازر، **فأقامه بقوته بعد أربعة أيام من موته** (يو ١١: ١-٤٤).

– ولا ننسى صلاة **الكنيسة** من أجل بطرس السجين تمهيداً لقتله، فأرسل الرب ملاكه الذي **أطلقه من سجنه** (أع ١٢: ٣-١٩).

– وقد وهب الرب تلاميذه عندما أرسلهم أن يصنعوا قوات: "**اشفوا مرضى، طهِّروا بُرْصاً**" (مت ١٠: ٨).

وأكثر من هذا كان قول الرب: "الحق الحق أقول لكم: **مَن يؤمن بي**، فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها... **ومهما سألتم باسمي**، فذلك أفعله ليتمجَّد الآب بالابن... إن سألتم شيئاً **باسمي** فإني أفعله" (يو ١٤: ١٢-

١٤). فهذا وعد صريح من الرب لقديسيه أنه يستجيب لسؤالهم باسمه، كما أنه وهب **"مَن يؤمن به"** أن يعمل أعماله وأعظم منها.

وها هو سفر الأعمال يُسجِّل أن الناس كانوا يضعون المرضى في الشوارع حتى إذا جاء بطرس **"يُخيِّم ولو ظله على أحد منهم" لشفائه** (أع ٥: ١٥)، كما كان يُؤتى عن جسده (أي جسد بولس) بمناديل أو مآزر إلى المرضى، **فتزول عنهم الأمراض وتخرج الأرواح الشريرة منهم"** (أع ١٩: ١٢).

وأقام بطرس الرسول طابيثا (غزالة) خادمة الأرامل الذين توسَّلوا باكين من أجل إقامتها (أع ٩: ٣٦-٤١). وفي ترواس **أقام بولس الشاب أفتيخوس** الذي سقط ميتاً من الطابق الثالث (أع ٢٠: ٩-١٢).

ثانياً: بين المسيح وقديسيه

(١) وساطة المسيح ووساطة قديسيه .. موضوع واحد

ينظر بعض علماء الكتاب المقدس[٥] إلى وساطة المسيح ووساطة القديسين في العهدين باعتبارهما موضوعاً واحداً، رغم تميُّز كل منهما عن الآخر، ولكن يربط بينهما ما يربط بين الأصل والرمز.

+ **فوسطاء العهد القديم** كانوا رمزاً للوسيط الواحد، يُبشِّرون به ويشيرون إليه ويتنبَّأون عنه:

آدم (رأس الخليقة القديمة). **وأخنوخ** المُبشِّر بمجيء الرب (يه ١٤). **ونوح** (الذي أنقذ ما بَقِيَ من العالم القديم - ٢بط ٢: ٥). **وإبراهيم** (الذي به تتبارك جميع عشائر الأرض - تك ١٢: ٣). **وملكي صادق** (ملك السلام وكاهن الله العلي - تك ١٤: ١٨؛ عب ٥: ٦؛ ٧: ١-١٠). **وموسى** (قائد الخروج وحامل الناموس - غل ٣: ١٩،٢٤؛ والمتشفِّع مراراً عن خطايا الشعب -

(٥) معجم اللاهوت الكتابي - دار المشرق - بيروت.

غل ٣: ٨،١٤).

وبعد موسى تولَّى الوساطة **اللاويون** الذين يُذكِّرون الشعب بحفظ الوصايا (عد ٦: ٢٤-٢٧)، **فالقضاة** (قض ٦: ٣٤)، ثم **الملوك** الذين يمسحهم الروح (أي يصيروا مسحاء - ١صم ٩: ١٦؛ ١٠: ٦؛ ١٦: ٣)، ثم **الأنبياء** حاملو رسالة الله والذين يشفعون في الشعب كما فعل **صموئيل** (١صم ٧: ٩؛ ١٢: ٢٣)، **وإرميا** (إر ٧: ١٦؛ ١١: ١٤؛ ١٤: ١١؛ ١٥: ١١؛ ١٨: ٢٠؛ ٤٢: ٢)، **وحزقيال** (حز ٩: ٨؛ ١١: ١٣؛ ٣٣: ١-٩؛ ٣٩: ١٧-٢١)، **وعاموس** (عا ٧: ١-٦)، **والمعمدان** (الملاك الذي يُهيِّئ الطريق قدَّام الرب ويُبشِّر به ويُعلنه كحمل الله الذي يرفع خطية العالم، وهو صديق العريس الذي يفرح بأن يتمجَّد مخلِّص العالم ويتوارى هو بعد أن يؤدِّي رسالته - إش ٤٠: ٣؛ مل ٣: ١؛ مت ٣: ٣؛ مر ١: ٢-٤؛ يو ١: ٢٣)، **والملاك جبرائيل** (الذي يُمهِّد للعهد الجديد ببشارته للعذراء - لو ١: ٥-٣٨)، **ويوسف** (مت ١: ١٨-٢٥)، **وأليصابات** (لو ١: ٤١-٤٥)، **وسمعان وحنَّة** (وهم ضمن المنتظرين الفرج لإسرائيل، يستقبلون المخلِّص - لو ٢: ٢٥-٣٨).

ومن خلال **مريم العذراء** استقبلت البشرية **يسوع**، والتحم يسوع بالبشرية.

+ أما المسيح فهو الوسيط الحقيقي للعهد الجديد الأعظم والأفضل (إر٣١: ٣١؛ ١تي ٢: ٥؛ عب ٥: ٥؛ ٨: ٦؛ ٩: ١٥؛ ١٠: ٧-٩؛ ١٢: ٢٤) بين الله والناس، الذي جمع في شخصه الله والإنسان (عب ١: ٢،٣؛ ٢: ١٤)، والذي به يتقدَّم البشر إلى الآب (عب ٧: ٢٥)، وهو يموت ويقوم من أجل الجميع (٢كو ٥: ١٥)، ثم يأتي في آخر الأيام للدينونة (مت ٢٦: ٦٤؛ عب ٩: ٢٨؛ رؤ ٢٢: ١٢)، ويدوم مُلْكه إلى الأبد (دا ٧: ١٣،١٤،٢٧؛ مت ٢٨: ٢٠؛ رؤ ١: ١٨).

وفي شخص المسيح، وهو نسل **إبراهيم** (غل ٣: ١٦)، يرث إسرائيل والأُمم

البركات التي وعد الله بها إبراهيم. وهو **موسى** الجديد، القائد لخروجٍ جديد، ورأس شعب الله الجديد بصفته الابن وليس العبد (عب ٣: ١-٩). وهو **الملك** ابن داود (مت ٢١: ٤-٩)، وفي ذات الوقت هو **العبد** الذي تنبَّأ عنه إشعياء (إش ٤٢: ١-٤؛ مت ١٢: ١٨-٢١) وزكريا (زك ٣: ٨). وهو **النبي** الذي يُبشِّر بالخلاص ويُحقِّقه (تث ١٨: ١٥؛ إش ٤٩: ٦،٨؛ ٥٣: ١٠،١٢؛ ٦١: ١-٣؛ أع ٣: ٢٢). وهو **الكاهن** العظيم الذي دخل إلى الأقداس بذبيحة نفسه فوجد فداءً أبدياً (عب ٧: ١٧،٢١،٢٦؛ ٩: ١٢؛ ١٠: ٢١). وهو **الهيكل** الذي لم تصنعه أيدي الناس (يو ٢: ١٩-٢١؛ عب ٩: ١١). وهو **الوسيط الحي والشفيع الأبدي** (عب ٧: ٢٥).

+ ولكن **وساطة المسيح** لا تنهي دور البشر في تاريخ الخلاص، ففي وساطته هو يُكلِّف أعضاء جسده **برسالة** يؤدُّونها نحو كنيسته:

فأيام حياته على الأرض أرسل **تلاميذه** للبشارة بالخلاص والملكوت (مت ١٠: ٧) للعالم أجمع ولكل الأجيال (مت ٢٨: ١٩،٢٠)، وهي الوساطة التي يُمارسها المسيح بصورة غير منظورة، بينما يقوم رسله بالكرازة وخدمة الكلمة والأسرار في اسمه (أع ٢: ٣٨؛ ١يو ٢: ١٢).

وبدءاً من **العنصرة** يفيض المسيح الروح على كنيسته. ومنذ ذلك الزمان ليس هناك إلاَّ **"جسد واحد، وروح واحد... رب واحد، إيمان واحد، معمودية واحدة. إله واحد وآب واحد"** (أف ٤: ٤-٦). وبالمعمودية يلتحم أعضاء جُدُد بهذا الجسد، وبوضع الأيدي يُمنح الروح (أع ٨: ١٤-١٧) ويكفل الروح حياة جسد المسيح (الكنيسة) ونموها بتوزيع المواهب المختلفة (١كو ١٢).

وبعض أعضاء الكنيسة مُكرَّسون (الأساقفة والكهنة والشمامسة) امتداداً لعمل الرسل. وهم ليسوا وسطاء بمعنى الكلمة، فهُم لا يُضيفون إلى عمل **الوسيط الوحيد،**

وهم ليسوا إلاَّ **الوسائل** التي يصل بها عمل الوسيط إلى جميع الشعب ("**باسم يسوع الناصري**" – أع ٣: ٦). وحالما يلتحق هؤلاء برئيسهم بانتقالهم، فإنهم – وهم المنتصرون في السماء – **يُقدِّمون صلوات قدِّيسي هذه الأرض** الذين ما زالوا يواصلون جهادهم (رؤ ٥: ٨؛ ٧: ١–٨؛ ١١: ١٨؛ ١٢: ٦،١٤؛ ٢٢: ١٧)، متطلِّعين إلى الله أن يُعينهم في تجاربهم (عب ٢: ١٨) ويُعجِّل بساعة عدله (رؤ ٦: ٩–١١؛ ٨: ٢–٥؛ ٩: ١٣).

(٢) المسيح وقدِّيسوه

نحن لا نستطيع أن نفصل المسيح عن أُمه العذراء وملائكته وتلاميذه وجموع مؤمنيه. فهم كانوا حوله أيام جسده. لم ينفرد عنهم ليكون وحده إلاَّ عندما كان يُصلِّي (مت ١٤: ٢٣؛ مر ١: ٣٥؛ ٦: ٤٦؛ لو ٥: ١٦؛ ٦: ١٢؛ ١١: ١). فصورة المسيح التي أهداها إلينا هي **صورة جماعية**. والقديس بولس يصف مشهد المؤمنين السائرين مع الرب كأنه "**موكب المنتصرين**" (٢كو ٢: ١٤).

+ فالرب لم يتزل من السماء مباشرة وإنما جاء متَّصلاً بالإنسان: "**مولوداً من امرأة، مولوداً تحت الناموس**" (غل ٤: ٤). ومنذ اللحظة الأولى لظهوره للعالم هو مع أُمه العذراء وحوله ملائكته يهتفون له (لو ٢: ١٣،١٤) ويخدمونه (مت ٤: ١١؛ مر ١: ١٣؛ لو ٢٢: ٤٣).

+ ولما بدأ الرب خدمته واختار تلاميذه ورسله، تفرَّغوا للكرازة **وكانوا دائماً معه، وهو دعاهم إخوته** (مت ١٢: ٤٩). وبالطبع كان هناك دوماً الأفراد والجموع الذين يسمعون كلامه (مت ٥: ١) أو المحتاجون إليه (لو ٩: ١١)، الذين كان يتحنن عليهم ويُعاملهم كغنم شاردة فقدت راعيها (مت ٩: ٣٦)، فصار لها **الراعي الصالح** (يو ١٠: ١١، ١٤–١٦).

+ وحتى في أيامه الأخيرة، في جثسيماني وعند الصليب وساعة الدفن وحول القبر وعند القيامة وخلال الأربعين يوماً التالية حتى الصعود؛ **كانت الملائكة** (مت ٢٨: ٢-٧؛ مر ١٦: ٥-٧؛ لو ٢٢: ٤٣؛ ٢٤: ٤-٧؛ يو ٢٠: ١٢،١٣؛ أع ١: ١٠،١١) **والعذراء وتلاميذه والمريمات ومحبوه حوله يتلقّون وعوده ويُشاركونه بعض آلامه** (حتى وإن بدا تخاذُل بعضهم) **ويحتفون بمجد قيامته وينصتون بفرح إلى وصاياه الأخيرة ويحضرون مشهد ارتفاعه المهيب مع ملائكته ويسمعون صدى وعده الأخير لهم وإلى كنيسته من بعدهم: "ها أنا معكم كل الأيام، إلى انقضاء الدهر"** (مت ٢٨: ٢٠).

+ وفي اليوم الأخير، لن يظهر الرب في مجده منفرداً بل يقول الكتاب: "ومتى جاء ابن الإنسان في مجده **وجميع الملائكة القديسين معه**" (مت ٢٥: ٣١)، و"هوذا قد جاء الرب **في ربوات قديسيه**" (يه ١٤)، فهُم **سحابة الشهود** (عب ١٢: ١) التي ساندت جهاد الذين على الأرض وكانوا القدوة والمثال في الإيمان ومغالبة التجارب حتى النهاية، والكنيسة إذ تطلب مؤازرة القديسين وصلواتهم فإنما باعتبارهم "**كهنة لله والمسيح**" (رو ٢٠: ٦).

+ وكما يقول القديس دوروثيئوس "**هكذا بقدر ما نقترب من القديسين نقترب من المسيح، وبقدر ما نقترب من المسيح نقترب من القديسين بالضرورة**":

فنحن فيهم نمجِّد الله صانع خلاصهم ومصدر قداستهم الذي **أحبوه** (كما أحبهم هو أولاً - ١يو ٤: ١٩) والتصقوا به **وانتسبوا إليه** (وانتسب إليهم) **وماتوا فيه أو من أجله** (إن كانوا شهداء) (كما مات لأجلهم - ٢كو ٥: ١٥) **وبشَّروا باسمه**، كما يُكرم العبد من أجل سيده والابن لأجل أبيه. فإكرام القديسين لا ينتقص بأي حال من تمجيدنا لله، بل على العكس، **فإكرام القديسين إكرام لله سيدهم وتاج رأسهم، ورذلهم وإهانتهم** (أو حتى إهمالهم) **ينسحب على مَن أرسلهم.**

والله يفرح بأعضاء قطيعه الصغير الذين ارتبطوا به وتمسَّكوا برعايته لهم وظلوا مُخْلِصين أمناء له حتى الموت، فأنعم لهم بإكليل الحياة، **وأتاح لهم في المجد أن يظلوا يخدمون أعضاءه المجاهدة على الأرض ويساندوهم بالصلاة والطلبة في شركة لا تنفصم، وأن تجري على أيديهم المعجزات باسم الرب.**

+ هذا لا يُغيِّر من واقع الأمر أن الرب هو **الأصل والمرجع "الذي به جميع الأشياء ونحن به"** (١كو ٨: ٦)؛ وهو **المخلِّص الوحيد** الذي لا خلاص لأحد بغيره (أع ٤: ١٢)؛ وهو **القدوس** وحده الذي يُقدِّس الكل (أف ٥: ٢٦)؛ وهو **النور الحقيقي** الذي ينير كل إنسان (يو ١: ٩)؛ وهو **الإله الحقيقي** وحده، والرسل والقديسون هم خدَّامه وشهوده الأمناء؛ وهو **الكرمة الحقيقية**، والقديسون وسائر المؤمنين هم الأغصان (يو ١٥: ١،٥)، فهو مصدر الحياة والنمو والقوة؛ وهو **حجر الزاوية** في بنيان الكنيسة والرسل والأنبياء، يُكمِّلون الأساس الذي يقوم عليه بناء جماعة المؤمنين (أف ٢: ٢٠)؛ وهو **رئيس الإيمان ومُكمِّله** (عب ١٢: ٢)؛ **ورأس الجسد الكنيسة** (أف ١: ٢٢؛ ٥: ٢٣؛ كو ١: ١٨)، والمؤمنون أعضاء جسده (رو ١٢: ٥؛ ١كو ١٢: ١٢،٢٧؛ أف ٥: ٣٠) الذين لا ينفصلون عنه ولا ينفصل عنهم؛ وهو **رب البيت** (مت ١٠: ٢٥؛ ١٣: ٢٧،٥٢؛ ٢٠: ١،١١؛ ٢١: ٣٣؛ مر ١٣: ٣٥؛ لو ١٣: ٢٥)، والقديسون هم رعيته وخاصته (يو ١٠: ١٤) وأهل بيته (أف ٢: ١٩)؛ وهو **رئيس كهنتنا العظيم** (عب ٤: ١٤؛ ٧: ٢٦) الذي يشفع فينا بدمه حتى اليوم الأخير، وشفاعته فينا ليست صلاة وتوسُّلاً مثل شفاعة القديسين وصلواتهم، وإنما بدخوله بدمه إلى الأقداس مرة واحدة (عب ٩: ١٢) وبوجوده الدائم في عرش الله بجسده الممجَّد الذي يحمل آثار جراح الصليب علامات محبته الأبدية **"لأن به لنا... قدوماً في روح واحد إلى الآب"** (أف ٢: ١٨)، وفيه تُقبل طلباتنا وصلوات القديسين المرفوعة عنا أمام الله الآب **"لأن**

المسيح لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيدٍ أشباه الحقيقية، بل إلى السماء عينها ليَظهَر الآن أمام وجه الله لأجلنا" (عب ٩: ٢٤)، والقديسون يجدون دالتهم في المسيح الذي لا يستطيع أحـــد أن يدخل إلى الآب إلاَّ بـــه (يو ١٤: ٦).

(٣) نحن والقديسون

+ إن تشفُّعنا بالقديسين ينبع من **محبتنا** للإخوة، وفي المقدمة لأهل بيت الـــرب وأحبَّائه (يو ١٥: ١٥). فحديثنا إليهم وطلب صلواتهم ومساندتهم لنا في شـــدائدنا بالتوسُّل إلى المخلِّص، هو علامة **وحدتنا** في المسيح: **"ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا... كما أننا نحن واحـــد. أنـــا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مُكمَّلين إلى واحد"** (يو ١٧: ٢١-٢٣). **وشـــركتنا** في المسيح تُحرِّضنا على محبة بعضنا بعضاً: **"هذه هي وصيتي أن تحبوا بعـــضكم بعـــضاً كمـــا أحببتكم... بهذا أوصيكم حتى تحبوا بعضكم بعضاً"** (يو ١٥: ١٢،١٧).

كما أننا في طلب معونة القديسين نمارس **اتـــضاعنا** الذي يُطالبنا به الإنجيل: **"تعلَّموا مني لأني وديع ومتواضع القلب"** (مت ١١: ٢٩)، **"مَن يـــضع نفـــسه يرتفع"** (لو ١٨: ١٤)، **"فتواضعوا تحت يد الله القوية لكي يـــرفعكم في حينـــه"** (١بط ٥: ٦)، **"اتضعوا قدَّام الرب فيرفعكم"** (يع ٤: ١٠)، وذلك عندما نشعر بحاجتنا إلى المساندة وإلى صلوات إخوتنا المتقدِّمين على الأرض وفي السماء.

وتظل المحبة ومشاركة الإخوة آلامهم هي أيضاً دوافع القديسين للاهتمـــام بإخوتهم الذين في العالم واستجابة صلواتهم، ومِن ثمَّ التوسُّل إلى الله من أجلهم.

+ إن التخوُّف من اختلاط الأدوار في أذهان بعض المـــؤمنين والتـــصاقهم الشديد بالقديسين لا يُبرِّر استبعاد القديسين من حياة الكنيسة ليكون المـــسيح وحده. وبالعكس فإن وجود هؤلاء حول المسيح يُجدِّد إيمان المجاهدين ويرفـــع أشواقهم ليأخذوا هم أيضاً موقعهم حول الرب عند مجيئه في اليوم الأخير.

أما إذا كان بعض البسطاء في محبتهم للعذراء أو الملائكة أو القديسين يغفلون عن التصاقهم بأصل كل شيء فينشغلون بالقديسين عن إظهار حبهم لقدوس القديسين، فهُم فقط يحتاجون إلى تحويل نظرهم إلى العريس الجالس في الصدارة، وهو واسطة العقد في السماء الذي يتحلّق حوله سكان السماء ويستمدون منه كل نعمة وينتظرون أمره وتوجيهه، وهو لا يغار من أحد فهو **الذي يملأ الكل في الكل** (أف ١: ٢٣).

كما أن القديسين ليسوا غرماء المسيح لكي يُفاضل المؤمن بينهما، بل هم خاصة الرب وموضع محبته، وهم لا يمكن أن يطلبوا مجد أنفسهم أو أن يحجبوا شخص المسيح لأنه كان وسيبقى غايتهم إلى المنتهى. فالمعمدان يقول: "**مَن له العروس فهو العريس... وأما صديق العريس الذي يقف ويسمعه فيفرح فرحاً... ينبغي أن ذلك (المسيح) يزيد وأني أنا أنقص**" (يو ٣: ٢٩، ٣٠). وبطرس بعد شفاء المُقعد يُعلن بأعلى صوت: "**ما بالكم تتعجبون من هذا، ولماذا تشخصون إلينا، كأننا بقوتنا أو تقوانا قد جعلنا هذا يمشي... إن.. إله آبائنا مجَّد فتاه يسوع... وبالإيمان باسمه، شدَّد اسمه هذا الذي تنظرونه وتعرفونه**" (أع ٣: ١٢-١٦). وبولس يشير إلى سر نجاح خدمته بقوله: "**لا أنا بل نعمة الله التي معي**" (١كو ١٥: ١٠)، جاعلاً المسيح قدوته "**كونوا متمثِّلين بي كما أنا أيضاً بالمسيح**" (١كو ١١: ١). كما أن ظهور العذراء فوق كنيستها بالزيتون (١٩٦٨/٤/٢) بقدر ما أثار من موجات الحب لأُم الإله، أثار موجة من التوبة وتجديد الحياة والتحوُّل إلى الإيمان.

أما الذين تخفُت علاقتهم بالمسيح والإنجيل بالفعل، ولا يبقى لهم من تدينهم غير زيارات الأديرة والكنائس والاهتمام بأعياد القديسين والاستنجاد بهم في محنتهم، فهؤلاء بالتدريج تضعف روحياتهم وتدب البرودة في قلوبهم وتتحوَّل

حياتهم إلى الشكلية. وهذه خسارة لن يعالجها إلاَّ توبة حقيقية تُصحِّح نهجهم الإيماني وتقودهم إلى أحضان الرب وسط قديسيه.

+ وفي نفس الوقت، فإنَّ ضعف العلاقة بالقديسين ليست أمراً إيجابياً، فإهمالنا لهم والترفُّع عن الاتصال بهم أو التعامُل معهم قد يشير إلى كبرياء مستترة قد تودي بنا، حتى لو قلنا إننا لا نحتاج لغير الله، **لأن علاقتنا بالله لا تتناقض بل تتكامل مع علاقتنا بقديسيه**. فلماذا في غفلتنا نستغني عن معونة تنتظر أن نطلبها ونرفض محبة لا تطلب ما لنفسها؟ وماذا يضير أن نتمتع بمساندة في الضيقات ممَّن جازوها مثلنا وهم الآن مُكلَّلون بالمجد، طالما ظل لنا المسيح الطريق والحق والحياة وكلمته نور الطريق؟ ولا ننسى أن الله يحثنا على طلب وساطة قديسيه، ففي ختام محنة أيوب آخَذ الرب أصدقاءه لأنهم لم يقولوا فيه الصواب وطالَبهم بالتوبة، وأن يذهبوا إلى عبده أيوب، وأن يُصعِدوا محرقة لأجل أنفسهم "**وعبدي أيوب يُصلِّي من أجلكم**" (أي ٤٢: ٧،٨).

+ **ولكن شفاعة القديسين ليست مطلقة، بل هي خاضعة لمشيئة الله** (رو ٨: ٢٧). **ولابد لَمن يطلب الشفاعة أن يكون طائعاً للوصية ويحيا في الإيمان بما يجعله يُسلِّم لَمن يقضي بعدل** (١بط ٢: ٢٣) **ويشكر حتى لو كانت الإجابة بلا**، والقانون الإلهي صريح أنه: "**بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه، لأنه يجب أن الذي يأتي إلى الله يؤمن بأنه موجود، وأنه يُجازي الذين يطلبونه**" (عب ١١: ٦).

+ إن "**ذبيحة الأشرار مكرهة الرب**" (أم ١٥: ٨)، والنفعيون المراؤون الذين يعبدون الرب بشفاههم ولا يلجأون إلى الله إلاَّ وقت الشدة ويحوِّلون وجوههم عنه سائر الأوقات، لن ينالوا شيئاً من عند الرب (يع ١: ٧) حتى لو استنجدوا بكل الملائكة والقديسين، ولو صلَّى من أجلهم الجميع. فتوسُّل موسى وهارون من أجل بني إسرائيل - المتذمِّرين على أبواب كنعان - طالبين أن "اصفح عن ذنب هذا الشعب

كعظمة نعمتك"، لم يجد صداه عند الرب الذي حرمهم من دخول الأرض قائلاً: **"حيٌّ أنا... إن جميع الذين رأوا مجدي وآياتي... وجرَّبوني الآن عشر مرات، ولم يسمعوا لقولي، لن يروا الأرض التي حلفت لآبائهم. وجميع الذين أهانوني لا يرونها"** (عد ١٤: ١-٢٣)؛ والنبي صموئيل (بروحه) قال للملك شاول الذي طلب وساطته: "لماذا تزعجني والرب قد فارقك" (١صم ٢٨: ١٦)؛ والله طلب من إرميا ألاَّ يُصلِّي من أجل الشعب الشرير مؤكِّداً **"ولا تلح عليَّ لأني لا أسمعك"** (إر ٧: ١٦).

+ إن الله قد منحنا الصلاة باباً مفتوحاً إلى عطاياه وتحنُّنه، كما أنعم على كل مؤمن بمساندة إخوته بالتوسُّل والطلبة. فالذين يقولون بعدم جدوى صلاة المؤمن أو طلبات القديسين من أجله لأن هذا لن يُغيِّر من إرادة الله، هم مخطئون؛ لأن الله هو الذي دعانا أن نطلب (مت ٧: ٨)، كما أن إرادة الله هي دوماً للخير، ومحبته للإنسان غير محدودة، ومكتوب عنه أنه لا يُسر بموت الشرير بل بأن يرجع عن طريقه ويحيا (حز ٣٣: ١١؛ ٢بط ٣: ٩)، وأن قمة عطائه ببذل ابنه من أجل خلاص العالم تضمن أن يُعطينا ما نطلب: **"الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين، كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء"** (رو ٨: ٣٢)؟ طالما أننا نطلب بحسب مشيئته (مت ٦: ١٠؛ لو ١١: ٢)، وأن غايتنا هي **"ملكوت الله وبره"** (مت ٦: ٣٣).

ثالثاً : الكنيسة وشفاعة القديسين

(١) في ليتورجيا الصلوات والتسبيح

تحفل "تسبحة الكنيسة السنوية والكيهكية" (والتي تضمها كتب الإبصلمودية أي التسبحة) بطلب شفاعات القديسين وصلواتهم (الثيئوطوكيات

– الخاصة بالعذراء – ومجمع القديسين) وتمجيدهم، مُرافقاً لتسبيح الله وتمجيده (الذكصولوجيات والهوسات والإبصاليات) والتغنِّي بالمزامير والأحداث التي ساند فيها الرب قديسيه مثل: عبور الإسرائيليين البحر الأحمر بقيادة النبي موسى، وإنقاذ الرب للفتية الثلاثة من أتون النار؛ وهذا كله في قالب غنائي يأخذ بمجامع القلوب ويضم مجموعة من الألحان الرائعة التي ظلت حية في أفواه القديسين على مدى القرون.

(٢) في ليتورجيا القداس

في القداس الإلهي تتحقَّق أسمى درجات عبادة المؤمنين وأقدسها حيث تجتمع الكنيسة حول المسيح الذي يُقدِّم جسده ودمه بيد خادمه الكاهن وبحضور الملائكة والجمهور غير المنظور من قديسيه المنتصرين.

وخلال الصلوات يُذكَر القديسون باعتبارهم حاضرين في الكنيسة كأحياء مع الملائكة القائمين حول المذبح والذين يحملون صلوات العابدين مع البخور إلى العرش السماوي[٦]. فهناك لحن الهيتينيات الذي يطلب شفاعة العذراء والملائكة والمعمدان (هيتين ني ابرسڤيا)، وصلوات الرسل والشهداء وقدِّيسي اليوم (هيتين ني إفكي)، ولحن طاي شوري (هذه المجمرة) الذي يربط بين مجمرة البخور والعذراء التي حلَّ فيها ملء اللاهوت و لم تحترق، وشيري ماريا (السلام لمريم الملكة)، وآكسيا (مستحقة... للقديسة) وآكسيوس

(٦) والشماس يُلفت أنظار المؤمنين إلى حضور الملائكة في ليتورجيا القداس هاتفاً: "الملائكة ورؤساء الملائكة قيام. الساروفيم ذوو الستة الأجنحة والشاروبيم الممتلئون أعيناً يسترون وجوههم من بهاء عظمة مجده غير المنظور ولا منطوق به، يسبِّحون بصوت واحد صارخين قائلين: قدوس قدوس قدوس...". والكاهن يقول في القسمة: "هوذا كائنٌ معنا على هذه المائدة اليوم عمانوئيل إلهنا حمل الله الذي يحمل خطية العالم كله، الجالس على كرسي مجده، الذي يقف أمامه جميع الطغمات السمائية...".

(مستحق... للقديس)، ومجمع القديسين الذي يتلوه الكاهن والذي يذكرهم كأمر الكتاب ("**اذكروا مرشديكم الذين كلَّموكم بكلمة الله**" – عب ١٣: ٧): "لأن هذا يا رب هو أمر ابنك الوحيد أن نشترك في تذكار قديسيك. تفضَّل يا رب أن تذكر جميع القديسين الذي أرضوك منذ البدء: رؤساء الآباء والأنبياء (العهد القديم) والرسل والمبشرين والإنجيليين (كُتَّاب الأناجيل) والشهداء والمعترفين وكل أرواح الصدِّيقين الذي كملوا في الإيمان؛ وبالأكثر القديسة المملوءة مجداً العذراء كل حين والدة الإله القديسة الطاهرة مريم، التي ولدت الله الكلمة بالحقيقة، والقديس يوحنا السابق الصابغ (المعمدان) والشهيد، والقديس اسطفانوس رئيس الشمامسة وأول الشهداء، وناظر الإله الإنجيلي مرقس الرسول الطاهر والشهيد"؛ ومن بعدهم الآباء المعلِّمين من القرون الأولى وأعضاء المجامع المسكونية الثلاثة الذين حفظوا الإيمان وآباء الرهبنة والنسَّاك.

وهكذا، فالكنيسة هنا أيضاً تذكر وتتشفَّع بالقديسين المنتقلين، ولكن في ختام المجمع (في القداس الكيرلسي) تُعقِّب مستدركة باتضاع على لسان الكاهن: "**إننا يا سيدنا لسنا أهلاً أن نتشفع في طوباوية أولئك القديسين، بل هم قيامٌ أمام منبر** (عرش) **ابنك الوحيد، ليكونوا هم عوَضاً عنا يتشفعون في ضعفنا ومسكنتنا. كُن غافراً لخطايانا تاركاً لآثامنا من أجل طلباتهم عنا ومن أجل اسمك القدوس المبارك الذي دُعيَ علينا**". والشعب بعد ذلك يهتف: "**بركتهم المقدسة فلتكن معنا آمين...**"، ولكنه أيضاً يطلب لهم الراحة: "**يا رب نيِّحهم آمين**". فالكنيسة والقديسون، إذاً، يتبادلون الشفاعة عن بعضهم البعض أمام الابن الوحيد حامل خطايا الجميع (١يو ٢: ١).

والعلاَّمة **أوريجانوس** في مقالة له عن الصلاة يقول: "**إن الطوباويين الذين رحلوا يحضرون بالروح في اجتماعات الكنيسة... بل ربما أكثر مما كانوا بالجسد. فلا يليق أن نستخف بصلواتهم**". وقصص ظهور القديسين للأتقياء أثناء

الليتورجيا، قديماً وحديثاً، متداولة كثيراً.

إن التشفُّع بالقديسين جزءٌ لا يتجزَّأ من الليتورجيا. فحتى الذين لا يطلبون شفاعة القديسين في صلواتهم الفردية هم بالتأكيد يطلبونها من خلال صلوات الكنيسة واشتراكهم في ألحانها (الهيتينيات، بشفاعة والدة الإله، بركتهم المقدسة)، وبالتالي هم مؤازَرون بصلوات القديسين.

(٣) أعياد القديسين

لسيَر القديسين **وأعيادهم** موقعها الأثير في الاحتفالات الكنسية. فهناك كتاب السنكسار الذي يُسجِّل لكل يوم من أيام السنة حياة قدِّيسي الكنيسة وآبائها، خاصةً الذين قدَّموا حياتهم على مذبح الاستشهاد. كما تحتفي الكنيسة بعيد القديس في يومه المُعيَّن(٧)، وهناك ألحان كثيرة لمثل هذه المناسبات ضمن صلوات القدَّاس تتغنَّى بحياة القديس أو الشهيد(٨)، وخاصة ما يتعلَّق بالعذراء، ولكن كلمات اللحن تقترن أيضاً بتمجيد الله وتسبيحه. وعندما يُقام "تمجيد" للقديس في عيده فهو في حقيقته تمجيد لله الذي أفاض نعمته على هذا القديس وساند جهاده، فظل أميناً حتى النهاية وأكمل سعيه بسلام.

والكنيسة تُقدِّم القديسين نماذج للمنتصرين، تحتفي بهم وتُعرِّف المؤمنين بجهادهم لتُشدِّدهم في مسيرتهم، وهي تكرِّمهم كما تكرِّم الدولة شهداء الدفاع عن سلامتها. وفيما هي تكرِّمهم تُكرم الله. فالاحتفاء بعيد القديس (أو

---

(٧) بالنسبة للعذراء تحتفل الكنيسة بالتذكارات الآتية: بشارة يواقيم بميلاد العذراء، وميلادها، ودخولها الهيكل، ونياحتها، وظهور جسدها، وبناء أول كنيسة على اسمها في فيلبي، وظهورها في كنيستها بالزيتون.

(٨) ختام صلاة "السلام لك" ذو اللحن الجميل: شيري بي أوتي بارثينوس تي أورو إم مي إن أليثيني (السلام لكِ أيتها العذراء الملكة الحقيقية)، أو السلام لمريم الملكة (شيري ماريا تي أورو)، أو افرحي يا مريم (أونوف إمو ماريا)، أو آيكران إر نيشتي (اسمك عظيم)، فضلاً عن ألحان التسبحة. وخلال شهر كيهك تسهر الكنيسة وتُسبِّح الله وتتأمل في معجزة التجسُّد والميلاد البتولي وتمتدح العذراء أُم الله.

القديسة) يتم خلال القداس، فهو لا يُكرَم وحده، وإنما في ظل تمجيد سيده المسيح وتذكار صليبه وموته وقيامته في صلوات الإفخارستيا.

(٤) الأيقونات

الأيقونات هي صور القديسين، ويُشبِّهها البعض بالنجوم التي تزيِّن السماء، أو لوحة الشرف لأوائل الناجحين في جهاد الإيمان، أو هم كبار عائلة المسيح، أقاربنا الذين انتقلوا إلى المجد وظلوا أحياء وإن ماتوا بالجسد.

وقد صارت **الأيقونات** جزءاً من التقليد الكنسي منذ القرن الرابع، وهي تُرشم بالميرون مع سائر أجزاء الكنيسة: هيكلاً ومذبحاً وجدراناً، باعتبارها مُكرَّسة لخدمة الأقداس، وتحتل موقعها على حجاب الكنيسة[٩] وجدرانها تجسيداً لحضور القديسين الدائم في الكنيسة، وهم يحيطون بالرب الجالس على عرش مجده في حضن الآب في الهيكل وحوله الملائكة والأربعة وعشرون كاهناً.

وهناك ترتيب خاص لصور الحجاب (= حامل الأيقونات أو الإيكونوستاس، أو الإيكونوستات): فإلى يمين باب الهيكل (بالنسبة للمتجه نحو الشرق) أيقونة المسيح، ويليها أيقونة المعمدان وهو يُعمِّد الرب؛ وإلى اليسار أيقونة العذراء تحمل يسوع الطفل إلى يسارها (أي تكون هي إلى يمينه: "**جُعلت الملكة عن يمينك**" – مز ٤٥: ٩)، ويليها أيقونة القديس مرقس الإنجيلي مُبشِّر مصر. وهناك موقع لأيقونة قديس الكنيسة وغيره من الملائكة والقديسين. كما يحتل الصليب والمصلوب وصورة العشاء الرباني وأيقونات الاثني عشر موقع

---

(٩) في كتاب: "**العذراء القديسة مريم**" تأمُّل بارع **للأب متى المسكين** في صور القديسين على الحجاب يقول: "**إن الكنيسة قد احتجزت لهؤلاء الصف الأمامي لحضورهم على الدوام. وبحسب موقعهم فظهورهم نحو الشرق لأنهم لم يعودوا ينتظرون المسيح الآتي مثلنا لأنهم معه كل حين، ووجوههم نحونا كي يُعزونا ويتقبَّلوا توسلاتنا وصلواتنا**".

الصدارة لرفع قلوب المؤمنين إلى المخلِّص والذين حوله، وتهيئتهم إلى الاقتراب من المائدة السماوية. وتحمل جدران الكنيسة صوراً من حياة الرب وأعياده: البشارة، والميلاد، ودخول الهيكل، وعماده، وجانباً من معجزاته، والصلب والقيامة والصعود.

وفي الاحتفال بأسبوع آلام الرب توضع صورة المسيح مصلوباً والمكلل بالشوك وتُجرَى الصلوات أمامها، وفي ختام الجمعة العظيمة يدورون بها في الهيكل وصحن الكنيسة بشارةً مُجدَّدة بعمل الصليب وحث المؤمنين على تجديد عهودهم بالتوبة وتبعية المخلِّص حاملين صليبه. ومن عيد القيامة، وخلال الأربعين المقدسة، يدورون بأيقونة القيامة، ثم بأيقونة الصعود حتى عيد العنصرة. وفي أعياد القديسين توضع أيقونة القديس على يمين الهيكل لتوجيه الأنظار على احتفال الكنيسة بعيده وأيضاً إلى سيرته تمثُّلاً بوصية الكتاب: "**انظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثَّلوا بإيمانهم**" (عب ١٣: ٧).

وهكذا يصبح حجاب الكنيسة وجدرانها كتاباً مفتوحاً يحكي قصة الخلاص، ويُصوِّر للشعب –صغاراً وكباراً – هؤلاء الذين كانوا مع الرب وكلَّمونا بكلمة الحياة، وشهدوا بحياتهم وموتهم لإيمانهم وحبهم للملك المسيح، فصاروا لنا قدوة، كما يبقون إلى النهاية سنداً وعوناً للمجاهدين إلى أن يستوطنوا عند الرب وينضموا إلى صفوفهم.

ونحن عندما ندخل الكنيسة نسجد أولاً أمام الهيكل، ونردد مع صاحب المزمور:"**أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل بيتك. أسجد في هيكل قدسك بخوفك**" (مز ٥: ٧). وبعد ذلك نُحيِّي القديسين شهود المسيح وخاصته، ثم نعود إلى الهيكل. **فالرب هو البداية والنهاية** (رؤ ٢٢: ١٣).

وبالطبع ليس في استخدام الصور والأيقونات في الكنيسة كسراً للوصية الأولى من الوصايا العشر، فهذه تمنع أن تكون الصورة أو التمثال للسجود والعبادة: "**لا**

تسجد لهن ولا تعبدهن" (خر ٢٠: ٥) في وجود مجتمعات محيطة كانت تعبد الأصنام. ولكن الصورة في الكنيسة لم تكن ولن تكون للعبادة. ولمس الصور وتقبيلها هو لأنها مُكرَّسة بالميرون الذي يحتوي جانباً من حنوط التكفين، أو للبركة، أو تعبيراً عن الحب.

وما يؤكِّد أن التحريم ينصبُّ على السجود والعبادة للصورة أو التمثال في ذاته، أن الرب بينما دان الذين صنعوا العجل الذهبي (خر ٣٢: ٣٥)، أوصى موسى بعمل تمثالين لكروبَيْن (الشاروبيم) يوضعان على غطاء تابوت العهد (خر ٢٥: ١٨-٢٠) إضافة إلى النقوش (خر ٣٥: ٣٠-٣٥)، كما أمر الرب موسى بصُنع حيَّة مُحرقة نحاسية وأن يضعها على راية **"فكل مَن لُدغ ونظر إليها يحيا"** (عد ٢١: ٨،٩)، كما تكرر عمل كروبَيْن في هيكل سليمان إضافة إلى نقش ونحت كروبيم ونخيل وزهور (١مل ٦: ٢٣-٣٥).

ومن ناحية أخرى، فالذين استبعدوا القديسين، بدءاً من العذراء والتلاميذ والرسل، من حياة الكنيسة ومن علاقات المؤمنين، حتى لا ينشغلوا بهم عن المسيح، استبعدوا بالتالي صورهم. كما استُبعدت صورة المسيح نفسه بحجة ألاَّ نحصر المسيح في صورة. ولكننا نستخدم الصورة في كل مجال دون أن يعني ذلك الاستغناء عن صاحب الصورة، فهي تساعد على التصوُّر وتستكمل فَهْم ما هو مكتوب أو ما نتكلَّم عنه.

أليست الصورة في اللوحة والكتاب وعلى الجدار وفي الفيلم إيضاحاً لحقيقة، حتى أن العالم الغربي البروتستانتي الذي يُنحِّي القديسين جانباً ويستبعد صورهم من مبنى الكنيسة، هو الذي أدرك فائدة الفيلم الجيد لشرح الإيمان وتجسيد حياة المسيح والكنيسة وتاريخ الخلاص، فكان هذا الإبداع الذي أثَّر في حياة الكثيرين، أطفالاً كانوا أم بالغين، بسطاء بدائيين أو متحضِّرين مثقفين؛ بل إن فيلماً عن حياة المسيح قد يغني عن عظة كاملة ويمكنه أن يتجاوز حتى

حاجز اللغة، بل والكلمات ذاتها[١٠].

وفي هـــذا الصدد، فالذين يُحرِّمون تمثيل أدوار الأنبياء يغفلون حقيقـــة أن الرب والأنبياء والقديسين عاشوا بالفعل على أرضنا يوماً، وشاهدهم وعاشرهم وجالسهم الآلاف. فما الفرق، إذاً، أن نراهم على الشاشتين خاصة أن الفـــيلم يُبرز حياتهم المضيئة، ويستدعيهم من الماضي ليكونوا حاضـــراً يُعلِّـــم ويُلـــهم ويُنهض ويُشدِّد الإيمان! أَلاَ تُبرر هذه الغاية النبيلة تجسيد حياة الرب وقديـــسيه حتى وإن كان مَن يمثلونها بشراً مثلنا تحت الآلام والضعف؟

(٥) أجساد القديسين

منذ القرون الأولى التي تخضَّبت فيها الكنيسة بدماء آلاف الشهداء كـــان تقليداً أن توضع عظام الشهداء تحت المذبح، أو يُحتَفَظ **بأجساد القديـــسين** في الكنيسة. وفي يقين الكنيسة أن الروح الذي ساند القديس خلال حياته وجهاده لا يزال يعمل في جسده كما هو متحد بنفسه في الفـــردوس. ويـــسند يقـــين الكنيسة المعجزات التي يمكن أن تُجرَى بالإيمان من عظام وأجساد القديـــسين (وفي الذهن أن عظام أليشع أقامت ميتاً عندما لامسها – ٢مـــل ١٣: ٢١). وبالتالي فلمس الأجساد (التي تعترف الكنيسة بقداسة أصحابها) للتبرُّك منـــها ليس شيئاً غريباً عن روح الإنجيل. وفي الرؤيا نرى نفوس الشهداء تحت المذبح والوعد لهم بالثياب البِيض في اليوم الأخير (رؤ ٦: ٩-١١).

(٦) البخـور

---

(١٠) لا ينسى كبار السن فيلم "**ملك الملوك**" لسيسل دي ميل، الذي كان يُعرض في أربعينيات القرن الماضي، وكان فيلماً صامتاً غير ملون، ولكنه كان إبداعاً مُتقناً. وأفلام مثل "**كوفاديس**" و"**الرداء**" و"**حياة وآلام السيد المسيح**"، والفيلم الأخير لميل جيبسون "**آلام المسيح**"؛ صارت محفورة في ذاكرة الناس. ومؤخراً أنتجت مؤسسة بيلي جراهام التبشيرية فيلماً عن "**حياة يسوع**" تستخدمه بنجاح كبير في خدمة الأفريقيين.

منذ أن أَمَرَ الله موسى بعمل خيمة الاجتماع بين الله وشعبه، وضمنها مذبح البخور (خر ٣٠: ١-١٠، ٣٤-٣٨)، وتمَّ بناء الهيكل بعد دخول الأرض، **والبخور** يحتل موقعاً أثيراً في العبادة في بيت الله. فهو تنبيه لحلول الرب: "**السحاب ملأ بيت الرب... لأن مجد الرب ملأ بيت الرب**. حينئذ تكلَّم سليمان: قال الرب **إنه يسكن في الضباب**" (١مل ٨: ١٠-١٢). كما أن الرائحة الذكية (للذبائح أو البخور أو غيره) هي تعبير عن رضا الرب: "**فتنسَّم الرب رائحة الرضا**" (تك ٨: ٢١). وفي نبوَّة ملاخي النبي: "**لأنه من مشرق الشمس إلى مغربها اسمي عظيم بين الأمم. وفي كل مكان يُقرَّب لاسمي بخور وتقدمة طاهرة**" (مل ١: ١١).

وارتباط البخور بصلوات العابدين والقديسين ظاهر في الكتاب: "**لترتفع صلاتي كالبخور قدَّامك**" (مز ١٤١: ٢)، "**فصعد دخان البخور مع صلوات القديسين**" (رؤ ٨: ٤). وفي الكنيسة دائماً يسبق كل قداس صلاة رفع بخور عشية وباكر بما تحويه من تسابيح وتماجيد وأغاني روحية. وعندما يضع الكاهن البخور في المجمرة ويُبخِّر، ترتفع سحابات البخور كأنها تحمل صلوات المؤمنين وطلباتهم وتشفُّعاتهم إلى السماء (كما في دورات البخور وأوشية الإنجيل، وفي ختام صلاة مجمع القديسين). كما أن القديس بولس يصف القديسين بأنهم رائحة المسيح الذكية: "**شكراً لله الذي... يُظهِرُ بنا رائحة معرفته في كل مكان، لأننا رائحة المسيح الذكية لله**" (٢كو ٢: ١٤،١٥).

(٧) أسماء الكنائس والمذابح

منذ القرون المسيحية الأولى صار تمييز الكنائس (والأديرة) بإطلاق أسماء القديسين عليها تقليداً معروفاً في الشرق والغرب، فهو تكريمٌ للقديس؛ ولكن هذا لا يعني أن الكنيسة صارت للبعض مزاراً للقديس، وليست كنيسة الله وبيتاً للصلاة والعبادة واجتماع المؤمنين. وإطلاق أسماء القديسين على الكنائس

والأديرة هو بالطبع أفضل من نسبتها إلى المنطقة الجغرافية التي تقع فيها، خاصةً لو تعدَّدت الكنائس أو الأديرة في ذات المنطقة[١١].

❊ ❊ ❊

في ختام هذا الحديث الطويل عن **شفاعة القديسين**، يبقى السؤال: **هل لا تزال هناك قضية؟** بالطبع لن تكون هناك قضية عندما تُدرَك العلاقات والحدود بين وساطة المسيح ووساطة القديسين. وكما سبق عرضه، فالمعنى المباشر والخاص للشفاعة ينصرف رأساً إلى شخص **يسوع المسيح الشفيع الكامل الوحيد**؛ أما المعنى غير المباشر والعام فيتجه إلى القديسين الذين تستمد شفاعتهم **التوسلية** مرجعيتها من شفاعة المسيح **الكفَّارية** الفريدة التي هي الأساس والأصل، **فبغيرها لم تكن لهم شفاعة أو وساطة**. وكما دُعِيَ المسيح "**ملك الملوك ورب الأرباب**" (١تي ٦: ١٥؛ رؤ ١٧: ١٤؛ ١٩: ١٦)، فهو أيضاً بنفس القياس **شفيع الشفعاء**.

+ إن وساطة المسيح **مُطلقة** وتستند إلى عمله الفدائي مرة واحدة (عب ٩: ١٢)، بالصليب والموت والقيامة، وصار به كفَّارة لخطايا كل العالم، وهي **قاطعة** لا بديل عنها لخلاص الناس من الموت الأبدي (أع ٤: ١٢)، وهي **دائمة** حتى الساعة الأخيرة، ولا تُستَنفَد بحدٍّ أقصى وإنما هي تُخلِّص إلى التمام (عب ٧: ٢٥)، وتُطهِّر من كل خطية (١يو ١: ٧). أما وساطة القديسين فليست قاطعة، فالأمر في النهاية لله وهي تتكرر مع كل استنجاد بهم (عب ٩: ٢٥)، كما أنها ليست ضرورية أو أساسية للخلاص.

---

(١١) هذا يختلف عن نسبة الكنائس الرئيسية (ورؤساء أساقفتها) في العالم على مدن أو دول. فالكنيسة لا يُقصَد بها هنا بيت العبادة، وإنما المؤسسة الروحية الكبيرة التي تضم مؤمنين وكنائس محلية في جزءٍ ما من العالم، ككنائس أفسس وفيليبي وكورنثوس (قديماً)، والإسكندرية وروما وأنطاكية والقسطنطينية، التي تضم تحت مظلتها آلاف الكنائس على امتداد القارات.

+ إن الرب هو الذي أنعم على قديسيه أن يُقدِّموا المعونة للمحتاجين: "**اشفوا مرضى. طهِّروا بُرْصاً. أقيموا موتى. أخرجوا شياطين**" (مت ١٠: ٨)، وأن يطلبوا مراحم الله لغفران خطايا إخوتهم التائبين المتوسلين بهم (يع ٥: ١٥)، وأن يُصلُّوا من أجل خلاص البشر الذي صار بدم يسوع المسيح. فليس للقديس قوة أو سلطان شخصي، وإنما هي عطية الله الموهوبة مجاناً لقديسيه: "**مجاناً أخذتم، مجاناً أعطوا**" (مت ١٠: ٨). فنحن **نتوسل**، والقديسون إخوتنا في الصفوف المتقدمة، الذين سبقونا إلى المجد؛ هم أيضاً **يتوسلون** من أجلنا.

+ إن المحبة الإلهية هي التي ربطت الله بالإنسان، وهي التي جعلت الملائكة والقديسين خاصةَ الرب وأهل بيته (أف ٢: ١٩)، وهي التي وحَّدت الإنسان بالله، والمؤمنين بالملائكة والقديسين، وببعضهم البعض. والمؤمن الحقيقي المدين بخلاصه لَمن افتقده ونزل إليه واشتراه بدمه وأعدَّ له مكاناً ليبقى معه إلى الأبد، لا يمكن ولا يستطيع أن يتركه ليلتصق بغيره من أفراد عائلته. ففي حياتنا نحن نحب كثيرين ولا تنتقص محبة من أخرى. ولكل واحد قدره وموقعه. والأب يفرح بمَن يحبون أبناءه ويحبهم هم بالتالي. فمحبتنا لعائلة المسيح مستمدة من محبتنا له، وعلاقتنا بهم مصدرها علاقتنا بالمسيح. فنحن إذ نحبه نحب أيضاً كل مَن ينتسب إليه ويحبه ويؤمن به ويُبشِّر باسمه أو يموت من أجله، ولأنه يحبهم (يو ١٣: ١؛ ١٥: ١٢)، فنحن أيضاً نحبهم: "**مَن يحب الله يحب أخاه أيضاً... وكل مَن يحب الوالد يحب المولود منه أيضاً**" (١يو ٤: ٢١؛ ٥: ١).

+ تختلط الأمور عندما يتم الفصل بين الرب وقديسيه، سواء باستبعادهم من حوله، على غير الواقع الكتابي، وقطع العلاقات معهم، واعتبار التواصُل معهم بأية صورة انتقاصاً من العلاقة مع شخص المسيح والإيمان به كالمخلِّص والشفيع (الكفَّاري) الوحيد، أو بالتركيز على العلاقة مع القديسين والتوسُّل بهم بما يُضعف

الشركة المقدسة في المسيح ومحبته من كل القلب وحِفظ كلمته بما قد يُحوِّل الإيمان إلى نوع من التديُّن الشكلي الخالي من التوبة والذي يغيب عنه شمس البر.

+ إن الاكتفاء بعلاقة مع مَن هم حول المسيح دونه هو، من ناحية، تنكُّر لحق المسيح فينا: "**الذي افتدانا لا بأشياء تفنى... بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس، دم المسيح**" (١بط ١: ١٨،١٩)، والذي "**ذاق...الموت لأجل كل واحد**" (عب ٢: ٩)، والذي "**مات لأجل الجميع كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم وقام**" (٢كو ٥: ١٥). كما أنه تنازلٌ عن حقنا في المسيح مريح المتعبين والثقيلي الأحمال (مت ١١: ٢٨)، والقادر أن يسدَّ كل أعوازنا: "**اسألوا تُعْطَوْا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يُفتح لكم**" (مت ٧: ٧)، **والذي نلنا بالإيمان به الحياة الأبدية** (يو ٣: ١٦)، **والذي هو معنا كل الأيام** (مت ٢٨: ٢٠).

+ إن شركتنا مع القديسين هي في أساسها علاقة حب متبادَل تُغذيها شركة الحب مع رئيس الإيمان ومُكمِّله راعي نفوس الكل، ويهين هذه الشركة أن تُختَزَل في علاقات نفعية مؤقتة متروعة الإيمان، يُعامَل فيها القديسون على أنهم أصحاب كرامات مطلوب تدخُّلهم بالمعونة أو المعجزة ساعة الضيق دون النظر إلى سيرتهم والتمثُّل بإيمانهم.

+ إن العلاقة مع القديسين تختلف من شخص إلى آخر حسب اختباره، ولا يصحُّ لَمن لا علاقة له بالقديسين أن ينتقد مَن له علاقة حب مع القديسين أو مع قديس بعينه اختبر قوة شفاعته في مواقف بعينها.

+ البعض ممَّن لا يتجاسرون على الاقتراب من الرب ولا يلجأون إلاَّ إلى القديسين، يُبرِّرون ضحالة علاقتهم بالمخلِّص بأنهم يشعرون بضآلتهم وخطيتهم. هؤلاء ينسون أن الرب اختار أن يصير إنساناً ليرفعهم إليه، ولكي يزيل عقبة الاقتراب منه بل والاتحاد به: "**يثبت فيَّ وأنا فيه**" (يو ٦: ٥٦). ولا ننسى أن "**المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج**" (١يو ٤: ١٨)، والقديس أنطونيوس تجاسر أن يقول لتلاميذه إنه لا يخاف الله لأنه يحبه.

إن الإحساس بعدم الاستحقاق أمام الله فضيلة عظمى، ولكن ذلك بالأَوْلى مُبرر للجلوس إلى الرب والتمتُّع ببره، فهو قد جاء من أجل المنسحقين والمذلِّين والخطاة وليس للأبرار في أعين أنفسهم: "**لم آتِ لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة**" (مت ٩: ١٣؛ مر ٢: ١٧؛ لو ٥: ٣٢).

+ على المؤمن الملتزم، إذاً، أن يكون منتبهاً في مسيرته الروحية إلى أن المسيح هو البداية والنهاية، وأن شفاعة قديسيه لمساندة جهاد إخوتهم الذين في العالم هي معونة دبرتها نعمة الله ومحبته وعدله بإزاء سماحه للشيطان أن يُجرِّب أولاد الله لتزكية إيمانهم. فالقديسون لا يقفون وحدهم، بل هم قديسون بشركتهم في المسيح، وانتسابهم إليه، وشهادتهم له، واستشهادهم من أجله. فالرب دائماً هناك.

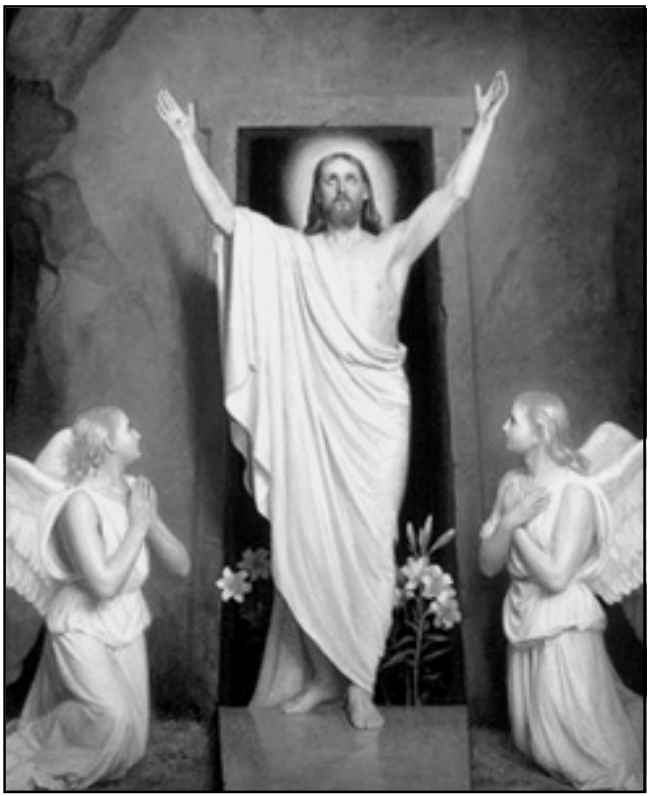

"فإن سيرتنا نحن هي في السموات التي منها أيضاً ننتظر مخلصاً هو الرب يسوع المسيح الذي سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون علي صورة جسد مجده" (في ٣: ٢٠، ٢١)

قضية الإنسان والحياة والزمن

+ رؤية مسيحية للجسد
+ رؤية مسيحية للحياة والوجود
+ الله والإنسان والزمن
+ الإنسان وكوارث الطبيعة

رؤية مسيحية للجسد

بعد ما كلَّم الله آباءنا بالأنبياء قديماً، كلَّمنا نحن – الذين انتهت إلينا أواخر الدهور – في ابنه، الذي لم يكلِّمنا فقط، ولم يقترب إلينا فقط؛ بل لقد اتحد بطبيعتنا وصار مثلنا دون قصورنا وخطايانا، وشاركنا آلامنا وحَمَلَ أسقامنا، ثم اجتاز الموت من أجل كل واحد كاشفاً بجلاء عن محبته العظيمة للإنسان، والتي فيها دخل إلى الأقداس بدم نفسه فوجد لنا فداءً أبدياً. وهكذا فرغم تعالِي الله فإنه لم ينعزل، ورغم تنازله لم يفقد جوهره ومجده!

في كل الأحداث التي صنعها الرب أو جاز فيها، كان نصيب الإنسان فيها أساسياً. والحديث هنا عن كيف غيَّر تجسُّد ابن الله رؤيتنا إلى الجسد.

أولاً : الجسد ليس خاطئاً في ذاته

ينظر البعض إلى الجسد على أنه مركز الشر، جالب الموت. ويحطُّ البعض من شأنه ويعتبرونه – مقارنة بالروح – شيئاً دنيئاً محتقراً (كما كان يفكر الغنوسيون الذين أقلقوا الكنيسة الأولى وصعُب عليهم أن يقبلوا تجسُّد الكلمة)،

وإذا تعلَّق الأمر بالطهارة عومل الجسد على أنه مصدر الأوجاع وحروب الشهوة.

وفي هذا أساء البعض فهم بعض الآيات من رسائل معلِّمنا بولس الرسول التي يتكلَّم فيها عن حالة الإنسان الطبيعي الذي يحيا حسب الجسد، ولم يقبل الروح القدس، وتستعبده الخطية دون أن يستطيع الفكاك منها، ولم يدرك بعد الإيمان بالمسيح المخلِّص، فيقول بلسانه: "فإني أعلم أنه **ليس ساكن فيَّ، أي في جسدي، شيء صالح**... وَيْحِي أنا الإنسان الشقي! مَنْ ينقذني من **جسد هذا الموت**" (رو ٧: ١٨و٢٤).

ولكن تجسُّد ابن الله يصحح لنا هذه النظرة السلبية إلى الجسد. فالجسد برغم أوضاعه الراهنة (خضوعه للمرض والوهن والموت، كآثار لدخول عنصر الخطية إليه) ليس دنساً أو رجساً، ولا هو خاطئاً في ذاته، وإلاَّ ما كان المسيح قد أخذ لنفسه جسد الإنسان بلحمه ودمه وعظامه: "فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم، **اشترك هو أيضاً كذلك فيهما**" (عب ٢: ١٤). كما أن تجسُّد المسيح هو الشهادة أن "**خليقة الله جيدة**" (١تي ٤: ٥)، وإلاَّ ما خلقها الله.

ولم تكن خطية آدم وحواء سقوطاً للجسد وحده، وإنما سقوطاً مزدوجاً، للنفس أولاً ثم الجسد: "**قبل الكسر الكبرياء، وقبل السقوط تشامُخ الروح**" (أم ١٦: ١٨). فقد أثار إبليس فيهما الشك في كلام الله، وتجاوز وصيته، والتطلُّع إلى أن يكونا كالله عارفَيْن الخير والشر (وهي خطايا نفسية)، وبعدها كان سقوط الجسد الذي أكل.

بل ماذا نقول عن إبليس وهو ككل الملائكة روح بلا جسد (مز ١٠٤: ٤)، ألم يكن سقوطه بسبب خطية الروح، وهي الكبرياء والتمرُّد على الله (إش ١٤: ١٣و١٤)؛ وبعدها أسقط معه ملائكة آخرين ومن بعدهم الإنسان

وإلى آخر الأيام.

الإنسان الخاطئ، إذاً، ليس **جسداً** يخطئ، ولكنه كلٌّ يخطئ: **جسداً ونفساً وروحاً**. والخطية لا تقتحم **الجسد وحده** [ربما تسقط **النفس وحدها** في خطايا: كالعداوة، الخصام، الغيرة، السخط، التحزُّب، الشقاق، الحسد (غل ٥:١٩-٢١)؛ أو **الروح وحدها**: كالتمرُّد على الله وتحديه، كما فعل الشيطان، وكل مَنْ يُقاوم الحق كأصحاب الهرطقات].. إن الخطية - قبل الجسد - تنسج عشها في الفكر والقلب: "الإنسان الشرير **من الكنز الشرير** (**في القلب**) يُخرِج الشرور" (مت ١٢:٣٥)، "**فإنه من فضلة القلب يتكلَّم الفم**" (مت ١٢:٣٤). والقديس بولس يشير هنا (رو ٧:٢٠) إلى الشر الذي تفعله **الخطية الساكنة في الإنسان** (أي في النفس والقلب). وما أكثر الخطايا التي تتراكم في الفكر وتفرخ دون أن تظهر على صفحة الجسد.

وعندما قدَّم المسيح شريعة العهد الجديد في عظته على الجبل اتجه إلى جذور الخطية في النفس والقلب لكي تُجهَض بالنعمة من الأساس. فبداية زنا الفعل شهوة القلب: "كل مَنْ ينظر إلى امرأة ليشتهيها، فقد **زنى بها في قلبه**" (مت ٥:٢٨). وبداية القتل الغضب الأحمق: "كل من **يغضب على أخيه باطلاً** يكون مستوجب الحكم" (مت ٥:٢٢).

فالجسد المادي محايد، وهو مهيَّأ لأداء الوظائف بكل اقتدار، ولكن الشر الذي ينبع من الكنز الشرير (في **القلب والنفس**) هو الذي يستخدم أعضاء الجسد للشر، فتصير العين (وهي عضو لا يملك نفسه وخاضع للإرادة) شريرة (مت ٦:٢٣؛ ٢٠:١٥). ويمكن أن يتحول تناول الطعام كمصدر للطاقة وتكوين مواد الجسم الحيوية إلى هدف في ذاته فيسقط الإنسان في الشراهة؛ والأعضاء التناسلية الموضوعة لاستمرار الحياة والنوع من خلال الحب الزيجي

يمكن أن تتحول إلى أدوات للشهوة والتلذذ والعلاقات الحُرَّة بلا زواج ولا إنجاب ولا مسئولية أو تعهد، تحديًّا عمْدياً لوصايا الله.

+ ولكن لماذا يُنسب الشر والخطية إلى الجسد بالذات، بينما تُعبِّر الروح عن مجال الحياة مع الله؟

" لأن كل ما في العالم: **شهوة الجسد، وشهوة العيون،** وتعظُّم المعيشة (١يو ٢: ١٦)؛

"الذين يذهبون **وراء الجسد** في شهوة النجاسة" (٢بط ٢: ١٠)؛

"اسلكوا بالروح فلا تكملوا **شهوة الجسد**" (غل ٥: ١٦)؛

"**جسد الخطية**" (رو ٦: ٦)؛

"**جسد هذا الموت**" (رو ٧: ٢٤)؛

"**وأعمال الجسد ظاهرة: التي هي زنى عهارة نجاسة دعارة عبادة الأوثان سحر عداوة خصام غيرة سخط تحزُّب شِقاق بدعة حسد قتل سُكر بَطَر**، وأمثال هذه..." (غل ٥: ١٩-٢١) (رغم احتواء القائمة المظلمة على كثير من الخطايا النفسية، وهي **ما تحته خط منها**)؛

"إذاً لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع، السالكين ليس **حسب الجسد** بل حسب الروح... فإن الذين هم **حسب الجسد** فبما للجسد يهتمون، ولكن الذين حسب الروح فبما للروح، لأن **اهتمام الجسد هو موت،** ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام. لأن **اهتمام الجسد هو عداوة لله**... فالذين **هم في الجسد لا يستطيعون أن يُرضوا الله**... لأنه **إن عشتم حسب الجسد فستموتون،** ولكن إن كنتم بالروح تُميتون أعمال الجسد فستحيون" (رو ٨: ١-١٣)؛

"لأن مَنْ يزرع لجسده **فمِن الجسد يحصد فسادًا،** ومَنْ يزرع للروح فمِن الروح يحصد حياة أبدية" (غل ٦: ٨)

+ ولكي نفسِّر ارتباط **الجسد** في الآيات السابقة بأعمال الشر والفساد

والشهوة والموت وعداوة الله، يمكن القول:

(١) إن **الجسد** ـ من ناحية ـ هو الباب الذي تدلف منه الخطية إلى كل الكيان، وذلك عن طريق الحواس: "**سراج الجسد هو العين، فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيِّراً، وإنْ كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً**" (مت ٦: ٢٢و٢٣)، "فرأت المرأة أن **الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأنَّ الشجرة شهية للنظر**. فأخذتْ من ثمرها وأكلتْ وأعطتْ رجلها أيضاً معها فأكل" (تك ٣: ٦).

(٢) **والجسد** ـ من ناحية ثانية ـ مادي ترابي، وإلى التراب سوف يعود (تك ٣: ١٩). ومن هنا فهو يمثِّل **العنصر الزمني المحدود** الذي يميل إلى الأرضيات والماديات. بينما **الروح تمثِّل العنصر الأبدي غير المحدود** الذي يتَّجه إلى السمويات. ومن هنا كتب معلِّمنا بولس "**إن الجسد يشتهي ضد الروح والروح ضد الجسد، وهذان يُقاوم أحدهما الآخر**" (غل ٥: ١٧)، باعتبار ميولهما المتعارضة؛ وميَّز بين الذين **في الجسد** أو **حسب الجسد** (رو ٨: ٥)، أي الذين لا تتجاوز اهتماماتهم مركز العالم الحاضر وآماله، والذين **في الروح** أو **حسب الروح** (وفي حالة المؤمنين يكون الروح هنا هو الروح القدس).

(٣) **والجسد** ـ من ناحية ثالثة ـ هو المجال الظاهر الذي تنعكس عليه فاعلية الخطية التي تبدأ في الفكر أو القلب. **والخطية** في أغلبها ذات تعبير جسدي، أما نشاطها الباطني فمحدود ولا يكتمل إلاَّ بتعبير (انفعال) جسدي (فالحسد والطمع والكراهية والغيرة والتمرُّد كلها تبقى كامنة حتى يتم التعبير عنها بأعمال جسدية تكشفها وتعريها).

وعلى العكس من ذلك **اتجاهات القداسة**. فرغم أن الجسد مشترك أيضاً في التعبير عنها بشكل أو بآخر (كالحب والفرح والوداعة والإيمان والتضرُّع

والانسحاق والتذلُّل وغيرها)، إلاَّ أنها على الأغلب ذات نشاط باطني يُحرِّكه الروح القدس. وعلي هذا فعندما يتكلَّم القديس بولس عن حياة القداسة ناسباً إيَّاها إلى **الروح** (أي الروح القدس)، فلأنها في المقام الأول **ثمر الروح القدس**، ولأنها ذات فعل داخلي لا يظهر كثيراً على صفحة الجسد.

ثانياً : بين الجسد والنفس والروح

والحقيقة أن العلاقة بين **الجسد**[1] و**النفس**[2] و**الروح** وثيقة جداً بحيث يصير من غير المنطقي أن نتعامل مع أحدهم دون الآخرَيْن. فالإنسان هو هذه العناصر الثلاثة مجتمعة: فجسد الإنسان بدون الروح مجموعة من العناصر والمركَّبات الكيميائية دون فاعلية؛ ولكن اجتماع الجسد مع الروح يصنع

---

(١) تُستعمل كلمة **"جسد"** في الكتاب أحياناً بديلاً عن الإنسان ككل. كما يبدو من مقابلة هذه الآيات: "إذ نعلم إن **الإنسان** لا يتبرر بأعمال الناموس بل بإيمان يسوع المسيح" (غل ٢:١٦)، "لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر **جسد ما**" (غل ٢:١٦)، "لأنه بأعمال الناموس **كل ذي جسد** لا يتبرر أمامه" (رو ٣:٢٠).

(٢) في الأصول اللغوية: **"النَّفْس"** من "النَّفَس"، ويقابلها في الإنجليزية psyche ، soul. ولكنها تعني أيضاً الروح أو الذات أو العقل أو الشخص. ويمكن أن تستخدم كلمة **النفس** في الكتاب المقدس بديلاً عن **الروح**: "ارجعي **يا نفسي** إلى راحتك" (مز ١١٦:٧)، "في يديك أستودع **روحي**" (لو ٢٣:٤٦). ولكن في أكثر الأحيان يتم التمييز بين "النفس" و"الروح": "ولتُحفظ **روحكم ونفسكم**..." (١تس ٥:٢٣)، "إذ هو يعطي الجميع **حياةً ونفساً**..." (أع ١٧:٢٥)، "كلمة الله حيَّة وفعَّالة وأمضى من كل سيف ذي حدَّيْن، وخارقة إلى مفرق **النفس والروح** والمفاصل والمخاخ" (عب ٤:١٢).

ويصف آباؤنا **النفس** أنها موضوعة بين الجسد والروح. فهي مجال اللقاء والتفاعل بين الجسد (الكيان الظاهر) **والروح** (مصدر الحياة). وهي قد تغلبها الاتجاهات الجسدية وتنساق معها فتكون نفساً جسدية: "نفس الشرير تشتهي الشر" (أم ٢١:١٠)، أو تنحاز إلى الروح وتكون نفساً روحية، أو تتأرجح بين الاتجاهين كمَنْ يخدم سيدين.

وللحيوان نفسٌ كالإنسان، ولكن بينما الحيوان محكوم بغرائزه ولا اختيارَ حُرًّا لديه، فإن الروح في الإنسان هي التي تهب النفس حرية الاختيار والقدرة على الضبط والتحكُّم في الانفعالات والتطلُّع إلى الأسمى. كما أن الحيوان الحي فيه حياة، ولكن لا روح له، فعندما تتراكم فيه عوامل الموت يفقد حياته ويفنى ولا يقوم، فهو لا يُثاب ولا يُعاقب.

الشخص أو الفرد person or individual، والنفس الحيَّة، والكائن الحيّ المتفاعل الحر المُريد.

فالجسم الحي و**النفس** الحية كوجهي العملة، يمثِّل **الجسد** فيها الواجهة المادية الظاهرة من الإنسان، حيث أداء الوظائف الحيوية من حِس وهضم وتنفُّس وحركة وتناسُل؛ وتمثِّل **النفس** الجزء الباطني، حيث مركز الانفعالات والعواطف والوجدان والعقل والغرائز وصفات الشخصية، والتي يهيمن عليها الجهاز العصبي، ويعبِّر عنها الجسد أيضاً. **والروح** في الإنسان هي عنصر الحياة للجسد الحي والنفس الحية. والموت هو مفارقة الروح للجسد والنفس، فيخمد الجسد وينحل ويعود إلى التراب، وتمضي الروح إلى مكان الانتظار حتى القيامة عندما تلتقي عناصر الإنسان من جديد وإنما في جسد القيامة النوراني (بالنسبة للأبرار).

ونحن نعرف كيف تؤثِّر النفس في الجسد، وكيف يختل أداء أجهزة الجسم بسبب الاضطرابات النفسية psychosomatic disorders (مثل قُرح الجهاز الهضمي، مرض السكّر، ارتفاع ضغط الدم، الشلل، فقدان البصر المؤقت، سقوط الشعر، وغيره). وكيف ينسجم الأداء الجسدي مع النفس التي تحيا في الروح القدس، في سلام يفوق العقل، وتعرف كيف تسيطر على انفعالاتها. بل إن حالة النفس الروحية تنعكس على صفحة الوجه، فالغضب والشراسة والنجاسة لها سماتها، كما أن القداسة والبراءة والوداعة لها أيضاً ملامحها.

الخطية، إذاً، تدنس كل الكيان جسداً ونفساً وروحاً. والقديس بولس يوصي: "لنُطهِّر ذواتنا من كل دنس **الجسد والروح**" (٢كو ٧:١)، ويقولها المصلِّي في تحليل صلاة الساعة الثالثة، كما يقولها الكاهن في ختام القسمة: "طهِّر **أنفسنا وأجسادنا وأرواحنا** وأفكارنا ونياتنا...".

وبالتالي فما تشير إليه الآيات: "ولكن الذين هم للمسيح **قد صلبوا الجسد**

مع الأهواء والشهوات" (غل ٥:٢٤)، "**أقمع جسدي وأستعبده**"(١كو ٩:٢٧)، "**يلجم كل الجسد**" (يع ٣:٢)، "**لا تصيِّروا الحرية فرصة للجسد**" (غل ٥:١٣)، "**أن تُقدِّموا أجسادكم ذبيحة حيَّة مقدسة** مرضية عند الله" (رو ١٢:١)، وما تحمله من اتجاهات لقمع الجسد، وصلبه، ولجمه، وضبط حريته، بل وتقديمه ذبيحة حية مقدسة؛ لن تكون بأي حال خاصة بالجسد وحده أو في المقام الأول، بل المقصود طبعاً وأولاً قمع الأهواء والشهوات (في الباطن)، والجهاد بالنعمة ضدها والسيادة عليها (تك ٤:٧)، فتصير الحواس بقوة الروح القدس خادمته للبر بدلاً من أن تكون نوافذ للشر وخادمة للخطية. ولو كان إذلال الجسد بغير الإيمان بالمسيح يخلِّص الجسد، لفاقنا في ذلك الهندوس الذين يسيرون على الأشواك والنار لتطهير الجسد، وهو ما لا يمكن أن يتحقق.

ثالثاً: الجسد شريك في حياة القداسة

إذا كانت الخطية تدنس كل الكيان كما ذكرنا، فالقداسة تضفي فعلها على كل الكيان أيضاً. ففي الصلاة والسجود والصوم والخدمة والجهاد والمثابرة وعمل الخير يشترك الجسد مع النفس والروح: "أنتم تعلمون أن حاجاتي وحاجات الذين معي **خدمتها هاتان اليدان**" (أع ٢٠:٣٤).

المسيح الإله عندما صار إنساناً كاملاً، قدَّس الجسد والنفس الإنسانية كليهما: "أم لستم تعلمون أن **جسدكم هو هيكل للروح القدس**... فمجِّدوا الله في **أجسادكم** وفي **أرواحكم** التي هي لله" (١كو ٦:١٩و٢٠).

والمسيح أيضاً قدَّس الممارسات الجسدية عندما أكل وشرب وسار وعمل ونام. إن وحدتنا مع المسيح تضفي على أفعالنا بُعْداً أُخروياً، كما أن أي عمل مهما صغر يستمد قيمته من كونه لأجل المسيح: "فإذا كنتم تأكلون أو تشربون أو تفعلون شيئاً، **فافعلوا كل شيء لمجد الله**" (١كو ١٠:٣١). وفيما يتعلَّق بالعلاقة الزوجية أزال عنها الكتاب شُبهة النجاسة: "ليكن الزواج مكرَّماً عند كل واحد **والمضجع غير نجس**" (عب ١٣:٤) على غير فكر الغنوسيين

الـــ "مانعين عن الزواج" (١تي ٤:٣).

رابعاً: الجسد للرب

المسيح بتجسُّده حقَّق شركة الله في جسدنا أيضاً: "**الجسد... للرب**، والرب للجسد" (١كو ٦:١٣)، "وأما **الجسد فللمسيح**" (كو ٢:١٧). بل إن معلِّمنا بولس يؤكِّد على أن أعضاءنا هي للمسيح قبل أن تكون لنا: "ألستم تعلمـــون أن **أجسادكم هي أعضاء المسيح**" (١كو ٦:١٥)؟ وبالتالي فلا حرية لي في جسد لا أملكه: "أفآخذ **أعضاء المسيح** وأجعلها أعضاء زانيـــة؟ حاشـــا!" (١كـــو ٦:١٥).

الكنيسة ترشم **بالميرون** كل أعضائنا (٣٦ رشماً بعد المعموديـــة) فتقدِّســـها للمسيح. وفي **الإفخارستيا** يمتزج جسد المسيح ودمه بكياننا فيحيا فينا بـــصورة نعجز عي سبر أغوارها: "أنا هو **الخبز الحيّ** الذي نزل من السماء. **إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد**. والخبز الذي أنا أُعطي هو **جسدي** الذي أبذله مـــن أجل حياة العالم. **مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه**... **مَنْ يأكـــل هذا الخبز فإنه يحيا إلى الأبد**" (يو ٦:٥١و٥٦و٥٨).

نعم، إن الجسد وزنة مقدسة وهيكل للـــروح القـــدس (١كـــو ٣:١٦؛ ٦:١٩)، وهو وديعة علينا أن نحفظها (١تي ٦:٢٠). لقد اشترانا المسيح بدمه ومِن ثَمَّ "فلنمجِّد الله في **أجسادنا وفي أرواحنـــا** التي هي لله" (١كو ٦:٢٠). أما الذين يرون أنهم يملكون أجسادهم فيجعلون منها "شيئاً" يُغـــالون في تزيينـــه، ونفوسهم خاوية من معرفة الله، وتابعين أهواءهم، وهدف حياتهم الكبير هـــو المتعة والاستهلاك الجنسي أو شراهة البطن، أو يتاجرون بأجسادهم كسلعة من أجل المال، أو يجرون وراء متع أخرى كالتدخين والمخدرات والكحوليـــات، كحال الملايين من شباب عالم اليوم (ورجاله ونسائه) عابـــدي الفـــساد (رو

٢١:٨)؛ فهُم – من ناحية – يُدمِّرون أجسادهم دون أن يدروا، وهم – من ناحية أخرى – يكسرون وصية الله: "ولكن **الجسد ليس للزنا بل للرب**" (١كو ١٣:٦)، "**ولا تقدِّموا أعضاءكم آلات إثم للخطية، بل... آلات برٍّ لله**" (رو ١٣:٦)، "**لأن الله لم يدعُنا للنجاسة بل في القداسة**" (١تس ٧:٤). وستكون النتيجة – إن لم يتوبوا – وبالاً عليهم: "**إن كان أحد يُفسد هيكل الله فسيُفسده الله**، لأن هيكل الله مُقدَّس الذي أنتم هو" (١كو ١٧:٣). وليس فيروس الإيدز الذي التهم الملايين إلاَّ إعلاناً عن الغضب الإلهي على مَنْ شوَّهوا خليقة الله.

خامساً : خلاص الجسد

في القيامة سيتخلَّص **الجسد** من محدوديته وكل ضعف فيه ويتغيَّر: "إن لحماً ودماً لا يقدران أن يرثا ملكوت الله" (١كو ٥٠:١٥)، فيقوم "**في عدم فساد... في مجد... في قوة**" (١كو ٤٢:١٥و٤٣). فالمسيح رأس الكنيسة "هو **مُخلِّص الجسد** (أيضاً)" (أف ٢٣:٥)، "**الذي سيُغيِّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده**" (في ٢١:٣). لقد اشترك الجسد مع الروح في الخضوع للمسيح وفي كل أعمال الإيمان والقداسة والجهاد. ومن هنا فإنهما سيشتركان معاً في المجد الأبدي: "وكما لبسنا صورة الترابيِّ **سنلبس أيضاً صورة السماويِّ**" (١كو ٤٩:١٥).

وحتى من قبل القيامة، فكم أظهر الله مجده في أجساد قديسيه، فكانت تشفي الأمراض وتُخرج الأرواح الشريرة: "**حتى كان يؤتَى عن جسده** (جسد بولس الرسول) **بمناديل ومآزر إلى المرضى، فتزول عنهم الأمراض، وتخرج الأرواح الشريرة منهم**" (أع ١٢:١٩). وكان أليشع النبي في قبره عندما كان البعض يشيّعون ميتاً، فلما فاجأهم جيش موآب ألقوا بالميت علي عجل فسقط في قبر أليشع وفرّوا لينجوا بأنفسهم "**فلما نزل الرجل ومسَّ عظام أليشع، عاش**

وقام على رجليه" (٢مل ١٣: ٢١).

* * *

التجسُّد إعلانٌ إلهيٌّ بتقديس الجسد هيكلاً للروح القدس، وانتماء أعضائه إلى شخص المسيح، وتقديس كل ممارساته؛ بل وتقديس المادة والأرض والطبيعة وكل الكون. وهو دعوة إلى نظرة طاهرة إلى كل ما في الوجود.

رؤية مسيحية للحياة والوجود

عندما نقترب في كل عام من ذِكْرى الميلاد يتداعى إلى القلب والعقل مجدَّداً هذا الحدث الإلهي المبهر وهو: **تجسُّد ابن الله**، الذي اقتضى تنازله وإخلاءه ليصير إنساناً شريكاً للبشر في بشريتهم دون خطيتهم (عب ٤: ١٥)، مُنعماً

على البشر ليصيروا- مِن ثمَّ - بالخلاص، **شركاء طبيعته الإلهية** (٢بط ١:٤)؛ ومثل البشر ينحصر جسدياً في الزمان والمكان وقوائم التعداد والأنساب؛ ومثلهم يجوز الآلام والتجارب (عب ٢:١٨)، منحازاً بإرادته إلى مَن لا يملكون - وهو الذي يملك كل شيء - فيصير انتماؤه إليهم وانتماؤهم إليه عزاءً فائضاً عن حرمانهم.

وقبل هذا وفوقه يحمل خطايا الجميع ويموت من أجلهم بديلاً ونائباً عنهم، فيُحقق لهم **الفداء** الذي انتظرته الأجيال مدى الدهور. وإذا كان الفداء يتعلَّق بالمصير الأبدي، فإن **الخلاص** يبدأ الآن وهنا، ويكمُل عند **المجيء الثاني** للرب: "هكذا المسيح أيضاً، بعد ما قُدِّم مرَّة لكي يحمل خطايا كثيرين، **سيظهر ثانية بلا خطية للخلاص للذين ينتظرونه**" (عب ٩:٢٨)، "أنتم الذين بقوة الله محروسون، بإيمان، **لخلاصٍ مُستَعَدٍّ أن يُعلن في الزمان الأخير**" (١بط ١:٥).

ولكن ثمار التجسُّد متكاثرة؛ ففي الطريق إلى تحقيق الفداء بالآلام والموت والقيامة، كان الرب يُقدِّم في نفسه نموذج **الخليقة الجديدة** المنتصرة على العالم ورئيسه والخطية والموت، ويرسم بالتعليم نهج **الحياة الجديدة**، ويصنع ويضمن بدمه **عهداً جديداً** أعظم من العهد الأول (إر ٣١:٣١، مت ٢٦:٢٨، مر ١٤:٢٤، لو ٢٢:٢٠، ١كو ١١:٢٥، عب ٨:٨)، "ولأجل هذا هو **وسيط عهد جديد**، لكي يكون المدعوُّون - إذ صار موتٌ لفداء التعدِّيات التي في العهد الأول- ينالون وعد الميراث الأبدي" (عب ٩:١٥)، ويهب عناصر القوة للغلبة وطاعة الوصية وبدء **حياة الملكوت** على الأرض بعطية **الروح القدس** الشاهد للرب (يو ١٥:٢٦)، وفاعلية **الكلمة** (عب ٤:١٢)، وشركة **الجسد والدم** للثبوت في المسيح ونوال الحياة الأبدية (يو ٦:٥٤)، وباب **الصلاة** المفتوح دوماً على السماء، وحق **التوبة والغفران** المكفول بختم الدم والإيمان

بالمسيح مخلِّصاً وحيداً: "**وليس بأحد غيره الخلاص**، لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أُعطي بين الناس به ينبغي أن نخلُص" (أع ٤:١٢).

✣ ✣ ✣

(١) تقديس الكون والمادة

على أن التجسُّد كحدث كوني لم ينحصر فعله في الإنسان الذي اتحد به الرب: جسده[١]، حياته الحاضرة، خلاصه ومصيره الأبدي؛ وإنما تمتد آثاره لتفيض على الكون كله لتقدسه: على الحياة وكل الوجود، على النبات والحيوان، على الأرض والنهر والبحر والفضاء والأفلاك، على المادة والطعام وسائر الأشياء: "لأن **الخليقة** نفسها أيضاً **ستُعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله**. فإننا نعلم أن كل الخليقة تئنُّ وتتمخَّض معاً إلى الآن" (رو ٨:٢١و٢٢). ويمكن أن يتسع تعبير "الخليقة" ليشمل الكون كله بكل ما ومَنْ فيه. فالكون رغم قصوره ومحدوديته، والمادة رغم مآلها في النهاية إلى زوال: ["**السماء والأرض تزولان**" (مت ٢٤:٣٥، مر ١٣:٣١، لو ٢١:٣٣)، "لأن **هيئة هذا العالم تزول**" (١كو ٧:٣١)؛ "ولكن سيأتي كلصٍّ في الليل، يوم الرب، الذي فيه **تزول السموات بضجيج، وتنحلُّ العناصر محترقة، وتحترق الأرض والمصنوعات التي فيها**" (٢بط ٣:١٠)]، فإنها ليست شريرة في ذاتها. وفي هذا يؤكِّد القديس بولس في رسالته الأولى إلى تلميذه تيموثاوس على أنَّ: "**كل خليقة الله جيدة**" (١تي ٤:٤)؛ بل إن السطور الأولى من العهد القديم تشير إلى أنه عندما أتمَّ الله خَلْق العالم في اليوم السادس "**رأى الله كل ما عمله فإذا هو حسنٌ جداً**" (تك ١:٣١).

---

(١) راجع المقال السابق في هذا الفصل "**رؤية مسيحية للجسد**" ص ١٤٦- ١٥٥.

كما أنه عندما تجلَّى الرب وأضاء وجهه كالشمس، تجلَّت أيضاً معه ثيابه: "**وصارت ثيابه بيضاء كالنور**" (مت ١٧: ٢)، "**وصارت ثيابه تلمع بيضاء جداً كالثلج**، لا يقدر قصَّارٌ على الأرض أن يُبيِّض مثل ذلك" (مر ٩: ٣). فها هو مجد الرب يمتد منه إلى ثيابه، وهكذا في تجسُّد الرب تلتقي الروح والمادة في انسجام ووئام، كما أن تجلِّي الرب سينسحب على كل الكون الذي خلقه عندما يحقِّق وعده لمؤمنيه **بسماوات جديدة وأرض جديدة** (٢بط ٣: ١٣، رؤ ٢١: ١) أكثر بهاءً وسطوعاً، تتوارى أمامها كل الشموس والنجوم القديمة.

(٢) تقديس الأرض ونواتجها

عندما أخذ الابن جسدنا عاش على أرضنا وأكل من نتاجها وشرب من مائها، وخلال خدمته سار في دروبها وصعد إلى جبالها وهبط في وديانها وأبحر في مياهها فقدَّسها جميعاً. وعندما شاء الرب أن يترك لنا إلى نهاية الأيام جسده ودمه لنحيا بهما، اختار خبز الحنطة وعصير الكرمة. وقد تقدَّست كل الأشجار عندما اشتركت خشبتان منها لتصنعا صليباً عُلِّق عليه رب المجد، فصنع لنا به خلاصنا وصار "**علامة ابن الإنسان**" (مت ٢٤: ٣٠) وسمة كل مَن يتبعه. ولأشواك النبات أن تتيه أن صَنع منها العالم تاجاً كُلِّل به جبين المخلِّص لتكميل آلامه (عب ٢: ١٠).

والكنيسة في ممارسة أسرارها تستخدم الماء (في المعمودية) وزيت الميرون (في سر المسحة أو التثبيت) والزيت (في مسحة المرضى والزيجة والكهنوت)؛ فيحلّ الروح القدس في هذه المواد بصلاة الكاهن ويتم عمل السر في الإنسان. كما تُكرَّس الكنيسة: المبنى والهيكل والمذبح وأدوات الخدمة والأيقونات، برشمها بالزيت فتتقدَّس وتصير مخصَّصة لعمل الله وخدمته.

وقبل مجيء الرب كانت الأرض تحت اللعنة بسبب الخطية: "**ملعونة الأرض بسببك**" (تك ٣: ١٧). كما واجه الرب قايين بخطيئته قائلاً: "**ملعونٌ أنت من**

الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك" (تك ٤: ١١). واللعنة هنا تعبيرٌ عن غضب الله على أول خطية، وبها دخلت الخطية إلى العالم، وأول جريمة قتل تُقترف على وجه الأرض.

بالتجسُّد جاء مَن يصنع المصالحة ويرفع الغضب واللعنة عن الإنسان والوجود فيتم الخلاص للكل: "**لأنه جعل الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا، لنصير نحن برَّ الله فيه**" (٢كو ٥: ٢١)؛ "**المسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنةً لأجلنا، لأنه مكتوب ملعونٌ كلُّ مَن عُلِّق على خشبة**" (غل ٣: ١٣).

وقد تعلَّمت الكنيسة من سيدها أن تذكر في طلباتها المياه والزروع والثمار، وهي تُدرك **أن كل الأشياء طاهرة** (رو ١٤: ٢٠). حتى الخمر والمواد المخدّرة والإشعاع والطاقة النووية وغيرها كلها خيِّرة في الأساس، وهي عناصر هامة في الدواء والعلاج والجراحات، وتخفيف الآلام والتعقيم، وتوليد الطاقات للصناعة وغيرها؛ ولكن يمكن تجريدها من وظائفها العظيمة هذه في خدمة الإنسان لتتحوَّل إلى أدوات للشر والتدمير.

(٣) تقديس الطعام

يذكر معلِّمنا بولس الرسول أن **الأطعمة "قد خلقها الله لتُتَنَاول بالشكر من المؤمنين"** (١تي ٤: ٣). وقد بدَّد الرب أي توهُّم عن نجاسة أطعمة أو كائنات أو أشياء بعينها: "**ليس ما يدخل الفم يُنجِّس الإنسان**" (مت ١٥: ١١)، "**ما طهَّره الله لا تُدنِّسه أنت**" (أع ١٠: ١٥). وعلى هذا النهج كتب معلِّمنا بولس: "**كل ما يُباع في الملحمة كُلُوه غير فاحصين عن شيء، من أجل الضمير**، لأن للرب الأرض وملأها"(١كو ١٠: ٢٥و٢٦).

على أنه من ناحية أخرى فقد حذَّر الرب من الخضوع للقمة العيش والتنكُّر لوصايا الله من أجل الحصول عليها مؤكِّداً أن الله يكفل للإنسان حاجات الجسد وعلى الإنسان مِن ثمَّ **ألاَّ يغالي في اهتمامه بالغد** (مت ٦: ٣٤)، وأن يعمل

"لا للطعام البائد بل **للطعام الباقي للحياة الأبدية**" (يو ٦:٢٧)، وأنه "**ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله**" (تث ٨:٣، مت ٤:٤، لو ٤:٤). ومعلِّمنا القديس بولس يحث على القناعة وعدم الشراهة "**إن كان لنا قوتٌ وكسوة فلنكتفِ بهما**" (١تي ٦:٨)، وعلى أنَّ "**الطعام لا يُقدِّمنا إلى الله**" (١كو ٨:٨).

وقد رسم الله **الصومَ** منذ القديم لإعلان التحرُّر من سيطرة الطعام، بذلاً وضبطاً للجسد كذبيحة حيَّة مقدَّسة، وإنعاشاً لعمل الروح، وتهيئةً للنفس للانسحاق والتوبة واللهج في كلمة الله، وتناول طعام الحياة الأبدية أي جسد الرب ودمه.

(٤) تقديس العمل

قبل الخطية كان العمل بركة وهِبة: "وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن **ليعملها ويحفظها**" (تك ٢:١٥). أما بعد الخطية فقد ارتبط العمل بالتعب والكدّ: "**بالتعب تأكل منها** (أي الأرض) **كل أيام حياتك**... **بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أُخِذتَ منها** (أي حتى تموت)" (تك ٣:١٧و١٩)، "فأخرجه الرب الإله من جنة عدن **ليعمل الأرض** التي أُخِذ منها" (تك ٣:٢٣).

الرب، بمجيئه في الجسد، يُعيد إلى العمل بركته ويجعله فرصة لاختبار حضور الله واستثمار هباته ووزناته وخدمته. فالرب لم يأكل خبزه مجاناً مع أنه مالك الكل، وهو بارَكَ العمل البشري قبل بدء خدمته عندما عمل بيده في النجارة مع يوسف: "أليس هذا هو **النجار ابن مريم**" (مر ٦:٣)؛ كما دان الكسالى الذين لا يستثمرون وزناتهم (مت ٢٥:٢٦).

ورغم تصريح الرب أن الفاعل (الخادم) مستحق طعامه (مت ١٠:١٠)، إلاَّ أن الرسول بولس ظل على تعفُّفه وعمل خيَّاماً (أع ٣:١٨)، فيكتب لأهل تسالونيكي قائلاً: ".. **ولا أكلنا خبزاً مجاناً من أحد، بل كنا نشتغل بتعب وكدّ ليلاً ونهاراً، لكي لا نُثقِّل على أحد منكم**. ليس أنْ لا سلطان لنا، بل لكي نُعطيكم أنفسنا قدوة حتى تتمثَّلوا بنا" (٢تس ٣:٨و٩). وفي اجتماعه بقسوس كنيسة أفسس قال: "فضة أو ذهب أو لِباس أحد لم أشته. أنتم تعلمون **أن حاجاتي وحاجات الذين معي خدمتها هاتان اليدان**" (أع ٢٠:٣٣و٣٤). وحثَّ القديس بولس الله الصوصَ على التوبة والعمل الشريف حتى يمكن أن يمارسوا العطاء وينالوا بركته: "**لا يسرق السارق في ما بعد، بل بالحري يتعب عاملاً الصالح بيديه، ليكون له أن يُعطي مَن له احتياج**" (أف ٤:٢٨).

وعلى نهج القديس بولس عاش النسَّاك والرهبان في أديرتهم يعملون بأيديهم ليحصلوا على طعامهم دون أن يُثقِّلوا على أحد، وصار عملهم جزءاً لا ينفصل من حياتهم النسكية، يختلط بصلواتهم وعبادتهم وتسبيحهم.

(٥) تقديس المال

عندما أرسل الرب تلاميذه للخدمة أوصاهم ألا يقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقهم (مت ١٠:١). وقد ألزم الرب نفسه بذلك "**فمن أجلنا افتقر وهو غني، لكي نستغنى نحن بفقره**" (٢كو ٨:٩). وعندما طالبه الجُباة أن يدفع ضريبة الدرهمَيْن، طلب من بطرس أن يمضي إلى البحر ويصطاد سمكة فيجد في فمها إستاراً يُسدِّد به الضريبة عنهما (مت ١٧:٢٤-٢٧)، فلم يكن يحمل معه مالاً. وقبل شفاء الأعرج عند باب الهيكل، قال له بطرس: "**ليس لي فضة ولا**

ذهب، ولكن الذي لي فإيَّاه أُعطيك: باسم يسوع المسيح الناصري قُمْ وامشِ" (أع ٣:٦)، فهو أيضاً كسيده لم يكن يحمل مالاً.

ولكن الرب لم يعتبر الغِنَى شرًّا في ذاته حتى وإن أشار إلى صعوبة دخول الأغنياء ملكوت السموات بسبب سطوة المال الكثير لِمَن يحبونه أو يتَّكلون عليه (مت ١٩:٢٣و٢٤، مر ١٠:٢٣- ٢٥، لو ١٢:٢٠و٢١؛ ١٨:٢٤و٢٥). كما أنه – في موعظته على الجبل – نهى عن عبادة المال التي تدمر الحياة وتُناوئ الله **"لا تقدرون أن تخدموا الله والمال"** (مت ٦:٢٤)، وتعطِّل المسير نحو الملكوت: **"مضى حزيناً، لأنه كان ذا أموالٍ كثيرة"** (مت ١٩:٢٢، مر ١٠:٢٢)، وتُقاوِم تأثير الكلمة: "هَمُّ هذا العالم **وغرور الغِنَى يخنقان الكلمة فتصير بلا ثمر"** (مت ١٣:٢٢، مر ٤:١٩، لو ٨:١٤). وبيَّن معلِّمنا بولس أنَّ "**محبة المال أصل لكل الشرور** الذي إذ ابتغاه قوم ضلُّوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاعٍ كثيرة" (١تي ٦:١٠).

وقد التقى الرب أيام خدمته بعدد من الأغنياء الأتقياء مثل: **نيقوديموس** (يو ١٩:٣٩)، **ويوسف الرامي** (مت ٢٧:٥٧، مر ١٥:٤٣، لو ٢٣:٥٠، يو ١٩:٣٨) اللَّذَيْن أخذا جسد يسوع بعد موته لدفنه في قبرٍ جديد، **والنساء** اللاتي كُنَّ يخدمنه من أموالهن (لو ٨:٣). كما أن هناك أغنياء لم يَحُلْ غناهم بينهم وبين التوبة وتبعية الرب مثل: **زكا** (لو ١٩:١-١٠). والقديس بولس يُخاطب الأغنياء على أنهم جزء طبيعي في الجماعة الكنسية، فقط يُنبِّههم: **"أن لا يستكبروا"**، وأن لا يتَّكلوا على الغِنَى وإنما **"على الله الحي الذي يمنحنا كل شيء بغنى للتمتُّع. وأن يصنعوا صلاحاً، وأن يكونوا أغنياء في أعمال صالحة، وأن يكونوا أسخياء في العطاء، كُرماء في التوزيع، مُدَّخرين لأنفسهم أساساً حسناً للمستقبل، لكي يُمسِكوا بالحياة الأبدية"** (١تي ٦:١٧-١٩).

ولكن الله يحفل أيضاً بعطايا الفقراء الأتقياء، وعينُه على مقدار الحب لا على حجم العطاء. وهكذا رأى أن الأرملة المسكينة صاحبة الفلسين "ألقت **أكثر من جميع الذين ألقوا في الخزانة، لأن الجميع من فضلتهم ألقوا. وأما هذه فمِن إعوازها ألقت كل ما عندها، كل معيشتها**" (مر ١٢: ٤٣و٤٤).

والمال يمكن أن يُسهم في طريق خلاصنا إذا وظَّفناه في خدمة الله وتحقيق قصده في حياتنا، وممارسة محبة القريب وسد إعواز المحتاجين، وتأسيس المشروعات المختلفة لإتاحة العمل الشريف لِمَن يحتاجون؛ فيُحقِّقون ذواتهم ويتمتعون بالحياة الإنسانية الكريمة ويخدمون بعضهم بعضاً، مُجنِّبين العاطلين عن العمل الانحراف الذي يدفع إليه الاحتياج والعوز. كما أننا نحتاج إلى المال لبناء الكنائس والمشروعات الخيرية والاجتماعية وبيوت الخلوة والتكريس والأديرة ودور التعليم والصحة والبِنَى التحتية والإقتصادية وغيرها. فالمال يمكن أن يكون خادماً للخير أو إلهاً للشر.

(٦) تقديس الحياة بصورة عامة

رغم ما يكتنف الحياة من آلام ومصاعب وصراعات وأهوال وحروب وموت، إلاَّ أن دخول الرب إلى حياتنا واحتماله الآلام معنا يفتح عيوننا على حقيقة أن الحياة هبة إلهية جديرة بأن نقبلها بالشكر، وأن نحياها لحساب الله.

وعندما فتح عمل المسيح الخلاصي أبواب الحياة الأبدية لكل مَن يؤمن، صارت حياتنا الحاضرة جزءاً من حياتنا الأبدية، وكأن ملكوت السموات يبدأ الآن: "**ها ملكوت الله داخلكم**" (لو ١٧: ٢١). وبالإيمان نقفز فوق واقعنا بحُلوه ومُرِّه لكي نحيا الأبدية هنا على الأرض.

وصار لكل ما نعمل باسم المسيح، تعبيراً عن إيماننا به، بُعده الأُخروي الذي يتعلَّق به موقعنا القادم في السماء وقُربنا من شخص الرب.

وهكذا صارت حياتنا القصيرة على الأرض هي مجال اختبار تمهيدي لِمَا ستكون عليه حياتنا فوق، وإنما بصورة أكمل وأمجد: "**وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم، والموت لا يكون في ما بعد، ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع في ما بعد، لأن الأمور الأولى قد مضت**" (رؤ ٢١:٤)؛ "**وهم سينظرون وجهه، واسمه على جباههم. ولا يكون ليلٌ هناك، ولا يحتاجون إلى سراج أو نور شمس، لأن الرب الإله يُنير عليهم، وهم سيملكون إلى أبد الآبدين**" (رؤ ٢٢:٤و٥).

وخلال حياتنا هنا، فإن الله "**يمنحنا كل شيء بغِنَى للتمتُّع**" (١تي ٦:١٧)، ونحن نسلك شاكرين الله على نعمه الجسدية والروحية، وألاَّ نصنع تدبيراً للشهوات (رو ١٣:١٤)؛ وأن نهتم بالعالم من حولنا تعبيراً عن محبة القريب وخدمته وتقديم الشهادة للمسيح؛ وأن نرى الله في كل ما هو حق وجميل وخيِّر وجليل وعادل وطاهر ومُسرّ وصيته حسن (في ٤:٨) في الطبيعة والإنسان وفنون العالم المختلفة التي تمجِّد الله.

وقد قدَّس الرب الزواج وصنع أولى معجزاته في عُرس قانا الجليل (يو ٢:١-١١). ولم يَعُد الزواج اتفاقاً بين شخصين جمعهما الحب، وإنما صارا هما الاثنان واحداً في الله (مت ١٩:٦) من أجل ملكوت السموات. وأن هذه العلاقة لا تنفصم إلاَّ بخيانة أحد الطرفين باتحاده بآخر.

ولكن الرب أشار أيضاً إلى جماعة البتوليين الذين وُهبوا نعمة تكريس كل حبهم لله والقريب دون تمييز: "ليس الجميع يقبلون هذا الكلام (أي عدم الزواج) بل الذين أُعطي لهم، لأنه يوجد خِصيان وُلِدوا هكذا من بطون أُمهاتهم، ويوجد خِصيان خصاهم الناس، **ويوجد خِصيان خصَوْا أنفسهم** (تعفَّفوا - وليس ترفَّعوا - عن الزواج، كأنهم خِصيان) لأجل ملكوت السموات. من

استطاع أن يقبَل فليقبَل" (مت ١٩:١١و١٢). **فمجَّد الرب البتولية كما قدَّس الزواج.**

وكما عاش الرب بتولاً، سار على نهجه القدِّيسان **يوحنا وبولس**، ومِن بعدهما جاء القديسان **أنطونيوس وبولا** وأولادهما **النسَّاك والرهبان** الذين انفصلوا عن الكل للاتحاد بالواحد، ومضوا إلى البراري ليحصروا كل متعتهم في العبادة لله الذي أحبهم، وخدمة الآخرين بالصلاة، حيث تتسع عائلتهم لتشمل العالم كله.

❊ ❊ ❊

رغم أن الله بتجسُّده ونزوله إلى عالمنا قدَّس الحياة والوجود والكون كله، إلاَّ أن الخطية بكل ألوانها لا تزال تدنِّس الأرض. فالحروب لا تكاد تتوقف **"تقوم أُمة على أُمة"** (مت ٢٤:٧)، والمجاعات والأوبئة والفيضانات والأعاصير والزلازل والبراكين لا تزال تسحق العالم وتفعل أكثر مما تفعله الحروب؛ وكثيراً ما أدَّت الأطماع والكراهية إلى القتل والاحتلال والإرهاب والظلم والعنف والفوضى والضحايا الأبرياء.

ولكن حضور المسيح في الكنيسة والمؤمنين يُحقِّق المشيئة لنمو الحنطة والزوان معاً إلى يوم الحصاد (مت ١٣:٢٤-٣٠ و٣٦-٤٣)، يوم تمضي السماء والأرض (٢بط ٣:٧)، والرب يُطالبنا بالصبر إلى المنتهى لكي نخلُص (مت ٢٤:١٣).

وسيُحقِّق المجيء الثاني للرب - الذي يستدعيه تجسُّده ومجيئه الأول - لتمجيد قديسيه وللدينونة وإعلان الخلاص الأخير، تأسيس سماء جديدة وأرض

جديدة يسكن فيها البر (إش ٦٥:١٧، ٢بط ٣:١٣، رؤ ٢١:١)، ولا يعرف الشر طريقه إليها، لأن رئيس هذا العالم وعدو كل خير سيكون قد طُرِح مع الموت والهاوية في بحيرة النار والكبريت (رؤ ٢٠:١٠و١٤).

نعم، سوف يأتي الرب يوماً في مجده لينتزع العالم من يد الشر، **"ولا تكون لعنة ما في ما بعد"** (رؤ ٢٢:٣)، ويُعيد السلام المفتقَد الذي سيبقى معنا إلى الأبد، ويُزيل من على وجه الحياة كل أشكال القصور، **حيث سيسكن الله مع الناس "وهم يكونون له شعباً، والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم"** (رؤ ٢١:٣).

يسوع "النجار ابن مريم" قدّس العمل

الله والإنسان والزمن

(١) الله والزمن

الله "**ملك الدهور الذي لا يَفنَى**" (١تي ١: ١٧) هو أصل كل شيء، "**الأول والآخر، الألف والياء، البداية والنهاية**" (رؤ ٢٢: ١٣)، "**منذ الأزل إلى الأبد أنت الله**" (مز ٩٠: ٢). وعند الله الأزلي الأبدي غير المحدود، لا يوجد زمن: لا ماضٍ ولا مستقبل. فالماضي كله حاضر لا يغيب، والمستقبل كله حاضر الآن: "**وكل شيء عريان ومكشوف لعيني ذلك الذي معه أَمرنا**" (عب ٤: ١٣).

الله هو خالق الزمن والمهيمن عليه: "الأزمنة والأوقات التي جعلها الآب في سلطانه" (أع ١: ٧)، ولكنه فوق الزمن والمسافات: "**لأن ألف سنة في عينيك مثل يوم أمس بعدما عَبَرَ، وكهزيع من الليل**" (مز ٩٠: ٤)، "**إن يوماً واحداً عند الرب كألف سنة، وألف سنة كيوم واحد**" (٢بط ٣: ٨). وهو صانع الأحداث والمُمسك بخيوط الكون كله "**ما يُرَى وما لا يُرَى**" (كو ١: ١٦).

(٢) الإنسان والزمن

مع الخليقة جاء الزمن والأبعاد، ومن هنا ارتبط الزمن والمسافات بالإنسان.

وبداية الزمن عند الإنسان هو ظهور هذا الكون. وأقصى ما سجَّله العلماء من الزمن الماضي هو – في أدق التقديرات – حوالي ١٣,٧ بليون سنة عندما حدث الانفجار الكبير Bang Big، الذي تولَّدت عنه بلايين المجرَّات من النجوم (أو الشموس) والكواكب التي تدور حولها والأقمار التي تدور حول الكواكب.

ويُقدِّر العلماء عمر كوكب الأرض [١] التي نعيش عليها بحوالي ٤,٥ بليون سنة، والتي انفصلت أصلاً ككرة نارية عن الشمس [٢]، مركز المجموعة الشمسية، واحتاج سطحها عدة ملايين من السنين لكي يبرد ويصير صالحاً للحياة (ولا يزال باطنها ملتهباً، تخرج حممه من فوهات البراكين عند نشاطها والذي يصعب التنبؤ به).

والأرض بدورانها حول محورها صنعت **اليوم بساعاته الأربع والعشرين،**

---

(١) قطر الشمس ٨٧٠ ألف ميل (١,٣٨٥,٠٠٠ كم)، وقطر الأرض ٧,٩٢٦,٢٨ ميل (١٢,٧٥٦,٠١ كم)، وقطر القمر ٢١٤٠ ميل (٣٤٧٦ كم). أي أن قطر الشمس أكبر من قطر الأرض ١١٠ مرة تقريباً، كما أن قطر الأرض أكبر من قطر القمر ٤ مرات تقريباً. ومساحة سطح الشمس ١٠,٠٠٠ مرة قدر مساحة سطح الأرض، وحجم الشمس (١٠ ^{٢٧} × ١,٤١ م٣) يساوي ١,٣٠٠,٠٠٠ مرة قدر حجم الأرض (١٠ ^{٢١} × ١,١م^{٣})؛ كما أن كتلة الشمس تساوي ١٠ ^{٣٠} × ٢ كجم، وكتلة الأرض ١٠ ^{٢٥} × ٠,٦كجم. والمسافة بين الأرض والشمس ٩٣ مليون ميل تقريباً (١٥٠ مليون كم). وتحتوي مجرتنا على حوالي ٤٠٠ بليون نجم بعضها أكبر من شمسنا آلاف المرات، والمسافات بين أطراف الكون من حولنا شاسعة جداً بما يتجاوز قدرتنا على التصور.

(٢) المسافة التي حددها الخالق بين الشمس والأرض هي ما جعل الحياة ممكنة على الأرض. فاقتراب الأرض أكثر كان يعني دوام احتراقها، وابتعادها أكثر كان يعني تجمّدها. والشمس كتلة غازية هائلة في حالة احتراق دائم، وهي مصدر كل طاقة (كهربية أو حرارية أو ضوئية أو ميكانيكية أو غيرها) وأساس حياة كل الكائنات.

ونهاره وليله[٣]، وكل سبعة أيام تُكوِّن **أسبوعاً**. وبشروق الشمس وغروبها تحدَّدت **الجهات الأصلية**. ونتج عن ميل محور الأرض عند دورانها حول الشمس **الفصول الأربعة**: "أنت نصبت كل تخوم الأرض. **الصيف والشتاء أنت خلقتهما**" (مز ٧٤: ١٧). وبدوران الأرض حول الشمس كان **العام** بأيامه الثلاثمائة وخمسة وستين.

الله رافق مسيرة الإنسان بعد أن خلق له الزمن. فهيَّأ له الأرض بمائها وهوائها ونباتها وحيوانها لتكون الموقع المناسب لوجوده. وهو جَبَل الإنسان حُرّاً مُريداً لكي يحيا معه بإرادته، لكنه تحت إغراء الشرير أن يصير مثل الله (تك ٣: ٥) كسر الوصية. ولما سقط عرف **الموت**. وكان أقصى عمر عاشه الآباء الأوَّلون هو عمر **متوشالح** (٩٦٩ سنة) (تك ٥: ٢٧). وأخذ عمر الإنسان يتناقص حتى صار الآن مَن يتجاوزون القرن تتناقل أخبارهم وكالات الأنباء وتُسجِّلهم موسوعات الأرقام القياسية.

وبدخول الإنسان دائرة **الزمن**، عرف **الماضي والحاضر والمستقبل**. وبتتابُع الأحداث وتراكُم الخبرات كان **التاريخ** الذي ينتسب إلى الزمن.

هكذا أدرك الإنسان الزمن: "**أياماً وشهوراً وأوقاتاً وسنين**" (غل ٤: ١٠). والزمن ضبط حياة الإنسان وسائر الأحياء، نباتاً وحيواناً، وحدَّد فترات نشاطها: "**صنع القمر للمواقيت، الشمس تعرف مغربها. تجعل ظلمةً فيصير ليلٌ. فيه يدبُّ كل حيوان الوَعْر. الأشبال تُزمجِر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها. تُشرق الشمس فتجتمع وفي مآويها تَربِض. الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى**

---

(٣) "**وقال الله لتكن أنوار في جَلَد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين... فعمل الله النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم. وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض**" (تك ١: ١٤، ١٦، ١٧)؛ "**الشمس لحكم النهار ... والقمر والكواكب لحكم الليل**" (مز ١٣٦: ٨، ٩).

المساء" (مز ١٠٤: ١٩-٢٣).

(٢) الله يدخل دائرة الزمن

الله لم يتخلَّ عن قضية الإنسان بعد سقوطه وخضوعه للموت الذي حدَّد زمان حياته. ويوم أن سقط قال الرب: "هوذا الإنسان قد صار كواحدٍ منَّا عارفاً الخير والشر، والآن لعلَّه يمدُّ يده **ويأخذ من شجرة الحياة ويأكل ويحيا إلى الأبد**" (تك ٣: ٢٢).

فهو وإن كان قد أكل من **شجرة الموت**، ولكن الله أتاح له فرصة أن يمدَّ يده ويأخذ من **شجرة الحياة** (أي يؤمن بالابن المتجسِّد)، الذي صار للإنسان الساقط "**القيامة والحياة**" (يو ١١: ٢٥) بموته على **خشبة الصليب**، الشجرة الجديدة التي كل مَن يأكل منها يحيا إلى الأبد.

وهكذا كان "**لما جاء ملء الزمان، أرسل الله ابنه، مولوداً من امرأة**" (غل ٤: ٤) ليدخل دائرة الزمن بالجسد لثلث قرن، يُصلِح في الإنسان ما أفسدته الخطية، وبموته وقيامته يُخلِّصه من خضوعه للزمن واستئثار الخطية به، **والذين آمنوا به نالوا الحياة الأبدية** (يو ٣: ١٦). فسلطان الموت انحصر في الجسد الذي جاء من التراب وإلى التراب يعود (تك ٣: ١٩).

(٣) الله يُقدِّس الزمن

رغم الزمان القليل المحدود والموت المنتظر في نهاية المطاف، إلاَّ أن الإيمان بالمسيح جعل الحياة الحاضرة باكورة حياة الإنسان الأبدية: "**ها ملكوت الله داخلكم**" (لو ١٧: ٢١).

ومن البداية فقد قدَّس الله الزمن (تك ٢: ٣) كما طلب إلينا أن نُقدِّسه (خر ١٦: ٢٣؛ ٢٠: ٨؛ لا ٢٣: ٣؛ تث ٥: ١٢)، أي يصير مجالاً للعبادة ومحبة الله وفعل الخير. وهكذا دخلت العبادة دائرة الزمن، فصار هناك **سبع**

صلوات خلال اليوم (مز ١١٩: ١٦٤)، بل إن داود النبي جعل حياته صلاةً وتسبيحاً: "**أُبارك الرب في كل حين، دائماً تسبيحه في فمي**" (مز ٣٤: ١). ومكتوب عن الرب أنه كان يقضي **الليل كله** في الصلاة (لو ٦: ١٢).

كما أن **الصوم** يُغطِّي فترات طويلة من العام. **والتاريخ** صار يضم معاملات الله مع الإنسان، فهناك احتفالات وأعياد متجدِّدة على امتداد الأعوام والقرون **كالفصح** في العهد القديم، وفي العهد الجديد **التجسُّد والميلاد والظهور الإلهي والصليب والقيامة والصعود وحلول الروح القدس**. كما ارتبطت الأيام أيضاً بذكرى الأنبياء والقديسين وآباء الكنيسة وشهدائها على مدى العصور.

(٤) المؤمن والزمان الحاضر

في تحنُّنه جعل الله الزمن لنا **زمان الافتقاد** بمجيء المخلِّص، الذي نجا كل مَن آمن به، وحاق الخراب بمَن رفضوه (لو ١٩: ٤٤)؛ أو **زمان الغربة**، باعتبار أن وجودنا على الأرض مؤقت عابر لأنه "**ليس لنا هنا مدينة باقية، لكننا نطلب العتيدة**" (عب ١٣: ١٤)، "فنثق ونُسرُّ بالأَوْلَى أن **نتغرَّب** عن الجسد **ونستوطن** عند الرب" (٢كو ٥: ٨). والكتاب يدعونا أن نسير **زمان غربتنا** بخوف (١بط ١: ١٧).

ما يثير الأسى أن الزمن صار للبعض **زمن الجهل** (أع ١٧: ٣٠؛ رو ١: ٢٢) **والضلال والتغرُّب عن الله**؛ وللبعض **زمن الغباء والحمق وعبادة المال والقوة والذات** (لو ١٢: ٢٠؛ رو ١: ٢١؛ ١تي ٦: ١٠؛ ٢تي ٣: ٢)؛ وللبعض **زمن الفساد والشهوة** والعيش في الظلام (٢بط ١: ٤)، وهو زمن **التعاسة والحرمان والآلام** لمَن تُحاصرهم مصاعب الحياة دون أن يلتفتوا إلى الله محب البشر ومُخلِّصهم لينالوا التعزية والمجازاة.

بالطبع فإنه لا يخلو زمان المؤمنين من الآلام بأنواعها، ولكنها مقبولة من يد الله الذي يُشاركهم آلامهم مُجرَّباً، ومِن ثمَّ "**يقدر أن يُعين المُجرَّبين**" (عب ٢: ١٨).

والشكر هو ردُّ المؤمن الطبيعي على كل عطايا الله بحلوها ومُرِّها، وهو ما يُجرِّد الآلام من أشواكها، خاصةً والكتاب يجعل شركتنا في المسيح شاملة آلامه ومجده معاً: "**إن كنا نتألم معه، لكي نتمجَّد أيضاً معه**" (رو ٨: ١٧).

نحن بخلاصنا، إذاً، قد تحرَّرنا من سلطان الزمان حتى ونحن لا نزال على الأرض. وكلمة الله تحثُّنا أن نستثمر الوقت القليل المُقصَّر (١كو ٧: ٢٩) من أجل تتميم خلاصنا هنا (في ٢: ١٢)، تطلُّعاً إلى خلاصنا الأخير (مت ١٠: ٢٢؛ ٢٤: ١٣؛ مر ١٣: ١٣؛ في ٣: ٢٠،٢١؛ عب ٩: ٢٨؛ ١بط ١: ٥). فليس عندنا غير الساعة الحاضرة: "انظروا كيف تسلكون بالتدقيق... **مفتدين الوقت لأن الأيام شريرة**" (أف ٥: ١٥،١٦)، "عظوا أنفسكم **كل يوم** ما دام الوقت يُدعَى **اليوم**" (عب ٣: ١٣)، "**إنها الآن ساعة** لنستيقظ من النوم. قد تناهَى الليل وتقارَب النهار" (رو ١٣: ١١،١٢)، "هوذا الآن **وقت مقبول**. هوذا الآن **يوم خلاص**" (٢كو ٦: ٢).

وسفر الرؤيا يبدأ وينتهي بأن الوقت قريب لمجيء الرب:

+ "طوبى للذي يقرأ وللذين يسمعون أقوال النبوَّة، ويحفظون ما هو مكتوبٌ فيها، لأن **الوقت قريب**" (رؤ ١: ٣)؛

+ "وقال لي: لا تختم على أقوال نبوَّة هذا الكتاب، **لأن الوقت قريب**" (رؤ ٢٢: ١٠).

(٥) عن نهاية الزمان

الكتاب المقدس والعلم يتكلَّمان عن نهاية الكون ونهاية الزمان الحاضر. والموت، الذي هو قانون الحياة، دليلٌ ساطع على نهاية الزمان.

والقديس بطرس يكتب في رسالته الثانية عن: "**يوم الرب الذي فيه تزول السموات بضجيج، وتنحل العناصر محترقة، وتحترق الأرض والمصنوعات التي فيها... الذي به تنحلُّ السموات ملتهبة، والعناصر محترقة تذوب**" (٢بط ٣: ١٠،١٢).

والقديس بولس يحثّنا ألاَّ يستغرقنا العالم الحاضر، فرحاً أو بكاءً أو تملُّكـاً: "**لأن هيئة هذا العالم تزول**" (١كو ٧: ٢٩-٣١).

وإذا كان الكتاب المقدس يبدأ بما كتبه النبي موسى في سفر التكوين عن خلقة الزمان: "**في البدء خلق الله السموات والأرض**" (تك ١: ١)، فإنه يختمه بما كتبه القديس يوحنا - بعد موسى بحوالي ١٦ قرناً - في سفر الرؤيا، عن نهاية الزمان والكون: "والملاك الذي رأيته... رفع يده إلى السماء، وأقسم بالحي إلى أبد الآبدين، الذي خلق السماء وما فيها والأرض وما فيها والبحر وما فيه، **أن لا يكون زمانٌ بعد**" (رؤ ١٠: ٥،٦)، ويضيف: "**ثم رأيتُ سماءً جديدة وأرضاً جديدة**" (رؤ ٢١: ١)، وأنه في المدينة الجديدة **لا مكان للموت أو الدموع أو الحزن أو الصراخ أو الوجع** (رؤ ٢١: ٤)، "**ولا يكون ليلٌ هناك، ولا يحتاجون إلى سراج أو نور شمس، لأن الرب الإله يُنير عليهم، وهم سيملكون إلى أبد الآبدين**" (رؤ ٢٢: ٥).

(٦) المؤمن ونهاية الزمان

أمام نهاية زمان حياتنا بالموت وتوقُّع فناء الكون يوماً ونهاية كل الزمان، تختلف المواقف، وربما نستطيع أن نُميِّز هنا جماعات ثلاث:

(أ) **فهناك بين البشر مَن لا يعنيهم أمر الموت ولا يُفكِّرون فيه**. ومن هؤلاء: الماديون المنحصرون في يومهم، المستغرقون في عملهم ومشاغلهم، في استمتاعهم ولذّاتهم، وعندهم خططٌ للمستقبل ليس للموت فيها أي اعتبار، ولا مكان في قاموس حياتهم لمفردات من نوع "الاستعداد" أو "التوبة".

+ ومنهم مَن يرى أنه أتفه من أن يكون له موقف ما. إنه يرى أرضنا بكل ما عليها في هذا الكون الشاسع هي مجرد حبة رمل على شاطئ بحر، وأن الإنسان الذي يُفكِّر في غَدِه شخص مغرور يشعر بأهميته بينما هو لا يختلف عن نملة تسعى بين أشجار غابة هائلة. وبالتالي فهو يتعامل مع قضية مصيره باحتقار

وإهمال، ولا يبالي بالنهاية.

+ ومنهم الجسديون الغارقون في الشهوات، والمتاجرون بالنجاسة والفساد وتغييب العقل، والخارجون على القانون، والمعتدُّون بقوتهم والمستغلون نفوذهم، والمتكلون على أموالهم، والذين يضطهدون الآخرين ويتسلَّطون عليهم، إلى آخر هذه القائمة التعسة من النفوس المتغربة عن الله.

(ب) على أن هناك من أهل العالم مَن يحفلون بالموت، ولكن يسيطر عليهم خوفه، وينتظرونه بتوجس ورعب. وهم يجتهدون أن يطردوا شبح التفكير فيه بالاستغراق في العمل والانشغال بأمور العيش والانغماس في لذَّات الحياة.

+ وبينهم أيضاً المتفائل، وشعاره المخادع أن رحمة الله تسع الجميع، وأنه من غير المعقول أن يهلك الله ملايين البشر الذين خلقهم. فهو يريد الله بغير عدله، وفي استهتاره يدوس ابن الله ودمه النازف، مزدرياً بروح النعمة (عب ١٠: ٢٩)، متناسياً أن الفداء المجاني يُحتِّم الدينونة.

+ وهناك بين جماعة المؤمنين، الفرِّيسيون المعتدُّون بأعمالهم ويرونها ضمان خلاصهم، ناسين أننا خلصنا بدم المسيح. و"**بأعمالنا ليس لنا خلاص**" (كما يقول المُصلِّي في قطع الخدمة الثالثة من صلاة نصف الليل)، **وأن كل أعمالنا في حياتنا الجديدة هي برهان حبنا لَمن فدانا وثمار إيماننا الحي** مُصدِّقين على كلمات الرب. "**متى فعلتم كل ما أُمرتم به، فقولوا إننا عبيد بطالون**" (لو ١٧: ١٠).

(ج) للمؤمنين، إذاً، موقف مُغاير من الموت ونهاية الزمان كله. فنهاية الحياة والزمن مؤقَّتاً بالموت ليست بالنسبة لهم مفاجأة تعسة، وإنما الموت هو ما جازه الرب لأجل كل واحد ليجعله مَعْبَراً إلى الحياة الدائمة وشركة الله ومجده:

+ المؤمن الحقيقي الذي يسير زمان غربته بخوف ملتصقاً بإلهه ووصاياه، يثق أنه **بدم المخلِّص قد انتقل من الموت إلى الحياة الأبدية**، وأنها نصيبه الذي أنعم به عليه مَن مات من أجله. ولكنه، في نفس الوقت، يظل على التزامه، ولا يتساهل مع نفسه أو يستهتر أو يفقد مخافة الله أو يتعالى على التوبة، **فيقين الخلاص يتصل**

اتصالاً وثيقاً بأمانة المؤمن (إلى الموت) كي ينال إكليل الحياة (رؤ ٢: ١٠).

+ ومن ناحية أخرى، فالمؤمن الحقيقي لا يرفض حياته الحاضرة أو يحتقرها (أو يكره العالم الذي يعيش فيه)، إنما هو يقبلها كنعمة من يد الله، يمجِّد من خلالها اسمه **كنور للعالم وملح للأرض** (مت ٥: ١٣،١٤). وهو لا يتعجَّل موته حتى وإن غبط الذين سبقوه إلى المجد. وهو، وإن اشتهى الأبدية كبولس الرسول (في ١: ٢٣)، إلاَّ أنه راضٍ بخطة الله في حياته وإن اقترنت بالآلام، مترجياً يوماً يمسح فيه الله كل دمعة من عينيه ويضمِّد كل جراحه.

+ المؤمن موقِن بالطبع أن الكون بكل أفلاكه سيَفْنَى يوماً، ولكن هذا لا يجعله يحتقر الكون لأنه في الأساس خليقة الله وصنعه، **وكل ما خلقه الله رآه حسناً وحسناً جداً** (تك ١: ٤،١٠،١٢، ١٨،٢١،٢٥،٣١). وهو عندما يتأمل خليقة الله التي تموت والتي سوف تَفْنَى يُمجِّد الله خالقها الأعظم: من الشمس والقمر والنجوم، إلى المحيطات والبحار والأنهار، والجبال والصحاري والغابات والجليد، ومن البكتريا والطحالب والمراجين، والأشجار والزهور والثمار، إلى الديدان والحشرات والقواقع والأسماك والزواحف والطيور والوحوش والدبَّابات. وكل نتاج العقل الإنساني، علماً وأدباً وطِبّاً وفناً وصناعةً واختراعاً، يمجِّد الله لأنه خلق العقل الذي وهبه للإنسان كي يفحص الكون من حوله.

+ نعم، مجموعتنا الشمسية هي مجرد واحدة من بلايين. وأرضنا هي كقطرة في محيط، والنوع الإنساني هو واحد من عدة ملايين قليلة من أنواع الأحياء. ولكننا مع هذا نختلف عن غيرنا لأن الله **خلقنا على صورته** (تك ١: ٢٦،٢٧). ورغم هشاشتنا وضعفنا وخطيتنا، ظللنا محبوبين عنده "**لذَّاتي مع بني آدم**" (أم ٨: ٣١). ومن محبته بذل ابنه الوحيد الذي أخذ جسدنا وصنع لنا فداءً أبدياً (عب ٩: ١٢).

+ ومنذ فجر البشرية، والإنسان – رغم قصوره وموته – متطلِّع إلى اللانهائية، وساعٍ إلى الخلود: "**صنع الكل حسناً في وقته. وأيضاً جعل الأبدية في قلبهم، التي بلاها** (بدونها) **لا يُدرك الإنسان العمل الذي يعمله الله من البداية إلى**

النهاية" (جا ٣: ١١). ويقيننا بالأبدية هو ما نغلب به الموت الذي يُلاحقنا.

+ إن ارتباط الكون والإنسان والزمن بالله الذي خلقه وخلَّصه، هو ما يُعطيه قيمته. فنحن على هذه الأرض التي ستحترق في آخر الأيام عرفنا المسيح ونلنا خلاصنا بدمه. وخبرتنا مع الله هنا على الأرض هي التي ستُحدِّد موقعنا في ملكوته الأبدي، وعلى قدر حبنا لله والقريب، وعلى قدر طاعتنا للوصية، وعلى قدر أمانتنا لمخلِّصنا هنا وشهادتنا له أمام العالم سيكون نصيبنا في الملكوت. "**كنت أميناً في القليل، فأُقيمك على الكثير**" (مت ٢٥: ٢١،٢٣).

(٧) المجيء الثاني يختم الزمان

القديس بطرس وهو يبشِّر الناس بالخلاص داعياً إيَّاهم إلى التوبة والرجوع إلى الله لتُمحى خطاياهم، يوجِّه أنظارهم إلى نهاية الأيام: "**لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الرب، ويُرسِل يسوعَ المسيح المُبشَّر به لكم قَبْلُ. الذي ينبغي أن السماء تقبله، إلى أزمنة ردِّ كل شيء، التي تكلَّم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر**"(أع ٣: ١٩-٢١).

والقديس بولس وقف وسط آريوس باغوس يُخاطب فلاسفة أثينا عن الله الذي "**به نحيا ونتحرَّك ونوجد**"، منادياً أنَّ "**الله الآن يأمر جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا، مُتغاضياً عن أزمنة الجهل. لأنه أقام يوماً هو فيه مُزمِعٌ أن يدين المسكونة بالعدل، برَجُلٍ قد عيَّنه مُقدِّماً للجميع إيماناً إذ أقامه من الأموات**" (أع ١٧: ٢٨،٣٠،٣١).

وفي رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس، يكتب القديس بولس أنه: "**لابد أننا جميعاً نُظهَر أمام كرسيِّ المسيح، لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع، خيراً كان أم شراً**" (٢كو ٥: ١٠). ووعْد الرب يقول: "**ها أنا آتي سريعاً وأُجرتي معي لأُجازي كل واحد كما يكون عمله**" (رؤ ٢٢: ١٢).

فإذا كان بمجيء المسيح الأول "كَمَلَ الزمان واقترب ملكوت الله" (مر ١: ١٥)؛

فإن المجيء الثاني للرب واستعلان مجده (١بط ٤: ١٣)، **يختم الزمان "الأخير"** (١بط ١: ٥)، ويُستعلَن الملكوت، ويدخل المؤمنون معه في مجد **ملكوته الأبدي** (دا ٤: ٣؛ ٧: ٢٧)، الذي هو **بيتنا الأبدي** أيضاً (جا ١٢: ٥).

✺ ✺ ✺

احتفالنا بكل عام جديد، إذاً، لا يُقصَد به ابتهاجنا بامتداد حياتنا بعض الوقت، ولا يعني غفلتنا أن العام الوليد سوف يشيخ ويموت كسابقه؛ وإنما هو إعلان شكرنا على رفقة الله في سابق الأيام وقادمها، وتجديد عهدنا على التصاقنا بالله وزمنه الحقيقي المتسع الذي لا ينحصر في سنواتنا الأرضية، ولو امتدت إلى البلايين. فالأبدية التي وعدنا بها ليس لها نهاية، وأعظم ما فيها ليس الحياة الممتدة، وإنما شركة الله الآب والابن والروح القدس، وملائكته وقديسيه، ونهاية الموت وقصور الحياة والضعف الإنساني: "**يزرع في فساد ويُقام في عدم فساد. يُزرع في هوان ويُقام في مجد. يُزرع في ضعف ويُقام في قوة**" (١كو ١٥: ٤٢،٤٣).

ما أبهج يوم اللقاء.

"إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلي السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلي السماء" (أع ١:١١)

الإنسان وكوارث الطبيعة

تمهيد

+ فجر ٢٦ ديسمبر ٢٠٠٤ فاجأ العالم **سونامى** Tsunami [١] شرق آسيا (منطقة أتشه بجزيرة سومطرة الإندونيسية) الذي امتدت آثاره غرباً خلال ساعات إلى أكثر من عشر دول أسيوية (منها تايلاند وماليزيا وسريلانكا وبنجلاديش والهند) وحتى شرق أفريقيا (الصومال وكينيا وتنزانيا) وراح ضحيته نصف مليون قتيل، و٥ ملايين مشرد، ومفقودون بغير عدد (بينهم مسلمون وهندوس وبوذيون

(١) سبّبته صدمة جبارة بين طبقتين من طبقات الأرض في قاع المحيط الهندى (بما يتيح تحرير الطاقة المحتبسة) أحدثت زلزالاً بقوة ٦ درجات بمقياس ريختر نجم عنه مدٌّ موجي هائل اندفعت على أثره بلايين الأطنان من المياه بسرعة مئات الأميال وارتفاع ٣٠ قدماً كحائط عملاق هادر يجرف في طريقه الشواطئ والمدن بمن وبما فيها من بشر وشجر وحيوانات ومبانٍ وسيارات وقطارات على امتداد آلاف الأميال.

ومسيحيون، آسيويون وأفارقة وأوروبيون)، ومدن سوِّيت بالأرض وتحولت إلى مقابر جماعية.

+ بعد ذلك بأقل من عام، في ٢٦ أغسطس ٢٠٠٥، كان إعصار **كاترينا** Katrina الذي أغرق ولايتين جنوب الولايات المتحدة هما لويزيانا (خاصة عاصمتها نيوأورليانز) وميسيسيبي، وشرّد حوالي مليون مواطن فقدوا كل شئ وتم تهجيرهم فيما بعد إلى ولايات أخرى، فضلاً عما يقرب من ألفين فقدوا حياتهم.

+ وفي ٨ أكتوبر ٢٠٠٥ أودى زلزال بحياة ما يقرب من ٨٥ ألفاً بينهم آلاف التلاميذ والأطفال سقطت عليهم المدارس في كشمير الباكستانية، وامتد إلى مناطق من شمال باكستان والهند وأفغانستان.

+ وفي ٢ أبريل ٢٠٠٧ اجتاح **سونامي** جديد جزر سولومون في المحيط الهادى فأغرق قراها وشرّد الآلاف.

+ وفي ٥ مايو ٢٠٠٨، كان إعصار **نارجيس** في ميانمار (بورما) الذي راح ضحيته مائة ألف، ومليوني مشرد ودمّر ٣٨ مدينة بأكملها ومئات القرى.

+ وفي ١٣ مايو ٢٠٠٨ تعرّض إقليم سيشوان (جنوب غربي الصين) لزلزال مروع راح ضحيته ١٢ ألفاً ودفن الآلاف تحت الأنقاض.

+ وفي ٢٢ يونيو ٢٠٠٨ كان إعصار **فينجشين** الذي ضرب الصين من جديد ومعها الفيلبين.

+ وفي الذكرى الثالثة لإعصار كاترينا، ضرب إعصار **جوستاف** Gustav من جديد مدينة نيوأورليانز التي لم تكد تسترد عافيتها، وتم تهجير كل سكان المدينة المليونين قبل أن يصل الإعصار بكل قوته إليها، وتقلصت الخسائر هذه المرة إلى ١٠ مليار دولار فقط!، وجاء بعده إعصار **أيك** Ike الذي اجتاح عدداً من المدن في ولاية تكساس.

+ وفي ديسمبر ٢٠٠٩ ضرب زلازالاً جزيرة هيتي Haiti في أمريكا الوسطي ذات الملايين الخمسة فقتل منهم ثلاثمائة الفاً وشرّد مليوناً، ومؤخراً

في ٢٧ / ٢/ ٢٠١٠ ضرب زلزال عنيف آخر تشيلي في أمريكا الجنوبية شرق المحيط الهادي فقتل ثلاثمائة وشرّد الآلاف.

والقائمة لن تنتهي بالطبع وستزيد بمضى الأيام. وبصورة دورية نسمع ونقرأ عن فيضانات وأعاصير شرق وجنوب آسيا وأوروبا وأمريكا الجنوبية، وزلازل الصين واليابان وإيران وتركيا وسائر البلاد التي تقع ضمن أحزمة الزلازل، وحرائق الغابات في أوروبا وأمريكا في موسم الجفاف. والعواصف الثلجية في الشتاء، وأعاصير الولايات المتحدة صارت أوقاتها معروفة سنوياً ومحطات الأرصاد تترقبها وتحدد مساراتها للتعامل معها.

ولهؤلاء الذين لا يرون في هذه الظواهر الطبيعية إلا إعلانات عن غضب الله وإنزاله العقاب بالإنسان[٢] نسوق الحقائق التالية:

أولاً : كوارث الطبيعة هي ظواهر خاضعة لنواميس الطبيعة

(١) الله بالفعل أباد العالم القديم بالطوفان أيام نوح (تك٧: ١٠-٢٤) ولكنه وعد أنه لا يعود يهلك الأرض (تك٨: ٢١)، وصليب المسيح هو علامة محبة الله الأبدية (إر٣١: ٣) وهو دوماً صانع البر والخيرات (مز١٠٦: ٣) ولا يمكن أن يصنع شراً.

(٢) إن الأفلاك محكومة بقوانين إلهية تضمن سلامة الكون حتى "**يوم الرب الذي فيه تزول (تنحلّ) السموات بضجيج (ملتهبة) وتنحلّ العناصر محترقة (تذوب) وتحترق الأرض والمصنوعات التي فيها**" (٢بط٣: ١٠، ١٢).

---

(٢) كان كسوف الشمس وخسوف القمر يعتبران قبل العصور الوسطى علامة غضب إلهي قبل أن يُتبيّن فيما بعد أنهما ظاهرة كونية طبيعية يمكن التنبؤ بهما مقدماً لمئات السنين، وفي الكسوف يحتجب ضوء الشمس عن الأرض بتوسط القمر بين الشمس والأرض، وفي الخسوف يحتجب ضوء القمر عندما يسقط عليه ظل الأرض حاجباً عنه ضوء الشمس.

(٣) إن دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس (في المجموعة الشمسية التي يوجد مثلها البلايين) وما يتبع ذلك من تتابع الليل والنهار والفصول وتغيرات درجات الحرارة وتبخّر مياه المحيطات وتجمعها في السحب ثم نزول الأمطار: هذا كله ضرورة حياتية. فسقوط الأمطار والصعود الدوري لمياه الأنهار (الفيضانات) ترتبط به الزراعة وبالتالي حياة الإنسان والحيوان والمحافظة على الكساء النباتي. والفيضان – تبعاً لكمية المطر – قد يكون عالياً أو منخفضاً، وفي الحالين تتأثر حياة الناس. والبحار قد تكون هادئة أو تثور هادرة. ولكن الإنسان تعلم كيف يتعامل مع الأنهار والبحار، وبنى البواخر الكبيرة التي تنقل عبرها الآلاف فضلاً عن سفن النقل والصيد . فالبحار والأنهار هي مصادر هائلة للخير.

(٤) إن الشمس والماء والرياح والنار لا يُستغنى عنها فهي ضرورية لحياة النبات والحيوان والإنسان. بل إننا نستخدم الآن طاقة الرياح والطاقة الشمسية والذرية في توليد الكهرباء وفي التسخين بل وتسيير سفن الفضاء. ولكن إن لم نحترس فقد تكون هذه الطاقات هي نفسها التي تدمر الحياة (كالطاقة الذرية التي استخدمت في صناعة القنابل التي أهلكت الملايين في هيروشيما وناجازاكي اليابانيتين نهاية الحرب العالمية الثانية). فليس هناك شئ شراً في ذاته.

(٥) إن كل الظواهر الطبيعية هي نتاج لقوانين وأسباب لأمور تترتب عليها. فالضغط الجوي يحرك الرياح وهذه تُسقط الأمطار التي تملأ الأنهار وتروي الحياة. والرياح ضمن عوامل أخرى تحرك المياه فتتجدد مياه المحيطات والبحار، كما تتجدد مياه الأنهار وهي تتجه نحو مصابّها وتغتسل بالفيضان الذي يحمل معه أيضاً الخصوبة للأراضي.

(٦) إن ثورات المحيطات كالسونامى ترتبط بحركة طبقات الأرض الزلزالية. كما أن الفيضانات مرتبطة بسقوط الأمطار التي يتغير حجمها. ولكن الإنسان عبر الأجيال تعلم كيف يتوقع وكيف يتحصن وكيف يتفادى. فهناك وسائل

الإنذار المبكر، والتنبؤ الجوي لعشرة أيام قادمة، وتفادي الحياة في المناطق المهددة (مثلاً قرب البراكين)، أو عمل الحواجز والسدود والجسور، أو تطبيق نظم صارمة للبناء على الأراضي التي تتعرض للهزات الأرضية (كما في اليابان وكاليفورنيا الأمريكية) بحيث تمتص المباني الصدمة وتتمايل ولكنها لا تنهار. والبعض يفيد من مياه الفيضانات العالية ويوجهها لتملأ بحيرات صناعية أو إلى الصحراء سواء لتصريفها أو لزراعة الصحراء[٣].

(٧) إن بعض الحوادث طبيعي، فلنحترس قدر الاستطاعة. ولكن بعضها بفعل الإنسان كالقتل والحروب والإرهاب، أو بالتدخل الجائر والعشوائي في نظم الطبيعة. فالنمو الصناعي غير المنضبط وغير الملتزم بالمعاهدات [٤] أدى إلى زيادة نسبة ثاني أكسيد الكربون الذي يلوث الأرض وسمح باختراق طبقة الأوزون الحامية لجو الأرض مما أدى إلى ارتفاع درجة حرارة الأرض warming Global وهو ما سبب ذوبان ثلوج القطبين وما يتبعه من ارتفاع مستوى المحيطات واحتمال اجتياح البحار لسواحل أقطار عديدة، وهو السر في زيادة اضطرابات الطبيعة من فيضانات وأعاصير. فنحن بأيدينا ندمر حياتنا، وعلينا أن نحترم الطبيعة ونتعامل وإياها بحسب خبراتنا معها. فهولندا — مثل لويزيانا — تقع تحت سطح البحر، وهي استطاعت قبل حوالي القرن أن تبني الحواجز Levees التي يمكن أن تجابه الأعاصير من المستوى الرابع كإعصار كاترينا الذي لم تتحمله حواجز

---

(٣) في مصر هناك موسم للسيول في سيناء وجنوب الصعيد. وإضافة إلى الاستعداد للطوارئ والإغاثة فإن التنبؤ بمسارات السيول يسمح بتفادي آثارها المدمرة. ولكنها يمكن أن تتحول إلى نعمة إذا أُنشئت خزانات في مواقع مناسبة تسمح بتخزين هذه المياه الكثيرة ثم استخدامها في زراعة الصحراء.

(٤) ترفض الولايات المتحدة حتى الآن التوقيع على معاهدة كيوتو لضبط حجم الانبعاثات الغازية (ثاني أكسيد الكربون أساساً) لأنها ترى في هذا الالتزام ما يهدد نموها الاقتصادي، وهو تراجع لا تريد أن تتحمّله أغنى دولة في العالم. وفي الواقع فإنها أسهمت بموقفها هذا بشكل ما لما تعرضت له ولاياتها الجنوبية بانهيار السدود أمام جبروت المياه في خليج المكسيك واضطرت أن تنفق ٤٠٠ بليون دولار (بمعدل بليون دولار كل يوم!) لكي تعالج آثار إعصار كاترينا التي خلفها في يوم واحد.

نيوأورليانز المهيأة للتعامل مع أعاصير المستوى الثالث بحد أقصى، وهكذا انهارت تحت وطأة الإعصار وغرقت المدينة.

ثانياً: الوجه الآخر للكوارث الطبيعية

على أن هناك وجهاً آخر للكوارث الطبيعية ... وهو وجهها المضئ :

(١) وإذا كان الشاعر القديم قد رحّب بالمحن التي كشفت له معادن الناس من حوله فعرف بها أصدقاءه من أعدائه، فإنه **وسط الكوارث تنفجر مشاعر إنسانية عظيمة تنتظر مأساة كهذه لتخفف عن ضحاياها**، وهكذا تزول الحواجز الإنسانية: عنصراً وديناً ولغةً وفوارق اجتماعية واقتصادية، وتهرع الحكومات [٥] والمؤسسات الدولية والاجتماعية والدينية – متجاوزة حتى العداوات التقليدية[٦] والاختلافات السياسية – للمساعدة بالتبرع وإرسال المعونات ومجموعات الإنقاذ والفرق الطبية (بل ومستشفيات عائمة) وإعداد أماكن الإيواء للمشردين الناجين من الهول.

(٢) من المفارقات **أن بعض الكوارث تاتي بالخير على الناجين**، فبعد أن كانوا يسكنون في أحياء عشوائية وجحور مظلمة، تتيح المساعدات أن تُبنى لهم بيوت تليق بالآدميين كما حدث في مصر بعد زلزال أكتوبر ١٩٩٢ وفي جنوب آسيا بعد السونامى.

(٣) من الجوانب المشرقة **أن الإغاثة تمتد أيضاً إلى الحيوانات** التي لم يستطع الفارّون بجلودهم اصطحابها معهم. وقد طاف رجال الإنقاذ في قوارب ببيوت نيوأورليانز، التي حاصرتها المياه والتي هجرها أصحابها،

---

(٥) شارك الرئيسان الأميريكيان السابقان بيل كلينتون وجورج بوش في حمل المعونات التي تقلتها الطائرات لمساعدة الناجين من شعب هيتي .

(٦) الهند – التي تنازع باكستان على كشمير – قدمت لباكستان المساعدة في زلزال كشمير (أكتوبر ٢٠٠٥).

ينقذون الحيوانات التي تركها هؤلاء وراءهم أو من دهمهم فيضان الماء: كلاب وقطط وسلاحف وسحالي وغيرها وأودعوها ملاجئ للرعاية وأتاحوا الفرصة لأصحابها أن يأتوا فيما بعد لكي يلتئم الشمل، ورأينا عواطف عظيمة وحباً متدفقاً متبادلاً بين الحيوان وعائله. ووسط الأهوال قدم بعض الضحايا الفقراء أمثلة للحب الخالص في هذا المجال، فلم يحتملوا أن يتركوا كلابهم وقططهم التي شاركتهم حياتهم ويهربوا دونها فبقوا معها في انتظار إنقاذهم جميعاً. كما أقبل الناس على تبنّي الحيوانات التي هاجر أصحابها إلى أماكن بعيدة أو الذين غيّبهم الموت.

(٤) ولكن الأجدر بالإشادة هم المتطوعون – ومعظمهم من الشباب – الذين بدافع إنساني فردي يطيرون من بلادهم البعيدة كي يسهموا في أعمال الإنقاذ والإغاثة – مقدمين بطولات نادرة – تأكيداً لأخوّة جميع البشر ومشاركة الآخرين في آلامهم. وفي أحداث إعصار كاترينا استضاف الكثيرون في بيوتهم عائلات كاملة لأسابيع [٧] **فقدموا لنا نماذج عظيمة في تنفيذ وصية الرب بإيواء الغرباء مما لن يُنسى لهم في اليوم الأخير**. وقامت كنائس كثيرة في محيطها بتقديم المساعدة من استضافة وغذاء وتوطين وتوظيف وتدريس الصغار فمارسوا خدمة مجدّت المسيح[٨].

---

(٧) نذكر هنا أن طبيباً أضطر أن يستضيف في بيته الصغير والدين سائحين فاجأهما إعصار نيوأورليانز، وأنجبت الأم طفلاً مبتسراً، وكان ينقلهما بسيارته كل صباح إلى المستشفى لكي يتابعا حياة ابنهما في حضّانته ولمدة شهرين. بالفعل فإن مياهاً كثيرة لا تستطيع أن تطفئ المحبة (نش ٨:٧).

(٨) هذا درس لنا أن نمارس وصية الرب "**جعت فأطعمتموني. عطشت فسقيتموني. كنت غريباً فآويتموني. عرياناً فكسوتموني مريضاً فزرتموني. محبوساً فأتيتم إليّ**" (مت ٢٥:٣٥-٤٠). فإذا كان الرب قد دعا هؤلاء المحتاجين إخوته فهم يكونون أيضاً إخوتنا فلنشاركهم ضيقهم كأننا في الضيقة (عب١٣:٣). والكتاب يذكّرنا "**لا تنسوا إضافة الغرباء**" (عب١٣:٢) بل أن نكون "**عاكفين على إضافة الغرباء**" (رو١٢:١٣)، أي أن تكون هذه الخدمة اتجاهاً حياتياً وليس أمراً طارئاً. وإذا كانت الشكوك وشرور الإنسان قد جعلت إضافة الغرباء في البيوت أمراً لا يرتاح له الكثيرون، فعلى الأقل يمكن للمؤمنين من خلال الكنيسة أن يأووا الغرباء بغير تمييز ويخدموهم خاصة في ظروف المحن كالزلازل والحرائق وحوادث الطرق والانهيار المنازل وهي

(٥) وإذا كان في كارثة سونامى ٢٠٠٤ (هيتي ٢٠٠٩) أن نهضت الدول الغنية بالعبء وخصصت الملايين، فإنه بعد ثمانية شهور في كارثة إعصار كاترينا، جاء دور الدول الفقيرة لكي ترد الجميل ولتقدم كأرملة الفلسين مساعداتها لأغنى بلاد العالم مساندة إياها في محنتها، وإن كان بالقليل، **فهكذا تكشف الكوارث عن أخوّة البشر الأغنياء والفقراء وحاجة كل منهما للآخر**[٩].

(٦) لم يخلُ المشهد المأساوي (في سونامي ٢٠٠٤) من المفارقات العجيبة التي تشهد على تدخّلات الله وعنايته وسط الأهوال لنجاة البعض والقدرات التي أودعها الله في بعض خلائقه:

+ فإن طفلة عمرها عشرون يوماً (اسمها سوبيا تولاسى) وجدها والداها ماتزال نائمة في مهدها العائم بعد ساعات من قذف الأمواج الضارية إياهم من مطعم كانوا فيه معاً بمنطقة بينانج بماليزيا.

+ كما اكتُشف صبي عمره ١٨ شهراً من كازاخستان في فراش طافٍ على المياه بينما هلك والداه.

+ ظلت امرأة أندونيسية (٢٣ سنة) اسمها ميلاواتي خمسة أيام في عرض المحيط الهندي متعلقة بشجرة نخيل انتزعها الموج الضاري في إقليم آتشه (سومطرة الإندونيسية) حتى أنقذها مركب ماليزي.

تحدث عندنا كل يوم (ولاتزال كارثة الدويقة، حيث انهارت صخور المقطم على مساكن الفقراء، ماثلة في الأذهان).

(٩) رغم كل الجوانب المشرقة التي تظهر وسط ركام المآسي والأحزان فإن هناك دائماً ما يشوه وجه الإنسانية من دناءة بعض البشر الذين يجدون لهم موقعاً وسط الكوارث فيظهر اللصوص كضباع الغابة منتهزين الفرصة ومغامرين وسط الأهوال لكي ينهبوا البيوت والمحال التي يعثر أصحابها تحت وطأة الكارثة ليستكملوا مكيال الهول فيها، وكأنما ليثبتوا أن **"تصوّر قلب الإنسان شرير منذ حداثته"** (تك٨:٢١). وكما سبق وأعلن الرب ستظل الحنطة والزوان ينميان معاً حتى وقت الحصاد، عندها يحرق الزوان أما الحنطة فمآلها إلى ملكوت الله (مت ١٣:٣٠).

+ بقى رجل اسمه سيڤيسينا (٦٠ سنة) تحت أنقاض متجر على شاطئ "جال بسريلانكا" لمدة أسبوعين حتى تم إنقاذه.

+ بعد ١١ يوماً من زلزال سيشوان تم انتشال رجل مشلول (٨٠ سنة) كان محاصراً تحت الأنقاض وظل على قيد الحياة لأن زوجته، التي لم يُعرف مصيرها، كانت تطعمه خلال هذه المدة.

+ أما ما يتعلق بالحيوانات: كبيرها وصغيرها، ضاريها وأليفها، فإنها شعرت بالخطر الداهم قبل وقوعه فهجرت مواقعها القريبة من الشواطئ. وبعضها قطع قيوده واقتحم السياجات المحيطة به، ناجية بنفسها فلم يهلك منها إلا القليل. وهكذا أودع الله في خلائقه غير العاقلة ما يجنبها مثل هذه الأخطار أو أنه ألهمها أن تفر من مواقعها.

ثالثاً : هل من رسالة إلينا ؟

قبل أيام من صليبه أنبأنا الرب أن الأرض ستتعرض إلى " **مجاعات (واضطرابات) وأوبئة وزلازل (عظيمة في أماكن، والبحر والأمواج تضجّ)... ولكن هذه كلها مبتدأ الأوجاع (ولكن ليس المنتهى بعد)** (مر١٣: ٧، ٨ ، لو٢١: ٩، ١١، ٢٥).

نعم ... هذه كلها مبتدأ الأوجاع، ولكنها ليست النهاية.

في النهاية "**تظلم الشمس والقمر (بالتالي) لا يعطي ضوءه والنجوم تتساقط من السماء وقوات السموات تتزعزع وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء بقوة ومجد كثير**" (مت٢٤: ٢٩، ٣٠، مر ١٣: ٢٤-٢٦، لو٢١: ٢٥-٢٧).

أما الذي نراه الآن فهو "**ضيق بتلك الأيام**" (مت ٢٤: ٢٩، مر ١٣: ٢٤، لو٢١: ٢٣) والذي تنبأ الرب بحدوثه مقترناً بخراب أورشليم وهيكلها. فإذا كنا في أيام ضيق شبيهة بما جرى في الماضي قبل عشرين قرناً، فلنستمع إلى ما قاله الرب لتلاميذه ولنا نحن الذين انتهت إلينا أواخر الدهور:

"فاحترزوا لأنفسكم لئلا تثقُل قلوبكم في خمار وسكر وهموم الحياة، فيصادفكم ذلك اليوم (مجاعة، وباء، إعصار، زلزال، سونامى) **بغتة... اسهروا إذاً وتضرعوا في كل حين (لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت) لكي تُحسبوا أهلاً للنجاة من جميع هذا... وما أقوله لكم أقوله للجميع اسهروا"** (مر١٣:٣٣، ٣٧، لو ٢١:٣٤-٣٦).

هذه الأهوال، التي نزلت كصاعقة على إخوة لنا في العالم وإن لم تقترب منا، هي إنذار لنا أن نحيا ساهرين مستعدين (لو١٢:٣٧، ٤٠). فهم لم يكونوا أشرّ منا ونحن لسنا أبرّ منهم. وكلمات الرب التي قالها أيام تجسده تظل على جدّتها إلى آخر الأيام **"إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون"** (لو١٣:٥). ومعلمنا بولس في نفس المجال ينادي **"فلا ننم إذاً كالباقين بل لنسهر ونصُح"** (١تس٥:٦).

فلنثبت على ما تعلّمنا (٢تى٣:١٤)، **ولساعة النهاية لتبْقَ توبتنا وعبادتنا متأججة، واستعدادنا كاملاً : أحقاؤنا ممنطقة** (بالحق – أف٦:١٤) **وسرجنا موقدة** (بالروح – لو١٢:٣٥) **ولتثبت المحبة الأخوية** (عب١٣:١) **ولنمسك بالحياة الأبدية** (١تى٦:١٢).

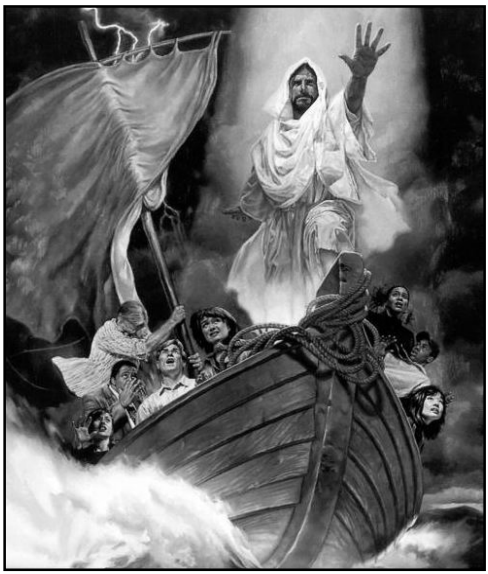

"**فقام و انتهر الريح و قال للبحر اسكت. ابكم. فسكنت الريح و صار هدوء عظيم**" (مر ٤ : ٣٩).

الدين والشريعة والقانون

مما يقال عن أنه كان هناك ضرورة لمجئ أديان أخرى بعد المسيح، أن العالم كان في حاجة إلى شريعة جديدة واقعية تحكم الناس، لأن ما جاء به المسيح من تعاليم لا يصلح لتنظيم أنشطة المجتمعات. فتحويل الخد الأيسر عندما يُلطم الخد الأيمن (مثلاً) (مت ٥:٣٩) يعبّر عن شريعة خيالية قد يمارسها المتصوفون ولكنها لا تصلح لعالمنا، لأن الآخر الذي ننصاع بتخاذلنا لعدوانه سوف يتجاسر أكثر، فبقدر ما نتراجع نحن بقدر ما يتقدم هو، ولن يتوقف حتى يقضي علينا. فمثل هذه الوصية في النهاية تجعل العالم أكثر شراً . وعلى أي حال، فالمسيح نفسه أعلن أنه لم يأت قاضياً يحكم بين الناس (لو١٢:١٤)، وأن مملكته ليست من هذا العالم (يو١٨:٣٦) أي أنه في الحقيقة لم يدّع أنه جاء بقانون، مما يتحتم معه أن يأتي قانون يسوس الناس.

ما مدى صحة هذا الكلام ؟

وهل مبادئ المسيح كما يقول الناقدون هي مثالية ظاهرياً إلى الحد الذي لا يمكن تفعيلها، وأنها بالتالي لا تصلح لعالمنا الحاضر؟

وقبل هذا كله وبعده، هل جاء المسيح بالفعل بشريعة كقانون بين النـــاس ففشلت عند اختبارها، حتى احتاج العالم لشريعة تناسب أحوال الناس بصورة أفضل؟

وهل من علاقة في الأساس بين الدين والقانون؟

ها نحن نجيب على هذه الأسئلة تباعاً.

❍ ❍ ❍

(١) الوصايا العشر وفجر القانون :

يمكن القول إن الله قد وضع أساس القوانين في وصاياه العشر التي تسلّمها النبي موسى على جبل حوريب قبل ٣٥ قرناً (خر٢٠:١-١٧). فإضـــافة إلى الأمور المختصة بعلاقة الإنسان بالله بصورة مباشرة، فهناك تلك الـــتي تتعلـــق بالآخر: من إكرام الوالدين، وتحريم القتل والزنا والـــسرقة والـــشهادة الـــزور واشتهاء من وما ينتسب للغير.

ولتحقيق العدل وتأمين الحياة ولردع الناس عن ارتكاب الجرائم كانـــت العقوبة " **نفساً بنفس وعيناً بعين وسناً بسن ويداً بيد ورجْلاً برجْل وكياً بكـــي وجُرحاً بجرح ورضًّا برضّ**" (خر٢١:٢٣-٢٥، لا ٢٤:٢٠، تث ١٩:٢١، مت ٥:٣٨) "**من قتل إنساناً يُقتل**" (لا ٢٤:٢١).

والقوانين التي وُضعت في القرون التالية شرقاً وغرباً استندت بصورة ما إلى الوصايا العشر، ولكنها توسعت لكي تغطي حاجات الناس التي امتدت بمضي الزمن وتشعبت.

(٢) المسيح يكمّل الناموس

المسيح عندما جاء لم يلْغ القوانين أو يغيّرها، لأنه لم يأت بقوانين غير السائدة. وكان القانون الروماني يغطي معظم أرجاء العالم في ذلك الوقت الذي كانت تحكمه روما.

الرب في تعليمه اتجه لتغيير الناس. فبعد تأصّل الشريعة القديمة التي هدفت لسيادة العدل وضبط سلوك البشر، جاء الرب بشريعة العهد الجديد، شريعة الحب التي توقف تيار الخصومة والعداء الذي يغذيه الانتقام والثأر المتواتر[١٠]، وتجبر الخصم على التراجع وتربحه حليفاً للمودّة والسلام. وسوف يكون التغيير بطيئاً وفردياً ولكنه سيتحقق في نهاية المطاف حيث تطرد العملةُ الجيدة العملة الرديئة بعد أن كان العكس.

وبيّن الرب أن التغيير سيتحقق لا بقدرة الإنسان ولا بقوته وإنما بروح الله (زك٤:٦). فالإنسان، بالإيمان بالمسيح، يصير ابناً لله (يو ١:١٢)، وفي المسيح يستطيع كل شئ (في ٤:١٣) وبدونه لا يقدر على فعل شئ، كما قال الرب نفسه (يو ١٥:٥). فمبادئ المسيح هي بالفعل مستحيلة بدون شخص المسيح ولكن به تصبح **"وصاياه ليست ثقيلة"** (١يو ٥:٣).

فتغيير طبيعة الإنسان ليكون أهلاً لملكوت السموات، يجعله صالحاً أيضاً للحياة الحاضرة، منفذاً بكل رضىً للقانون الأرضي مساهماً في جعْل العالم مكاناً للسلام والحب، وبالتالي جعْل القانون صديقاً يُحترم لا عدواً يُسعى لتجاوزه والإفلات منه. فالذين تسودهم الخطية وغرور الغنى والشراهة والطمع والتعصب يكرهون القانون وينشرون الفساد والتمييز ويثيرون الاضطراب والانقسام في المجتمع.

---

(١٣) ولا تزال بقايا شريعة الثأر في صعيد مصر تديم العداء والانتقام بين الأُسرلأجيال بلا نهاية، رغم جهود الحكومات في محاصرة هذا التيار الجارف.

ويمكن القول إن شريعة المسيح وإن لم تأت بديلاً للقوانين، فإنها أرست قواعد **المساواة** بين البشر " **ليس يهودي ولا يوناني. (ختان وغرلة، بربري سكيثي) ليس عبد ولا حر ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع (بل المسيح الكل وفي الكل)**" (غل ٣:٢٨، كو٣:١١)، وجعلت القانون هو الفيصل في حياة الناس، وفيها صار **التسامح** فضيلة عظمى هي علامة السمو والرفعة الإنسانية، حتى أن أكثر العقائد تتمسّح فيها وتتزيّن بها وتخفي بها قصورها وتناقضاتها، وهي التي جعلت العالم يسعى لاقتراب الدول وتعاونها، فينشئ "الأمم المتحدة"، ويتجه نحو السلام ويجتهد لتفادي الحروب بعد أن عانى ويلاتها طويلاً.

(٣) عن شريعة المسيح :

شريعة المسيح تخلق إنساناً جديداً "**إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة**" (٢كو ٥:١٧) "؛ **ولكن الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة**" (١كو٢:١٤) ، ولا يحتمل التراجع أمام المعتدي مهما كانت النتائج وقد لا يسمح حتى بالوساطة مع العدو لإنهاء الخصومة وإحلال السلام. وهو إن لُطم على الخد الأيمن سيلطم من لطمه على خدّيه.

ولكن تبعية المسيح تغيّر قلب الإنسان وتمنحه قوة الصمود والشجاعة وضبط النفس والإمساك بالمعتدي متلبّساً بالخطأ. والرد على المُعتدي بمثل ما اعتدى يريح قلب المعتدي ويعفيه من الشعور بالذنب، في حين أن الصمود أمامه والامتناع عن الرد الفوري على عدوانه واستجوابه عن سبب عدوانه (يو ١٨:٢٣، أع ٢٢:٢٥-٢٨) يضعف موقفه (فلا مبرر لديه بالفعل)، فهو قد تجاوز وتهوّر بغير أن يخطئ إليه أحد. وحتى لو كان متصلّفاً و لم يتراجع على الفور، فهو قد بدا مخطئاً أمام الجميع، وقد يأتي الاعتذار آجلاً أو عاجلاً إن انتصرت إنسانيته.

موضوع اللطمة مجرد مثال، والتوقف وضبط النفس وعدم التعجّل برد الصاع صاعين يحتاج إلى معونة إلهية وإلى مساندة الروح الذي يمنح الوصية قوة تنفيذها. وهدف الوصية هو دائماً هدف عظيم، وهو تحقيق المحبة واستئصال الشر والعداء وانتصار الخير وتمجيد الله صانع الخيرات والبشارة بعهد جديد بين الله والإنسان.

(٤) عن محبة الأعداء

يقول الرب "**سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم**"(مت ٥:٤٤، ٤٥، لو ٦:٢٧). والقديس بولس ينادي بجدوى المعاملة المختلفة للعدو "**إن جاع عدوك أطعمه وإن عطش فاسقه لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه**" (رو ١٢:٢٠)؛ أي أنك تعيد إليه إنسانيته التي كان العداء والتعصب قد أفقداه إياها وجعلاه يضل الطريق.

والآيتان تتكلمان عن موقف شخصي. فأنا مُطالب، بمعونة إلهية، أن أحب عدوّي وليس عدو صديقي أو جاري أو عدو وطني. كما أن اللص الذي يقتحم بيتي ليس عدوّي الشخصي فأنا لا أعرفه من قبل وهو لا يعرفني، وأنا مُطالبٌ أن أدافع عن سلامتي وأحمي عائلتي وممتلكاتي. وغريزة المِلْكية التي أودعها الله فيّ تهدف إلى ضمان سلامتي وسلامة عائلتي وأن أحافظ على ممتلكاتي – التي هي أصلاً عطية الله ونصيبه فيها محفوظ – ولا أتطلع إلى ممتلكات غيري. غير ذلك هو الإهمال والإهدار وعدم الأمانة.

وحماية حياتي تجعلني أدافع عن الهِبة والنعمة التي أعطاني إلهي، إلا عندما يريدها هو استشهاداً أو موتاً، أما غير ذلك فغريزتي التي أودعها الخالق فيّ تجعلني أقاوم الاعتداء عليّ وأتفادى الأخطار دون أن أفكر في الاعتداء على أحد.

وإن تسليم اللص أو المعتدي للعدالة في النهاية يحمي المجتمع من شره، كما أن عقابه يهدف إلى إصلاحه وإنقاذ نفسه من الانحراف وإعادته إلى صوابه.

فالوصية المسيحية لا تشجع الفوضى ولا تدعو للخنوع والجبن وسيادة الخوف، وإنما إلى الانتصار على الشر **"لا يغلبنك الشر بل اغلب الشر بالخير"** (رو١٢: ٢١) وشجاعة المواجهة [١١] وعدم الخوف من الموت.

(٥) إنه عهد جديد

كما ذكرنا فالمسيح لم يأتِ بقانون أو شريعة مدنيّة للتعامل بين الدولة والمواطنين وإنما جاء بعهد جديد لحياة حسب الروح (رو ٨: ١٣).

+ الرب سلّم بأن ما يسود في المجتمعات المدنية هو القانون المدني الوضعي **"إعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر"** (مت ٢٢: ٢١). فأمور التقاضي والمواريث والعقوبات والتجارة والمال والدفاع وغيرها هي ما يتفق عليه البشر وممثلوهم وحكّامهم.

+ والعهد الجديد لم يُعلن به الرب قيام دولة وإنما خلاص البشر. فالوصايا توجَّه للفرد المؤمن في علاقته مع الله ومع إخوته البشر (**تحب الرب إلهك .. وتحب قريبك كنفسك**). ووصية محبة العدو خاصة بالعدو الشخصي وليس بعدو الآخر أو المجتمع أو الدولة أو الكنيسة، وهدفها إنقاذ العدو من خضوعه لأسر الكراهية وإيقاف دائرة العداء وغلبتها بالحب.

+ وعدم مقابلة العدوان بالعدوان لن يكون مع المجرمين واللصوص معتادي الإجرام والخارجين على القانون. فعدم عقابهم وردعهم لا يتيح إصلاحهم وتقويمهم، وهو يسلب المجتمع سلامه وأمنه ويشجع على الفوضى وهدم أسس الدولة، ويتناقض مع العدل الإلهي.

+ ومملكة المسيح ليست من هذا العالم (يو ١٨: ٣٦)، والمسيح لم يأتِ إلى العالم ملكاً أرضياً (يو ٦: ١٥) أو قاضياً (لو ١٢: ١٤) ليوزع مواريث أو ليضع

---

(١١) في ٢٠٠٥/٣/١٢ أستطاعت آشلى سميث أن تغيّر حياة قاطع طريق (برايان نيكولز) بعد أن قادها إلى بيتها وقيّدها، ولكنها بتماسكها وإيمانها فتحت معه حواراً شخصياً، وقرأت له فصلاً من كتاب روحي عنوانه "الحياة الهادفة"، وجعلته يرجع عن شره، حتى أنه سلّم نفسه للشرطة ودخل السجن طوعاً، وأخذ يبشّر رفاقه أيضاً حتى بعد خروجه من السجن.

قانوناً جديداً للعقوبات غير الذي كان في العهد القديم حيث وُضعت أسس القوانين التي تحقق العدل. والرب خضع للقانون القائم ودفع الضريبة رغم مواطنته (مت ١٧:٢٤-٢٧). والقديس بولس حثّ المؤمنين على دفع الضرائب **"لأجل هذا توفون الجزية أيضاً فأعطوا الجميع حقوقهم. الجزية لمن له الجزية ، الجباية لمن له الجباية"** (رو ١٣:٦، ٧).

+ والمسيحي يمكن أن يخضع لأي قانون وضعي[١٢] ويمكن أن يعترض عليه كمواطن إذا رأى أنه يتجاوز العدل[١٣]، وهو مهموم بقضايا وطنه، وقد ينضم إلى حزب سياسي يرى أنه يحقق الخير لبلده، ويمارس حق انتخاب ممثليه وحكامه، وقد يشترك في التظاهر أو الإضراب السلمي، أو قد يحتج على الاعتداء عليه (كما فعل الرب مع خادم الهيكل الذي لطمه أثناء محاكمته أمام رئيس الكهنة – يو ١٨:٢٣)، أو على تجاوز حقوقه كمواطن (كما حدث مع الرسول بولس – أع ٢٢:٢٥)، أو حتى قد يرفع دعوى أمام القضاء أو الرئيس (كما فعل القديس بولس كمواطن روماني – أع ٢٥:١٠-١٢).

+ مبادئ المسيح وإرساليته خاصة بإنقاذ الإنسان من نفسه ومن ضغوط العالم المادي الشرير ومن إغراءات إبليس، ونجاته من الموت الأبدي الذي كان سائداً عليه قبل مجئ المخلص، وهي توفّر قاعدة ثمينة للتعامل الإنساني الذي تحل فيه المحبة محل العداء والتوجس، والتسامح محل الانتقام، وأن يفعل الإنسان مع الآخر ما يريد للآخر أن يفعله به (مت ٧:١٢، لو ٦:٣١)، وهو يبادر بنفسه لكي يغيّر الآخر المُعادي ويجعل الحياة أفضل وأرقى، والعالم محلاً للسعادة والتعاون والسلام وأُخوّة

---

(١٢) **"لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة. لأنه ليس سلطان إلا من الله"** (رو ١٣:١)، **"فاخضعوا لكل ترتيب بشري من أجل الرب... خافوا الله. أكرموا الملك"** (١بط ٢:١٣).

(١٣) لأن العدل أساس الحكم **".. أو للولاة فكمرسلين منه** (من الملك) **للانتقام من فاعلي الشر والمدح لفاعلي الخير"** (١بط ٢:١٤).

البشر مهما طال زمن الحروب والظلم والقسوة والاضطهاد والمعاناة والويلات من كل نوع.

+ من هنا يصير لغواً أن يقال إن الشريعة التي جاءت بعد شريعة المسيح كانت بديلاً لها لأن هذه لم تكن صالحة. فالمسيح لم يأتِ بشريعة مدنية أو قوانين للعقوبات وغيرها، فهذه كانت قائمة بالفعل، ولا تزال، وشريعة المسيح هي لإعداد الناس للحياة في الملكوت السماوي والخلاص من الموت الأبدي والتعامل الإنساني المستند إلى الحب.

وإذا احتاج العالم لتعديل شرائعه وقوانينه فعنده هيئاته التشريعية ومؤسساته القانونية التي تضع قوانين للناس على الأرض. ولا يتطلب الأمر قيام دين جديد، فهذه ليست مهمته، ولكن غايته العظمى هي تغيير الإنسان من الداخل، ليس فقط لحساب الأرض ومعاملاته مع البشر، وإنما في الأساس لحساب مصيره الأبدي.

(٦) الفصل بين السياسة والدين

عبرة التاريخ الإنساني ودروسه تقول إنه من الصواب الفصل بين الدين والشريعة من ناحية والدولة والسياسة والقانون والحُكم من ناحية أخرى.

+ وسائل الدين غير وسائل السياسة. الدين يسعى لمجد الله ويتكلم بالحق والاستقامة ويدين الانحراف والزيف، والسياسة تسعى لإرضاء الناس أو إلهائهم ولو على حساب الحقيقة والحق. ومن أجل حماية الدولة والرؤساء يُبَرّر الظلم والكذب والتجسس والقسوة والقتل وكل المحظورات بل وإعلان الحرب لتأكيد القوة. فاختلاط الدين بالسياسة يسئ للدين ويفسد السياسة ويسبب التعاسة للجميع.

+ ليس من الحكمة في شئ أن يحوّل رجال الدين شرائع الدين من ارتباطها في جوهرها بعلاقة الانسان الروحية مع الله عبادةً وأمانةً وسلوكاً، وانعكاسها على علاقته بإخوته في الإنسانية حباً وخدمةً ومسالمةً، لأن تصير قانوناً للحكم والسياسة

والدفاع والإدارة والقضاء والتجارة والاقتصاد والمال والعلم والتعليم وغيرها (وهذه أمور زمنية خاضعة للتطور والتغيير لتتلاءم مع حاجات الناس التي تتغير).

هذا يحوّل الدولة التي هي كيان أرضي مدني إلى مؤسسة دينية تميّز بين النـــاس على أساس الدين، أي تفتقد العدل والمساواة وهما أساس القانون، فتهدم قواعـــد المواطنة التي يُفترض ألا تفرّق بين المواطنين بحسب معتقداتهم، وهي تحوّل رجـــل الدين، وهو بشر تحت الآلام والضعف، إلى رجل سياسة ودولة يحكم بأمر الدولـــة وظل الله على الأرض – كما كان يقال – وهي أمور عفا عليها الـــزمن وطوتهـــا الأيام منذ عصور الظلام، وعانى منها الجميع سواء رجال الدين أو رجال الحكـــم، كما عانت منها السياسة وعانى الدين، وهي تجعل الدين الثابت لكل زمان ومكان والمتصل بالله المطلق، يرتبط بأحوال الدنيا النسبية والتي تتغير كل يوم وتتطور، وهي تعرّض الدين من ثمّ لتحمّل أوزار قصور القوانين وضعف البشر ويصير بالتالي هدفاً لسهام من يناوئ الدين ويبحث عن ثغراته.

+ عندما زالت الحواجز بين الكنائس والقصور واختلط رجال الكنيسة برجال الحكم والسياسة منذ أن أُعلنت المسيحية ديناً للإمبراطورية الرومانية وحتى العصور الوسطى عندما صارت الكنيسة دولة تحكم وتحرم وتحاكم من لا يروق لهـــا مـــن المواطنين أو المفكرين والعلماء وتصدر عليهم أحكاماً بالموت[١٤]، جاءت المتاعـــب

(١٤) ولا ننسى "محاكم التفتيش" في أسبانيا ذات السمعة السيئة، أو اعتراض الفاتيكـــان وغـــيره علـــى اكتشافات علماء وفلسفات مفكرين عظام غيَّروا وجه الحياة بحجة أنها ضد الإيمان. ويأتي إلى الذهن ســـريعاً اسم **نيكولاس كوبرنيكوس** الفلكي البولندي (١٤٧٣-١٥٤٣) الذي اكتشف أن الشمس هـــي مركـــز الكون المحيط بنا Heliocentric System ، وأن الكواكب تدور حولها وليس حول الأرض كمـــا يبـــدو ظاهرياً، وقد تردّد طويلاً في إعلان ما انتهى إليه خوفاً من الكنيسة و لم ينشره في كتاب إلا وهو على فراش الموت (١٥٤٣). وقتها لم تعر الكنيسة الأمر اهتماماً لانشغالها بانشقاق مارتن لـــوثر (١٥٢١)، ولكنـــها تنبهت إلى ذلك عندما ظهر بعده **جيوردانو برونو** (١٥٤٨ – ١٦٠٠) الذي وإن بدأ راهباً إلا أنه بـــسبب جرأة أفكاره أُجبر على الخروج من الدير (١٥٧٦) وعمل بالفلسفة ثم بالفلك وأيدَّ نظرية كوبرنيكـــوس، فقُبض عليه (١٥٩٣) واتُّهِّم بالهرطقة.

والآلام للجميع. فرجال الدين استعذبوا الرئاسة ومجد العالم وحياة القصور وتتويج الملوك، ورجال الحكم استخدموا قوة الدين لحسابهم ولتغطية شهواتهم وحروبهم واقتتالهم[١٥].

وإذ تنازلت الكنيسة عن دورها كصوت الحق، المتجردة كسيدها المترفعة عن المال ("**لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم**" – مت ١٠:٩، "**لا تحملوا كيساً ولا مزوداً**" – لو ٩:٤، "**ليس لي فضة ولا ذهب**" – أع ٣:٦ ، ".. **ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل**" – أع ٤:٣٤ "**لتكن فضتك معك للهلاك**" – أع٨:٢٠ "**كفقراء ونحن نغني كثيرين**" – ٢كو٦:١٠)، التي تنقذ من الموت وتهب الحياة لا أن تحكم بالموت، وتعلمت المواءمة وغضّ الطرف، وانحبس صوتها الذي يدين الحرام، زادت أموالها ولكن خبا نورها. إلى أن تغيرت الأحوال، وتراجعت كل من الكنيسة والدولة إلى مواقعها الحقيقية واستقل كل منهما عن

ولكنه لم يتراجع عن اعتقاده فحُكم عليه أولاً بالسجن في قبو مظلم لثمانِ سنوات، بعدها أُحرق حياً في سوق المدينة. في نفس الوقت تقريباً ظهر **جاليليو جاليلي** (١٥٦٤-١٦٤٢) الفيزيائي والفلكي الكبير الذي اخترع التلسكوب (١٦٠٩) فأكد عملياً صحة ما قال به كوبرنيكوس. وفي البداية رحب الفاتيكان باختراعه (١٦١١) مما شجعه أن ينشر ما اعتقد به في بحث صغير (١٦١٥) ولكن الكنيسة انتفضت فأدانته هو وكوبرنيكوس بالهرطقة (١٦١٦) ولما نشر نظريته (١٦٣٢) حاكمته الكنيسة وحُكم عليه بالحرم والموت (١٦٣٣) وخُفِّف الحكم، بعد قسره على التراجع علناً لإنقاذ حياته، إلى الإقامة الجبرية في بيته ومات (١٦٤٢) بعد أن كان قد فقد بصره (١٦٣٧). [وقد استندت الكنيسة في اعتراضها على نظرية مركزية الأرض إلى ما جاء في الكتاب عن أن يشوع .. وقت حربه مع الأموريين – كلم الرب قائلاً "**يا شمس دومي على جبعون ويا قمر على وادي أيلّون فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه.. فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تُعجل للغروب نحو يوم كامل. ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولا بعده**" (يش ١٠:١٢-١٤). وقد أصبح معروفاً أن ما جرى هو في حقيقته توقف الأرض والقمر (لا الشمس) عن الدوران حتى طال النهار وتحققت الغلبة لإسرائيل.] وقد ظلت مأساة اضطهاد العلماء تشوّه وجه الكنيسة الكاثوليكية حتى صدر اعتذار الفاتيكان بعد أكثر من ثلاثة قرون في عهد البابا يوحنا بولس الثاني (١٩٧٩) بإلغاء الحكم القديم على جاليليو، ثم قبول نظرية كوبرنيكوس وجاليليو (١٩٩٣).

(١٥) الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت في أيرلندا الشمالية (ذي الأغلبية الكاثوليكية) كانت في واقعها حرباً سياسية من أجل استقلالها عن بريطانيا (البروتستانتية) وليست حرباً دينية.

الآخر، فاستعادت الكنيسة قوتها كشاهدة للمسيح والإنجيل والبشارة بالخلاص والصلاة من أجل الحكام وكل من في منصب، وإدانة الانحراف والظلم، والدولة تحررت من استغلال رجال الدين واستغلالهم لها وصارت تحت رقابة الشعب وممثليه والقانون ورجاله وضامنة بدستورها لحرية العقيدة دون تدخل أو انحياز[١٦] .

+ أن تتحول القوانين المتعلقة بالأمور الزمنية إلى أوامر دينية يجعلها تابوهات Taboos يستحيل الاقتراب منها حتى لو ثبت قصورها وضررها. عندما تكون القوانين اجتهاداً بشرياً يمكن تغييرها عند اكتشاف عيوبها لتكون أكثر ملاءمة لخدمة المجتمع وتأمينه وضبط إيقاعه. **فالقوانين جُعلت لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل القوانين.**

+ عندما يتعاظم تدخل الدين (وهو في الواقع تدخل رجال الدين الذين يسترون شهوتهم للحكم والرئاسة والنفوذ والتسلط تحت غطاء الدين) في أحوال الناس اليومية، خاصة مع تعدد الاتجاهات السياسية وأديان المواطنين في الدولة[١٧]، فيما يأكلون ويلبسون[١٨] وغيره من التفاصيل الصغيرة، ألا يؤدي ذلك إلى اضطراب أحوال الناس وسيادة الاختلاف والتمييز وفقدان السلام وحرية الإنسان، والانشغال بالقشور والشكليات عن الجوهر، وإثارة التساؤلات عن الحرام والحلال المتعلقة بالأمور الزمنية، وطلب الفتاوي في توافه الأمور وأيسرها، بعد تراجع العقل

---

(١٦) ما جرى في القرون الوسطى من محاكمات دينية للعلماء نرى مثله حتى الآن من محاكمات تعقدها المجامع الدينية للكتاب والفنانين والمفكرين في بعض البلاد بحجة أن آراءهم ضد الدين. كما نرى كيف استُخدِم الدين في منطقتنا غطاءً للإرهاب والقتل الجماعي وتزيين الانتحار لصغار السن لقتل الآخرين مع الوعد بالمكافأة في الآخرة.

(١٧) حتى الذين بلا عقيدة سياسية هم سياسيون وعقيدتهم أنهم بلا عقيدة سياسية. وحتى الملحدون الذين بلا دين هم أصحاب دين ودينهم أنهم بلا دين! **"الذين ليس عندهم ناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو في الناموس فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس هم ناموس لأنفسهم"** (رو ٢:١٤).

(١٨) حُكم مؤخراً على صحفية سودانية بالجلد لارتدائها سروالاً في الطريق العام (!) لاعتبار فعلها هذا كسراً للشريعة، واضطرت الدولة تحت ضغط الرأي العام للعفو عنها مع تغريمها.

عن التفكير، أي التنازل عن أبرز ما ميّز به الله الإنسان عن غيره من الكائنات، ويسلمون أمورهم كي يسيّرها لهم رجال الدين؟!

وبدل أن يصير الدين قوة روحية سامية تهذب النفوس وتوجهها نحو الله، يتحول إلى ممارسات شكلية، ومصدراً للسلطة والغنى ومؤسسات عالمية وإعلامية وبنوك وغيرها. فالدين ينحرف عن هدفه ويُستخدم لحساب أطماع البشر في هذا العالم. وعلى المستوى الاجتماعي، ينتشر الفساد جنباً إلى جنب مع التدين الظاهري وزيادة التعصب، وتتراجع الثقافة والتفكير العلمي، وتزداد الفوارق بين فئات المجتمع.

❍ ❍ ❍

سيظل المسيح وتابعوه "**نور العالم**" (مت٥:١٤، يو ٨:١٢)، وسيظل إنجيله سُلماً للحياة الأبدية وليس دستوراً للحكم، وستظل سلامة العالم الحاضر، ونجاح الأمم، وتقدم الحياة، وعدالة الدولة، وكرامة الدين مكفولةً بالفصل الصارم بين الدين والسياسة، وليبق دوماً "**ما لقيصر لقيصر وما لله لله**" (مر ١٢:١٧، لو ٢٠:٢٥) من أجل الخير للجميع.

كتب صدرت من هذه السلسلة :

الكتاب الأول : **في السلوك المسيحي** (طبعتان)

التدين المضاد...ومقالات أخري

الكتاب الثاني : **عـن المسيـــح**

يسوع المسيح الشفيع الكامل... ومقالات أخري

الكتاب الثالث : **المسيح في حياة الكنيسة والخدمة** (طبعتان)

عثرة الصليب ... ومقالات أخري

الكتاب الرابع : **شخصيات كتـــابيـــة**

١- القديس بطرس .. أول التلاميذ

٢- القديس بولس .. آخر الرسل

الكتاب الخامس : **قضـــايـــا إيمـــانيـــة**

المسيح يعرفنا عن ذاته ... ومقالات أخري

الكتاب السادس : **في السلوك المسيحي (٢)**

نحن والصليب والخلاص ...ومقالات أخري